

الطبعة الثانية

رواية



سميحة خريس بقعة عمياء



بقعة عمياء

بقعة عمياء (رواية)

سميحة خريس (كاتبة أردنية)

الطبعة الثانية 2021.

© حقوق الطبع محفوظة 2021.



الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، عمارة البيجاوي (69)، ط3.

هاتف: 797162720، 65620722 (+962)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

لوحه الغلاف: الفنانة هيلدا الحيارى/الأردن

تصميم الغلاف: بسام حمدان

الإخراج الداخلي: م.سجود العناسوة

تم تحويل هذا الكتاب بدعم من مبادرة أضواء على حقوق النشر التي أطلقها معرض أبوظبي الدولي للكتاب 2021 التابع لمركز أبوظبي للغة العربية دون تحمّلها أية مسؤولية عن محتوى الكتاب.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مُصنّفه ولا يعبر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الأردنية: (2019/7/3413)

ISBN: 978-9923-13-134-3

سميحة خريس

بقعة عمياء

رواية



فَرَّتْ شَخْصِيَّاتُ الرِّوَايَةِ مِنَ الْوَرَقِ
وَتَوَزَّعَتْ فِي الْأَحْيَاءِ الْعَرَبِيَّةِ،
إِنَّهَا قَنَابِلُ مَوْقُوتَةٍ..

انتبهوا..

الفصل الأول

امبراطورية

تنحرف السيّارات عن مساربها بعشوائية، ويرتفع زعيق أبواقها عند تلاقي شارعي الثقافة وعبد الحميد شومان في مهرجان للفوضى، تنهمر سياط الشمس التي توسّطت القبة السماوية مباشرة فوق رأسي، يلتهب الأسفلت تحت خطواتي. أتفادى المرور المتعالق في نقطة لقاء الذاهبين والعائدين من اتجاهات متنافرة، محتمية بظلال الأبنية والأشجار المتفرقة على طول الرصيف دون أن يعينني الجنون المروري في لحظات الذروة، لا أحسد سائقي السيارات وراكبيها على ورطتهم، رغم أنني حسدتهم قبل سنوات، حين كانت «الشميساني» منطقة راقية وهادئة وجميلة، تتحرك فيها سيارات موظفي البنوك المصطفة على جانبي شارع «11 أب» بأناقة وهدوء.

تقهمني السيارات المغسولة بعناية وتثير غيرتي وخجلي حين ألمح مقدمة حذائي متسخة بأتربة الرصيف الذي تآكلت أطرافه.

أسرع الخطى ووجهي يقابل واجهات العمارات الحجرية متفادية أن يعثر بي زميل فتدب به النخوة أو توقفه الشفقة، عارضاً اصطحابي في سيارته، لا أرغب في أن أعلق في جوف واحدة من تلك السيارات المتلاصقة القادمة من كل اتجاه، ميمّة صوب منطقة المطاعم التي فقدت ألقها القديم ومستواها الاجتماعي الرفيع، فتحولت إلى كافتيريات شعبية يرتادها صيفاً العشاق الفقراء الذين أكثروا من الزيوت المنعمة فوق رؤوسهم، أو المصطافون الخليجيون بعائلاتهم كثيرة الأطفال، مختلطين بالمغتربين الأردنيين الذين يحثّون إلى ما انطوى عليه ماضي الشميساني الغابر، النساء المغتربات اللواتي جئن يقضين إجازاتهم بين أهليهن، يجلسن في عز الظهيرة في المقاهي المكشوفة التي تحتل الرصيف متنكرات بالعباءات الخليجية السوداء وقد رسم الكحل عيونهن ببراعة، وفاحت حولهن رائحة عطور شرقية ممتزجة بحرارة الهواء عابقة بأبخرة الأرجيلة، تفضحهن طريقتهن

الفجة في سحب أنفاس الأرجيلة، مثل غربان ارتبكت خطواتها، يغادرن الطبقة الكادحة دون اللحاق بطبقة الأثرياء، كما يفضحهن أبنائهن الذين تضخمت فيهم دلالات العز والرفاه المادي الجديد فباتوا أكثر بياضاً وسمنة وسماجة، أفرق ببساطة بين أبناء الخليجيات وشبه الخليجيات، يميل الآخرون إلى السمرة ويتمتعون بخصلات شعر هندية سوداء ملساء غزيرة تنسدل فوق عيون سوداء واسعة.

أكمل طريقي دون المرور بشارع إيليا أبي ماضي أو حارة المطاعم، باتت المطاعم مربية، ترتادها فتيات يرتدين تنانير قصيرة لاصقة يصبغن شعورهن المنكوشة باللونين الأشقر والأحمر ويكثرن من المساحيق، قد أدخل الشارع مسرعة مضطرة لارتياح الصيدلية.

أكره المكان، فهو المصيدة التي حولت حياتي إلى جحيم، هناك قبل عقدين من الزمن تم اصطيادي، لأسباب منطقية حينها وقعت كغزاة غرة حمقاء في فخ الشميساني، تتبدل الأسباب كل عقد من الزمان، ولكنها تتوالد كما نسيج عنكبوتي مكين يحيط بي ويزداد تعقيداً كلما حاولت الإفلات منه.

في ظهيرة شديدة الحرارة متقدة كهذه، تطفو في ذاكرتي مثل طحلب فوق سطح مستنقع تعبيرات يرددها زوجي متقمصاً شخصية الفيلسوف كأن يقول: إن (نيتشة) وصف الأوضاع المتوترة بـ«عبوة ديناميت». لم أقرأ لنيتشه ولا لسواه، ولا أظن ربحي قرأه ولكنه يجروء على اقتباس كلماته التي سرقها من قراءات متفرقة حوله. لديّ في البيت فقيه في فكر (نيتشة)، فيلسوف ينق مثل ضفدع يجهل ما يسببه من إزعاج. يثرثر زوجي أكثر مما يقرأ، يظنه السامع الساذج مثقفاً، إلا أنّ لعبته لا تنطلي عليّ منذ زمن بعيد. في لحظة الظهيرة تلك تخيلت أن (نيتشة) كان يقصد صيقاً عمانيّاً، أو أنه كان يعينيني حين قال «عبوة ديناميت»! من أنا سوى تلك العبوة الجهنمية ذاتها؟ تتأجج رغبتي المجنونة بالانفجار في وجه الشارع الحافل بالبشر، يغلي قلبي حتى تفوح منه رائحة الحريق.

تُبطئُ سيارة (بي أم) على الرصيف المقابل، وتقف حيث يمنع الوقوف، تترجل منها امرأة خمسينية في مثل عمري، تتمتع سيارتها ببرودة التكييف، شعرها مصفف بعناية ووجهها رائق مسترخ وقميصها حريري ينسدل دون التصاقات حول جسدها، تدخل محل النظارات المقابل ويظل ظهرها وشعرها المصفف ومؤخرتها الكنيزة مكشوفين للعيان عبر واجهة الزجاج النظيف، لا أحسدها؛ ولكنها توترني. تعكر مزاجي بسؤال احتجاجيّ علق في حنجرتي: لماذا تتمتع تلك المرأة

بمكان ترمي إليه مؤخرتها السمينه وتستريح بينما أقطع المسافة، سيرًا على الأقدام من موقع عملي في البنك إلى بيتي يوميًا مهما كانت الأحوال الجوية؟ ربع ساعة من العذاب، ليست بالزمن الطويل ولكن مع ارتفاع درجة الحرارة تتصاعد حرارة عبوتي الديناميتية، أتوقف لإشعال سيجارتي التي قادني موظفو البنك للإدمان عليها.

أنطوح ضاحكًا حين يقع نظري على امرأة نحيلة تقف على مقربة من محل النظارات الفاخر الذي تبدو منه المرأة الثرية وكأنها في زجاجة، تقف المرأة الأخرى على الرصيف وترفع جسدها القصير النحيل على أطراف الأصابع التي تطل من صندل صيفي مهترئ تنتعله، تمط جذعها ثم تميله وينحني رأسها في حين تغيب ذراعها في قلب حاوية القمامة عند طرف الشارع، أضحك ساخرةً بمرارة كأني في ملهاة فانتازية، ثم أزجر نفسي وأعتدل وتتوقر ملامحي قبل أن ألفت انتباه المارة. كل النسوة الثريات أو المتسولات لا يعنينني ما دمت ابنة طبقة وسطى، لا تقوى على ابتلاع نظارة فاخرة، ولكنها لا تتدلى في حاوية القمامة.

أنهي سيجارتي فيما يشبه المفاجأة واقفة عند البوابة الخارجية لبيت جاري، مالك البيت، ألقى عقب السجارة في الشارع، سنأتي السيريلانكية التي تعمل لديهم وتقش مكنستها في المساحة الممتدة على طول البوابة، أصعد سلم شقتي الحديدي بإهمال، أفتح الباب تاركة خلفي المرأة الرزينة التي كنتها، تتجمع خسارتي وغضبي لأنفجر في الداخل، وراء الأبواب الموصدة نتحول إلى بشر مغايرين عن أولئك الذين يسيرون في الأسواق ويتبادلون الابتسامات مع المارين، تلحس السنة اللهب كل من حولها بالتقريع والتأنيب، أستثني (نور) من غضبي، فالبنت لا حول لها ولا قوة.

قطعت ذات الطريق لسنوات، لا شيء يختلف، لم أقتن يومًا مثل السيارة التي غادرتها امرأة النظارات، وارتضيت التعفن في ضاحية الشميساني، متفاديةً القرض البنكي الذي أشهد حكايات ضحاياه كل يوم من وراء منضدتي المحايدة في البنك. في كل الأحوال أدرك أنني لن أتمكن من الوفاء بمتطلبات قرض بنكيّ يمتص دمي رويدًا رويدًا، رضخت أمام قدر يدحرجني بإلحاح بطيء من طبقتي إلى دون ذلك بهامش يصغر أو يتمدد وفقًا للرياح التي تعصف بالعالم تارة، وبالبلد الوسطي الصغير فقير الموارد تارة أخرى.

لا يوجعني عدم اقتناء سيارة، في كل الأحوال تمثل السيارة مصدر تهديد للبيئة، وعبئًا لا أحتمل تكاليفه، أسير وزوجي ربحي وأبنائي، حتى البنت الضريرة، مشيًا على الأقدام إلى أعمالنا

ومدارسهم وأهدافنا القريبة، نكتسب الصحة واللياقة البدنية متمتعين بنفحات الأكسجين الوفيرة في هواء الصباح، متزودين بفيتامين (د) وكالسيوم الطبيعة ظهرًا، متفادين أمراض البدانة. مكتسبات لا تحسب عادة، أستحضرها بزهو وكبر لتعينني على الاحتمال. لكل معاناة فائدة، ولكل رفاهية ضريبة، لم نشبه يومًا سكان الضاحية المنعمين الأنقيين الذين لا يسرون على أقدامهم إلا للتسلي أو ممارسة الرياضة مرتدين أحذية (نايكي) وفانيلا (أديداس)، بينما تقف سياراتهم (المرسيدس) و(بي أم) في كراجات بيوتهم المزينة بأشجار الليمون والياسمين المشعلق على جدران الأسوار منهمرًا نحو الرصيف ذي الحجارة المصقفة بعناية، فضاء نموذجي، يبدو حلمًا للآخرين لكنه عالمي الضيق. بمجرد معرفة الآخرين أنني من سكان الشميساني العتيق يكونون حولي انطباعات خاطئة، يتوهمون أنني ولدتُ، وفي فمي ملعقة ذهبية، لا يعرفون أن لكل بهاء طرفًا قاتمًا، وأن الفقر يلبد كقط متسخ على هامش الحياة المترفة، أنتمي تحديدًا إلى هذا الطرف القاتم. وقد نسيت منذ زمن كيف تورطت أساسًا في الضاحية التي لا تشبهنا.

في زمان ما كنت البنت نوال التي تركب باصًا عموميًا، يُقلها من جبل الحسين إلى فردوس المنعمين.

شعر طويل منسدل، وملابس محتشمة قياسًا بثياب بنات الشميساني وتنانيرهن القصيرة وأحذيتهن الجلدية الأنيقة التي ترتفع في الشتاء إلى ركبهن بأربطة مُحكمة دون التنازل عن الكعوب العالية، لم أكن أشعر بتواضع ثيابي البسيطة التي ابتعتها من جبل الحسين، يكفيني أنها نظيفة متناسقة، وكنت فيما يشبه الصدفة أو المعجزة قد حصلت على عمل في بنك، فدخلت عالم الشميساني الملون بقزح. تلقيت وعودًا كثيرة عن تأمين موصلات خاصة بموظفي البنك، إلا أنني لم أحظ بها أبدًا ومع ذلك انقضت عقود وما زلت أعمل في ذات البنك العتيق. فتنني المكان وناسه وأجواؤه، البيوت الجميلة المسورة وحدائقها المزدانة بالورود تطل من وراء السور المنخفض حيث يختبئ الياسمين في تلافيف أزهار شجرة الجهنمية الزاهية البرتقالية أو الوردية، دوختني شجيرة (الكلونيا) تفوح من زاوية ما ليعبق الشارع الحيوي كله بالعبير. في ذلك الزمان كان سكان جبل الحسين يزرعون أشتال السجادة والخبيزة في تنكات السمنة وأصص الفخار، بينما ينبت سكان الشميساني الفل وأزهار (الجاردينيا) في أصص سيراميكية، أمرُّ بهم متفادية التحديق في المشاهد الفاتنة المنمقة لنلّا أثير سخط أحد ما، أراوح مكاني في شارع البنوك أو المطاعم حتى يحين موعد انصرافي إلى عالمي الحقيقي البسيط.

آخر الشارع، قبل الالتفاف مباشرة، تفوح رائحة قويّة منبّهة لتحميمص القهوة في مقهى (الفاروقي)، حيث يجتمع نخبة من المثقفين والسياسيين إضافة إلى العشاق والعابرين من الدرب، تشدهم الرائحة المبهجة للقهوة، هناك وقع أمر فارق في حياتي، شطرها إلى ما قبل وما بعد دون رحمة، هناك وقع نظري للمرة الأولى على ربحي. رغم شعره الأشعث، وسيجارته الملتصقة بالسبابة والوسطى حتى لتبدو جزءًا من كفه الملوثة بصباغ التبغ ورائحته، ورغم أنفه العريض الذي يشغل مساحة مزعجة ملحوظة واسعة في وجهه، إلا أنني تغاضيت عن اشمئزازي العابر الخفيّ، متعلقة بكلمات لم أفهم دلالاتها. اجتاز صوته الجمهوري مسافة طاولتين بيننا، مميّزًا واضحًا بين أصوات رفاقه، كانوا حشدًا من رجال ضخام هبطوا من كوكب خرافيّ، يتحدثون بتركيبيات مختلفة تبعث على الرهبة لفداحة ما يقال ولا يمكنني فهمه، أخرجني الشعور الحادّ أنّي غشيمة جاءت من منطقة متواضعة لا يتحدث أصحابها كما يفعل هؤلاء، إيماءاتهم فيها كبر وثقة وفوقية، حتى لتبدو حركات الزبائن العاديين تافهة، بدت ساذجة تواجدت خطأ في مقهى المثقفين العريق. يدخن جمع المثقفين بشراهة، ويكدسون فناجين القهوة أمامهم، يمعسون أعقاب سجائرهم في تفل القهوة الرطب بلا خجل، لكن هذا الفعل لا يبدو سوقيًا أو مستهجنًا، ما داموا ينشغلون في حديث مهم خطير.

اصطدمت نظراتنا مرات، هربت عيناى مرعوبة ثم اختلست رؤيته ملهوفة فابتلعتني عيناه، علقت في شبكة محكمة. واصل النظر نحوي حتّى شلّلت أطرافي فرعًا من الرّصد الحيواني المغلف بابتسامة غامضة، ارتجفت مثل ورقة خريف تتطوح في عاصفة، فإذا ما انفضّ أصحابه، تقدّم إلى طاولتي بخطوات بطيئة كأنّه يهدّدني، وقفت وانحنى رأسي وخبأ انهماج شعري فوق وجهي ارتجافة وجنتي، جمعت باضطراب حقيبتى والولاعة البلاستيكية وعلبة السجائر الفارغة استعدادًا للفرار، ضحكك واتّهمني بالجن، حدّقت بدهشة طفلة في الرجل العملاق، تلعثمت وأنا أحاول تبرير سبب انصرافي، لا أعرفه وليس عليّ أن أبرّر له عدم مشاركته الجلوس إلى طاولة، ولكنّي أفعل. لا أملك الوقت للغياب عن العمل، ولا رفاهية الجلوس في المقاهي إنما هي فترة استراحة محسوبة.

لم أقتنع في أعماقي بحقي في الجلوس إلى رجل فريد مثله بالكاد أفقّه ما يقول، لكنّه ألحّ كأنّه الأمر الناهي، وكأنّ الضوابط والقوانين لا تخصه، فجلست. خصم هذا اليوم من راتبي، وما ظننته إعجابًا وجرأة ذكورية في صالحه، أدركت في ما جاء من عمري أنه بعض طباعه، سماجة طاغية يفرض فيها نفسه على الآخرين.

أقدمت على الارتباط بربحي ورأسي تلف وأنفاسي تنقطع، نسج الرجل الخطير الفاتن شبابه بإتقان حولي، ودفعني إلى التقليل من شأن الأحلام القديمة والإجراءات الاجتماعية المعروفة كالعرس والفرس والفرس الأبيض وإعداد منزل الزوجية، حتى حين جرأ شقيقي محمد المواسرجي أن يسألني عن دراسة العريس ومهنته، تصرفت بوقاحة تقلل من شأن أخي الذي ضحك باستهانة قائلاً: مكتبات؟ هذه دراسة بنات.

- تركنا لك دراسة الرجال.

أوشكنا على التشابك بالأيدي لولا هدوء والدي وهو يقرّ بأن الرجل لا يعيبه إلا سوء خلقه، وأن منصب أمين المكتبة منصب محترم لا يناله إلا الخاصة، وأن الرجل مناسب لابنته الجامعية. انسحب أخي مقطباً. الفرصة معدومة لأن يحب المواسرجي الذي لم يتجاوز الرابع الابتدائي موظفًا راقياً في مؤسسة راقية، ولكنني أحببته، سقطت في فخه بسهولة، لزمني عام واحد من الزوجية لأكتشف أن خطابه الغامض مجرد ثرثرة لا طائل تحتها، وأن الصورة التي يرسمها حول ما يسميه نضالاً، كلام في كلام، حكايات ملفقة تتعالق مع حكايات حقيقة وقعت لسواه، يعرف رفاهه كذبه ويسمونه سرّاً «أبو عرطة»، ينفضون عنه ثم يعاودون وصله للتسلي، وهكذا في فترات متقطعة.

تبدّد النهار الفارق البعيد إلى أيام متتالية قاتمة صعبة، وتفتّت الرجل الفريد إلى حالات واهنة، تقرّم عملاقي وانقشع السحر قالباً الافتتان إلى نفور خفي، وظلت لي رائحة أنامله المشبعة بنتن السجائر وصوته الجهوري الذي يفتقد إلى الدماثة، وأنف يسد أنفاسي إذا حدث وقبّلني، إبان كان يقبّلني، النتيجة الماثلة، أنني محبوسة وإياه في سجن الشميساني الكبير إلى الأبد.

أخفيت عن والدي أفكار ربحي في السياسة، اعتقدت أن هذا أمر يخصني وحدي، والدي البسيط كان يخاف السياسة، يلتزم بالسير لصيقاً بالجدران، يكافح لإطعامنا ويفزع من التدخل في شؤون لا يفهمها، يظن أن وراء الكلمات أنفأ تقود إلى السجون، شقيقي المواسرجي كان فدائياً صغيراً قبل أعوام، ثم تنكّر لماضيهِ وانصرف إلى رزقه، أما شقيقي الأصغر محمود فما يزال على مقاعد المدرسة الإعدادية، كانوا من طينة مغايرة لطينته، طبقة حققت أقصى ما تقدر عليه بابتنة تخرّجت من الجامعة وعملت في بنك في أرقى أحياء المدينة. قد تلطم أمني خديها وتنوح إذا عرفت أن زوجي يتحدث عن أرتال الفدائيين الخارجين من بيروت ببزاتهم العسكرية، أو يحلّل بكلمات شائكة ما وقع في (صبرا وشاتيلا)، وهي إن تعاطفت مع تلك المآسي، ستجنّ إذا استمعت إلى

استنكاره للحال الاقتصاديّ، وهو يتراجع والأسعار ترتفع، تظنّ وراء الكلمات حبسًا أكيدًا، والحبس لا يكون إلا لفدائيّ يقف على أبواب الشهادة. إنّه ترمّل مبكر لابنتها المقبلة على الحياة، الغريب أن والديّ اللذين خرجا من فلسطين، قاطعين النهر، يحملان حكايات البلاد زادًا يوميًا لنا، أصيبا بالخرس بعد اتفاقية (كامب ديفيد)، واستسلما للخوف فاقدين ثقتهما بالمستقبل.

بدأت الرحلة الزوجية في تقدير عائلتي البسيطة عادية وموفقة، رجل يملأ العين، أنامله نظيفة لا تشبه أنامل شقيقي الذي يقلب رزقه من تسليك المواسير المسدودة في المطابخ والحمامات، يتحدث بحصافة ولغة مركبة تليق بالمتعلّمين ويعمل في مؤسسة ثقافيّة مرموقة، سياسيّ من طراز مختلف، يعلم ما لا يعلمه الناس البسطاء، وما دمنا قد أقدمنا بحماقة على دخول مؤسسة الزواج فإن من مصلحتنا إيجاد بيت في الشميساني حيث عمله وعملي، أسّسنا عائلتنا الجديدة في بقعة يمكنها نقلنا إلى المستقبل المشتهى بسرعة صاروخية.

اقتربنا في لمة عائليّة، وبعشاء متواضع لأفراد من عائلتي، بالكاد يعرفون اسمي أو اسمه مع عدد محدود من الصّحاب والجيران فوق سطح بيت أهلي، مع غياب تام لعائلته البعيدة في قرية منسية.

تهاجمني ذكريات رحلتي العائرة مرارًا في رحلة العودة اليومية من العمل، وتنقشع بوصولي باب منزلي، المنزل الوحيد الذي سكنته منذ تزوجت، يغير الناس سكنهم كل بضع سنوات ولكني لم أفعل، لزقت في المكان، عشرين عامًا ويزيد.

أهرول ناسية التقاط أنفاسي كما يجب، هاربة من اكتظاظ الشوارع المحيطة بالبنك إلى هدوء خادع يحيط بيّتي. ليس بيّتي تمامًا، فلا مقتنيات حقيقيّة تخصّني. إنه بيت عبد الجليل، المالك، الهدية التي سقطت علينا من السماء ونحن نبحت عن حجرة متواضعة الإيجار في منطقة منعمة لتضم العائلة التي ننوي تأسيسها، فإذا بنا في ضربة حظ نقع على شقة مذهلة تقوم فوق فيلا المالك مباشرة.

يمتلك عبد الجليل دكانًا صغيرًا في المنطقة التي يتقاطع بها الشميساني بوادي صقرة، طوره إلى ما أسماه (ميني ماركت) موضحة الثمانيّات، قبل هجوم المولات والسوبر ماركت الضخم. سكنا في الطابق الثاني للفيلا الفارهة، كان قد أقام درجًا لولبيًا مزينًا بسور حديديّ أنيق على شكل أزهار اللوتس يصل إلى باب الشقة في الطابق الثاني، بينما شغل وعائلته الطابق الأرضي بحديقته الغناء.

أُتاح الدرج المعدنيّ خصوصيّة لكلّ منزل، أراحته الطّرفين. بالغنا في تأكيد تلك الخصوصية بإسدال ستائر سميكة خلف زجاج لا يفتح صيفاً، وإسقاط السّدّ الخشبيّ شتاءً غير طامحين بدخول الشمس ولا الهواء، هكذا وفي لعبة عجيبة من القدر تشاركنا مع أصحاب الفيلا حياة طويلة مديدة.

أوشكتُ أيّامها على تسمية عبد الجليل «عمّو»، فقد لاح شيب طفيف في ذوائب شعره، ولم أنوي مناداة زوجته بلقب خالة، فلست غبية إلى هذا الحد، تعلمت منذ أن عملت في البنك أن النساء ينفرن من تسميات تعزز الفارق العمري، لهذا وبحصافة لم أظن أنني أتمتع بها، ناديت كليهما «السّيّد أبو كريم والسّت أم كريم»، كنت العروس الصغيرة المحترمة التي تفهم ما هو لائق وما لا يجوز.

في هذا البيت «اللّقطّة» بدأت حياتي الزوجيّة وما زلت أعيشها. لم أحلم بأكثر من حجرة، وصالة، ومطبخ صغير؛ ولكنّ الصدفة السعيدة التي جعلت أبو كريم يفكر بتأجير بيته بثمن معقول لا طمع فيه مكّنني وزوجي من افتراش ثلاثة حجر للنوم ستستخدم كلّها لاحقاً مع قدوم الأولاد، وصالة وشرفة صغيرة ملحقة بحجرة النوم التي خصّصت للنبات، ومطبخ يصلح للولائم التي لم نقمها أساساً. الهبة الإلهية والكرم الذي أسعدنا من المالك عبد الجليل لم يمنعا ربحي في كل مناسبة، سرّاً، من وصفه بالبرجوازي الذي يفتersh العقار بحديقته وكراجاته، متفضّلاً علينا بالطابق الأوسط كأنه يحدد لنا مكانتنا التي لن نبرحها إلى الأبد، إلا هبوطاً. يبدو لي أحياناً أن ربحي ينسى أننا مجرد مستأجرين، يصوّر الأمر، وكأنّ له حق في المكان غامراً المالك بنعوت سلبية مقبّلة. زوجي حرفي متخصص في جعل الحلو مرّاً.

تحول البيت الذي أفرحني وفاق أحلامي المتواضعة إلى معتقل أبدي لكلينا. زحف الملل إلى حياتنا سريعاً، تقشّر جلده السميكة طبقة وراء طبقة حتى انكشف لنا، فارغاً يطفح بالهراء، رغم أننا في الشباب تحمّلنا إزعاجات العمل، وموت الرومانسية المدّعاة، وموت ذويّ وأقاربه البعيدين وانفضاض الصحب، كما تحمّلنا ضربات الحياة من أزمات اقتصادية وتغييرات سياسية، ولم تقصم ظهرينا مأساة ابنتنا، تحمّلنا بكل ما للشباب من لا مبالاة وخرافة وتحديّ، اعتبرت نفسي انتحارية تتعرض يومياً للاختبار العسير، خسرت عمري وكرهت وجهي في المرأة كوني زوجة رجل لا يرضيني لكني لا أملك ترف التفكير بالفكاك منه.

تصاعدت الأزمات الاقتصادية منذ أن تزوجت بلا توقف، تعرفت على الهموم وأنا أحسب مصروف البيت الذي يطير في منتصف الشهر، بينما أجلس في العمل وراء قاطع زجاجيّ، حفر في

أسفله طاقة على شكل هلال ظريف يمكن العميل من الحديث معي عبره. أعدُ النقود رزمًا غليظة ليست لي، وأعدادًا لا تدخل بيتي. تقلّب أناملي الرّزمة ببراعة وإتقان، وأعيد العدّ مبتسمة في وجوه عملاء البنك بذوق، تنتهي تلك الرزمات دائمًا من كفيّ إلى أكفهم، لا أحسد زبونًا ثريًا ولا أحقد عليه، كما لم أجسر على لعن حظّي ومعاينة ربي، بدا لي شأن المال ثانويًا، فقد عشت وأهلي بما يمكن تسميته السّتر، ويمكنني مواصلة حياتي على هذا المنوال، ما دامت ابنتي البكر ندى لا تحتاج إلى أكثر من الحفاظات والحليب، تنمو جميلة خفيفة الظلّ ذكيّة، أشكّ أحيانًا في ذاكرتي! هل كانت ندى حقًا ذكية في طفولتها المبكرة! لا أعرف متى؟ وكيف يتبدّل العقل؟ استمتعت بطفولة ابنتي التي جعلت الحياة شبه هنيئة، ساعدتني الطفلة على احتمال تفاهة ما يردّد زوجي من نظريات سياسيّة مجتزأة ومثقوبة لم تطبق على أرض ولا سماء في يوم من الأيام، تقبّلت أو هامه التي يتحصّن خلفها هروبًا من الواقع، ينضو ثيابه تدريجيًا ويصغر متقرّمًا، وكلّما فارقتني سذاجتي ازداد بشاعة، تأقلمت ساخرةً مع حبال كذبه التي تتقطع في كل حكاية، بتلك السذاجة وهذا الرضا الذي يشبه الاستسلام واللامبالاة، مضت الحياة.

قلقت بعد سنوات من تأخّر الحمل الثاني، هل يفترض الاكتفاء بابنة واحدة؟ تتغير زميلاتي في البنك، تأتي جديدة وتخرج قديمة، وحدي ثابتة كما نقش أثريّ لأسد رابض على صخرة عتيقة، كلهن كن يسألن محرجات أو متواقحات، متعاطفات أو من باب التسلية: لماذا لم تتجبي غير طفلة واحدة؟ لا أعرف بماذا أجيب، فالسنوات تمضي دون أن أشعر أو أهتم، حتى حين طالبتني أمي في مرض موتها، متحسرة بعرض نفسي وزوجي على طبيب، لم أفعل، ربما انشغالا أو كسلا، أو خوفًا من ترسيخ ارتباطي بالرجل الكذبة الذي لم أتمكن من صرف أفكاري عن أنفه الذي يسد مجرى التنفس حين يعانقني موغلا في جسدي، منفصلا عن الروح، أتساءل في خضم استسلام جسدي وانتظار النشوة التي لا تأتي: ألهذا يحترب الناس ويأكل بعضهم بعضًا؟

ارتطمت بحقيقة زوجي قبل أن يتسنّى للزواج تدريب روحي على الرضا، وتهئية جسدي لفنون المتعة، بعد تسعة أعوام من الزواج الباهت خُيل إليّ، أن تغييرًا طفيفًا سيحدث. اقتادوه للتحقيق إثر مشاركته في احتجاجات اجتاحت الشوارع، خُيل إليّ حينها أنه يلعب لعبة خطيرة، ثعلب يندس بين النعاج، يمثل، يدّعي الانضمام للشارع لغرض في نفسه، خجلت من أفكاري الشريرة حين أودعوه الزنزانة، بات زوجي سجينًا سياسيًا، وكدت أسامحه، ورحت أتقمّص دور زوجة البطل التي لم تقدر قيمته. أنبث نفسي كثيرًا وعاهدتها على التغيير، لهذا، وعند عودته بعد غياب أسابيع، وهبت

جسدي حبًا في محاولة لمعالجة روعي الكريهة، تفتّحت أنثى كاملة في ظل أوهامي، أسررت
لنفسي: لعله يستحق وأنا لا أعرف.

بادلته الحماسة على السرير، كأني أكافئه على مكوته في السجن شهرًا، يقلّ بأيّام. رافقته
فخورة إلى مهرجانات الاحتفال بخروجه من السجن، إلى اللقاءات المرحّة مع المثقّفين في مقهى
الفاروقي، الذي أغلق بعد عقود لأنّ مردوده الماليّ لم يعد يُجدي. في ذلك الوقت استبدل أهالي عمان
المقهى العتيق بـ(مقهى السلطان) الذي يقع في الشارع الذي يلي الالتفاتة الضيقة، يدخله زوجي
منفوشًا مثل ديك يختال في قنّ الدجاجات، يلقي نظرة متفحّصة على المقاعد التي شدّت بأقمشة تزهو
بشعارات فرق الكرة العالمية، يختار كرسيًا، وفق الفريق الفائز في المباريات الأخيرة، يسحبون له
الكرسي ويهّنونه على رحلة النضال القصيرة، وبينما تُدقّ عجزته قماش الفريق المنتصر، ويبثّ
مكبر الصّوت أغنية لبنت لهلوبة اسمها (سيمون) تصيح بدلال: «بتكلم جدّ.. ما تقولش لحدّ»، ينسجم
ربحي وهو يصف صموده ونظرات الاحتقار التي تبادلها مع سجّانه، وقد يطنب ويزيد ويلون
المواقف، يضاعف المدة التي غابها وراء القضبان، يمطّها إلى سنوات بلا خجل معتمدًا على ذاكرة
المستمعين الواهنة وجهل الشباب المتحمسين الذين يرتادون المقاهي، حالمين بمجالسة أساطين الفكر
والسياسة، يكذب في غطرسة جريئة، فأبتلع لساني وترتجف الابتسامات البلهاء على شفّتي، يتشوش
سمعي وتزوغ نظراتي في الشاشات العريضة المثبتة في كل ركن من المقهى تبث مباراة أو أغنية
صاخبة. كدت أقع مجددًا في فخ ربحي، كدت أصدّقه لولا عيناؤه المنطفئتان الخاليتان من الحماسة
والحركة التي تلازمه حين يكذب ويتباهى رافعًا رأسه مُتعمّدًا النظر إلى السقف متشبّهاً بالقذافي، أو
حاكًا أرنية أنفه بطرف سبابته كأنه مدمن، تبخر السراب مجددًا، وعاد الرجل كما كان، كتلة شوهاء
مزورة، تثير الأسى، وتستدعي الشفقة. يتبادل الجالسون النظرات الساخرة خجلين من فضح حجم
ادّعاءاته أمام زوجته البريئة.

لا يمكنني مسامحة نفسي لقدرتي الهائلة على احتماله عمرًا، ألاحظ تنقّل نظراته السريع على
أرداف البنات اللواتي يعبرن المقهى واختراقها المباشر لقمصانهن المفتوحة أعلى الصدر، تعيدني
نظراته الشرهة بقسوة إلى تذكر الغباء الأول الذي علقت به، تثير سخريتي وتخرجني نظرات
التعاطف من رفاقه. تعرّضني للمذلة حين يقرر أحدهم أنّني أستحقّ مثل هذه النظرات ما دام زوجي
لا يمنحني إيّاها.

قرفت الحصار اللعين، وتمنعت عن مرافقته بعد فترة، تركته لأمجاده ومغامرات (دون كيشوت) التي أكلت رأسه. فعلت ذلك متأخرة بعد أن طاردت سرايبي لعامين. منحنا هذا الزمن المترهل وتلك الخدعة طفلين ولداً تبعاً، نور ثم نادر، اكتملت الأسرة النموذجية بأبنائنا الثلاثة، وكأي ربّة منزل نمطيّة متبلّدة، تمنيت في أعماقي أن تقتله الدّناءات التي يزخر بها رأسه، فأصير أرملة حزينّة ترفل براحة البال وتملك أقدارها، لكن هذا لم يحدث. الموت حقّ، حلّ حقيقيّ لمعظم مآسي البشرية، لكنه لا يأتي على هوى من يتمنى، ينشغل الموت بالأبرياء في حارات بيروت وأزقة القدس وشواطئ غزّة، ولا يسارع إلى اقتطاف أعمار من هم جملٌ ثقيل على الحياة الطبيعيّة، يتأجلّ الموت ليقهرني، ويبعث في رأسي أفكاراً شريرة مريّة، تداهمني وأنا أتناهى بالنوم إلى جانبه، فإذا ما انبعث شخير قفرت الفكرة المجنونة. يمكننا أن نسعى إلى الموت، أن نفعله! لو رفعت الوسادة بلطف ثم وضعتها ببطء على وجهه، دقائق قليلة وينتهي الأمر، وأصير امرأة مجرمة قاتلة، أرملة جميلة طروب، أتحرّر من الغثيان الذي يلازمي، أفرّ من سريري متعرّقة مستغفرة، أفرّ من كوابيس النفس، مندفعة خارج المنزل تماماً، أجلس في أعلى السلم الحديدي على مؤخرتي ضامّة ركبتيّ، متجاهلة برد المعدن على لحمي ووحشة العتمة وصمت الشارع المحايد، أشعل سيجارتي، أشفط دخانها الثقيل إلى صدري ثم أنفثه، وحين يشتد لسع برد المساء، أعود إلى حجرتي لأنام بعمق رغم شخير المتقطع ورائحة البيرة المنبعثة من أنفاسه، أنام وتنقش أحلام المجرمة الصغيرة.

هناك وسائل متعدّدة للقتل، لا تشبه في معظمها ما تعلّمنا إيّاه الشاشات من رصاص طائر وجروح دامية، ولا ما تتركه الحروب من قتلى وشهداء. القتل فنّ آخر، بانتظار الموت الحتمي لي أو له، يقتلني كل يوم وأقتله. بتّ شريرة أستمع بإخراج التقارير الأمنيّة التي يدبّجها زوجي مزورة وحقيقيّة، أعرّ عليها في أدراج مكتبه أو مكرمشة مبتورة ملقاة في سلة القمامة، تقارير تصف بإسهاب ولغة ركيكة ما يدور في كواليس الكتاب والأدباء والأكاديميين الذين يطارحهم اللغو في مقاهي الشميساني أو حجر الجمعيات الثقافيّة الضيّقة في اللويبة. معظم ما كتبه لا قيمة له، إذ إنّ السياسيين المتمرسين يعرفون خصاله ولا يسلمونه أسرارهم، لم يفاجئني، هذا يشبهه تماماً. يصيبني بالغثيان وهو يناقش في بعض رسائله زيادة المكافأة لقاء تلك الخدمة الوطنيّة في التّجسس على الرّفاق والأصحاب. أيّ مكافأة؟! لا ألمس لها أثراً في البيت ولا على مائدة الطعام ولا حتّى سيّارة متواضعة تمكّننا من التّرفيه عن ابنتنا العمياء، تنقلنا إلى حيث المزارع وفائض الأكسجين والأفق المفتوح في مكان ما بعيداً عن حيطان الحجر ونوافذ الحديد التي تؤثت المدينة، لو أنّ اللّواصعة ثمناً

يجعلنا نرفل بالنّعيم، لن أتوانى عن القبول بها، لن أرفض الرّفاهيّة بتاتًا، لست ملاكًا ولا أدعي الوطنيّة والشّرف الرّفيع، بي ما بي من ذلة واعوجاج وضعف بشريّ مقيت، ولكن أين هي هذه الرّفاهيّة المنتظرة؟ لو حدث أنّ تقاريره أغنتنا وخفّفت معاناتنا فإن ذلك لم يكن سيخفف من احتقاري له أيضًا، ما أرخصه وأرخص خدماته.

يفيض نفور مُرّ في نفسي، فأحمل أوراقه وألقيها في وجهه ممهورة بنظرة احتقار يستحقها مصحوبة بسيل من السّباب البذيء. لا أستحي من قاموسي الفاحش، فالكلمات القذرة وحدها تهدئ غضبي وتليق بوصفه، لقد حولني إلى امرأة شرسة سليطة. ينحني يلمّ أوراقه مطأطأ ببرود وصمت، ثم يتصرف كأن شيئًا لم يكن.

نتربص ببعضنا البعض، كأننا لم نتطرح جسدينا يومًا. لعلّي غفلت لفترة عن تلك العلاقة الشائكة المقيتة، وأنا أوهم نفسي بعادي الحياة، أعلّق سأمي على مشجب العمل والتعب، والحمل الثاني والثالث اللذين أفضلا خططي وأوهنا عزيمتي. في تلك المرحلة تحديدًا فكّرت بهجرانه والخلاص من أفكاري الشريرة نهائيًا، وتدمير تلك المملكة السعيدة التي تظاهرت يومًا أنني أبنيتها متأثرة بفيلم فاتن حمامة (امبراطوريّة ميم) الذي شاهده منذ سنوات، أحقًا بدا لي أن السعادة تتحقق بمثل هذا التشابه في الأسماء؟ أعلنت قيام امبراطورية نون، نسبةً إلى اسمي «نوال»، ورغم سخريته، لم أتنازل عن تسمية أبنائي أسماء تبدأ بحرف النون، حتى وإن باعدت عشرة أعوام بين طفلي الأولى والثانية، ظننتني أربطهم بي بحبل متين، وأجرهم في عربة اسمي كما القاطرة، ندى ونور ونادر. أقصيت ربحي من المعادلة، ومازحته بسماجة ساخرة أنني لا أمانع في تسمية العائلة امبراطوريّة (رن) ليضاف حرف اسمه الأول. أما الآن، فقد ولّى زمن الممازحة العابرة التي لا تعدو أن تكون محاولات ساذجة للتظاهر بالتلاحم العائلي، بات حديثنا متقطعًا متقلًا بالتأفّف الخفيّ.

لا أتجمل، حتى ونظرات (عمّو) عبد الجليل تلاحقني وتحاصرني، دور لم يسبق له أن لعبه معي طوال سنوات عشر سكنت فيها بيته، لعلّه متوجّع بسبب المشاكل التي يوقعه بها ابنه، وصولاته على المخافر متوسلاً إطلاق الفتى الذي عصف بسمعة العائلة في قضايا السرقة والمخدرات، لعله يشعر بالوحدة وهروب الشباب بينما زوجته تقضي نهارها وليلها بالبكاء والتحسر على مصير ولدها الوحيد.

هل كنت أبحث له عن مُسوِّغات؟ لا أعرف، لكنِّي على يقين أنه ظنني لن أفصحه، لضعفي وحاجتي إلى بيته رخيص الإيجار، ولعله توهم أنه يحبني وأني معجبة به! نُسجت حكاية عبد الجليل المتوترة الخفية على مهل، دون أن أشعر بحاجة -حقًا- لأن أتجمل لأيّ رجل. ناسبني دور الفريسة المذعورة الشعثاء التي تهرب متلفّنة خلفها وتتعثّر، تقع في الفخ وتفلت، مغلوبة على أمري خائفة منشغلة بدهشة الحكاية المقيّنة، لم أتقرّز حيالها قدر اشمئزازي من استمرار خدعة الحياة الزوجية مع زوج قميء. غرقت بالبلادة وذبلت رغم تلك الانتفاضات الخادعة التي لا تعدو أن تكون حلوة روح. بَهْتُ وَسَقَطْتُ، ولم أقاوم، كما تهوي كذبة في عرض السماء، ويتبخّر سراب في امتداد سحيق لا نهاية له، يهرع عقلي إلَيَّ عند حدّ الهاوية. يخفف وطأة ذاكرتي المثقلة. يهددني. يهمش ما يخلجني. يدافع عني أمام سقوطي. يسامحني. يمسح ويشطب كلّ وهم مارق، كلّ حدث أليم، يعبّئ الحفر الفارغة الموجعة في الروح بتبن النسيان.

تمردت على علاقتي المشبوهة بجاري، لم يعد باستطاعتي السير على هذه الدرب الزلقة المحفوفة بالخلج والعار. لم أعد قادرة على القبول بسقطتي، كان عبد الجليل يتعمد الانفراد بي في زوايا الحديقة أو أسفل الدرج الحديدي، وراء الأبواب الجاهزة للفضيحة، يعصر عودي بين ذراعيه ويمضغ شفتيّ ممرّغًا وجهه في ثنية عنقي. ممسكًا بثنِيَّيَّ بين كفّيه قبل أن تنزلقا إلى بطني ثم فخذِيّ، أتملّمل بين ذراعيه، أنقل عينيّ بفرع على الدروب المؤدية إلى المشهد الفاجر، وأردد بانكسار مصطنع: لا.. لا.. لا.

يتركني دائمًا محمومًا لاهنًا في نزاعه الأخير، أهرع صوب البيت متعثرة خائفة كأني امرأة نُهش لحمها رغماً عنها. ضعيفة بريئة استغلّها جاراها.

يتسامح مالك البيت في الإيجار المستحقّ مطلع كل شهر إكرامًا لتلك اللحظات المشتعلة العابرة. يهديني أساور ذهبية نحيلة وأقراطًا صغيرة أعلقها في أذنيّ. بعثها فيما بعد لإتمام أجور الأطباء الذين صرنا نتردد إليهم بصحبة ابنتنا. في زمن المطاردة المحمومة لم يطالبني بخلع ثيابي وصولًا إلى عريّ كامل، فالمكان لا يسمح والزمان أقصر من أن نطيل. كانت علاقتنا لعب وخيالات أكثر من كونها خيانة كاملة الأركان، مثل مراقبين يفزعهما الوصول إلى ذروة الفعل، كأننا اتفقنا على البقاء في تلك المنطقة الخرافية لا نتجاوز حدودها إلى جحيم لا تحمد عواقبه، نقف على عتبة الفحش. وأكثر من قولة «لا». أحارب امرأة شريرة ماجنة تسكنني، أستمتع بسحر غامض وأنا

أسرق اللذة، متسلّلة وراء العالم لاقتناص الرغبة وأوصالي ترتعد، فقد كنت أجازف وأغامر على مقربة أمتار من زوجي وأبنائي، على هدد الامبراطورية المتوهّمة. أنتشي بالنصر على الرجل الباهت المزور الجالس في بيتي، فإذا تملّمل ضميري راوغته بأن ما يحدث مجرد لعب لا ضير منه، مجرد شهوة لاكتشاف المجهول، أو أنه أمر يقع رغماً عني. صَغَارَ يهيمن على موقعي الطبقي لا أملك رده، أسوق كل الدفاعات المتنوعة ليهجع الضمير في سكونه.

شغلّنتي النزوة المشبوبة عن بيتي. لم أنتبه إلى المستنقع الذي غرقت خطواتي في عفته إلا حين اكتشفت متأخرة أن نور لا ترى ككل الناس، وأن عينيها الواسعتين لا تلتقطان الأنوار والألوان، وأن البقعتين البيضاوين اللتين لم أعرها انتباهاً في حدقتي عيني ابنتي تتسعان تدريجياً، وقد ظننتهما علامة حسن لعينين قد تكونان ملوّنتين، رغم أن جينات الأعين الزرقاء والخضراء لم تعرف في سلالة أهلي ولا أهل زوجي، لعلهما طفرة جمالية تختار في اختيار لونها. تمددت البقعتان في البؤبؤ إلى أن أعتمتا. فقدت نور بصرها تماماً، وكنت غافلة تماماً، كما لو أنني أم صغيرة لم أنجب ابنة سليمة كبرت أمام ناظري في السابق، عندما كانت نور تتلفت برأسها محتارة قلقة كلما سمعت صوتاً أو أحسّت حركة، لم أفسر حركتها كما يجدر بأم ولم يقلقني أن نظراتها لم تعد تلاحق حركاتي، غفلت عنها وفشلت في أمومتي الثانية فشلاً مريعاً موجعاً، أطاحت الحياة اللئيمة بتوازني وصفعتني بقسوة، لن تستطيع مياه محيطات العالم كافة غسل خطيئتي.

لم يعد مجدياً اختلاق المُسوّغات، كأن أعدّد خسارات العمر، والنزوات التي ظننتها طارئة تنجلي سريعاً. انشغلت بحرمانني من أشياء كثيرة اكتشفت أنها تتناثر في العالم دون حساب، وتستنّيني، كان العقاب فظاً لم يرحم أو يسامح. في الليالي الموحجة التي أبكي فيها حتى تستعصى الدموع، تحاول امرأة عنيدة في أعماقي الدفاع عني، تسوق الحجج، متمثلة بخيبة ألمي برجلي، قد لا نرى تعالق الأسباب والنتائج، ولكن وخزاً موجعاً يضربني كل ليلة لأتقلب على وسادة الندم، ما هو ظاهر وما هو خفي وجهان لعملة واحدة وإن ظننا أنهما متغايران، وقد قادت خطيئتي مصير ابنتي إلى العمى، لا أقول إن هذا عقاب إلهي، فلا شك أن الإله رحيم، لكن هذه طبائع الأشياء، الحلقة المتصلة رغم أننا نظنها أموراً منفصلة متباعدة.

مع ذلك، ليس عدلاً أن أتحمل وحدي خطيئة انشغالي بخطايا الجسد في حين كان زوجي منشغلاً بتدبيج التقارير السرية. كلانا وقع في الخطيئة، وقاد السفينة إلى الاصطدام بصخرة عنيدة.

تشدني امرأة أخرى مترنحة إلى كرسي الاعتراف ترغمني على تذكر أن هذا الزوج اختياري الذي لم أجبر عليه. اخترته ببعض الفرح والزهو الذي تحطم فيما بعد، وارتضيته في حياتي مثل كل النسوة اللواتي يتمتمن بحسرة وقلوب محطمة حين يتبادلن أخبار الأزواج والبيوت المستورة، ثم ينفضُ جمعهنَّ، ذاهبات، كلَّ منهنَّ إلى بيت تعمره وتستبقيه. لا يقعن في جحيم الخيانة ولا يتسلين بأجسادهن مثلي.

رضيت بزواج مثل الأريكة التي تحتل مساحة من حجرة الجلوس، حشوتها اليمنى مضغوطة، باطنها الخشبي ينكز مؤخرتي. منذ جاءت من عند المنجد أول مرة كانت كذلك، تعترنا بالكلام مرّات ونحن نذكر بعضنا بضرورة تنجيدها وتحسين شروطها، لكنّ السّنّوات تمضي وننسى، وإن ذكرتنا مؤخرتنا المتصلبتان كل مساء، صارت أريكتنا المبعوجة بعضًا من البيت ومنا.

لم ألق بالأريكة في حاوية القمامة ولم أبعها لتجار (الروببكيّا)، ولكني طرت خارج بيتي بحثًا عن طعم المغامرة، فوقعت على سبحة طينية. جارٍ كهل خائف بالكاد يجيد التقبيل، سرق دفء شبابي مذعورًا، وأنا في تلك البركة الأسنة كانت ابنتي تتحصن بالعمى وتكبر غافلة، بعد سنوات من مطاردة المستشفيات والدخول في كواليس حجر العمليات دون أمل أيقنت أن على هذا العالم مشاركتي وزر عمى ابنتي وأنا التي ظننت عندما اكتشفت البلاء أنني سأموت كمدًا، عجزت عن النوم وضميري يعمل فيّ إزميله، لكني ومع تدافع السنين نمت ككل البشر وبت أقل حساسية وأكثر تبتلاً كأنّ أريكة أخرى مبعوجة تحتل غرفة في بيتي.

توسلت باكية لعشيقِي السري أن يعتقني ، بالكاد هو عشيق. رجوته الكفّ عن استدراجي لخلواته تحت الدرج أو وراء البيت، ارتجفت صادقة وأنا أفصح عن خوفي من أن يكون ما حدث لابنتي انتقامًا إلهيًا، جرّاء ما نفعل. تجاسرت في توصيف فشل ولده وهروبه من البلد كعقاب آخر يقع عليه لذات السبب الذي أطفأ نور عينيّ ابنتي.

أفزع احتمال خسارة اللحظات المتقدمة المختلصة. حاول إقناعي بمسؤولية القدر عما حدث، لم يخفف إيمانه عني، فلو كنت أمًا حقيقية مخلصّة لأومتي لتمكنت من تغيير مسار القدر، دموعي وتقجعي كانا كافيين للخلاص من العلاقة العبء دون أدنى مسؤولية. لم تفلح محاولات عبد الجليل في طمأنتي والتخفيف من فزعي، ولم يلح، لم يهددني بإقامتي في بيته، لعله كان آملاً أنني سأتجاوز

محنتي وأكافئه. لم يحاول ابتزازي ولا رشوتي. تركني أداوي جرحي وابتعد يلحق جراحه منكسراً، توجّب عليّ حينها إكباره وإسباغ صفة النبالة عليه، لكنني لم أفعل، لم أكن ممتنة شاكراً، بل واصلت اتّهامه في سرّي تخفيفاً عن نفسي. لقد ورّطني بملاحقاته وتحرشه وأسقطني في وحل علاقة لا قيمة لها، مستغلاً حاجتي وسلطته كمالك للبيت، لا معنى لشكره إذا ما أطلق سراحي بعد أن أربكته دموع توبتي، خاصة أنه عاد لاستلام إيجار البيت ببرود تاجر رقيق.

هي أمور تحدث ونودعها في صناديق عتيقة وننسى. شطبت الحكاية تماماً من ذاكرتي، كأن مشرطاً مرّ على تفصيل صغير في الذهن وقطعه، تبدد سحر الرعشة بين ذراعيه، كأن ما حدث وقع لغريبة لا أعرفها، وانطوى الرجل بعيداً. تفادينا اللقاء ولو صدفة، أمرّ مسرعة من أمامه ولا ألتفت، ويمر غاضباً بصره بما يليق بشيب رأسه وسمته كرجل صالح، تناسينا أمر تلك الخيانة الصغيرة العابرة التي أجبت مشاعره وحاصرت ضميري لسنوات، لم يراجع أي منا ذاكرته، ولم نرجع إلى موقع الجريمة، طمرنا خطايانا بطين النسيان اللزج، تحولنا إلى ملاكين بريئين.

على وقع قناعاتي الجديدة بأن شيئاً لم يكن، باتت مشاعري محايدة، لا خجل ولا ندم، ولا ذكرى ولا شرارة ولا دخان ولا عبير، مجرد جار يخطو مسرعاً إلى شيخوخته، حانياً كتفيه، ثقل الظل، له في ذمّتي كل عام إيجار المنزل الذي لم أجد مسوغاً للرحيل منه، خاصة أن ماله لم يغير مبلغ الإيجار تحت ضربات التضخم وتوحش الأسعار.

تفرّغت لرعاية ابنتي، حاولت محاربة العتمة، جنّ جنوني وأنا أحاول فتح عينيها على الضوء، وحين كانت الصغيرة تفصح عن التماعات تتراءى لها يعاودني الأمل، أهرع إلى الأطباء بحثاً عن كوة يدخل منها النور، في أعماقي عرفت أن أمنيّتي لن تتحقّق، كابرت طويلاً وتجاهلت فهمي المستتر للواقع، تمنيت صادقة لو أصير لابنتي النظر، لم أكن إلا أم تبحث عما يكفر عن خطيئة فعلتها في غفلة من الزمن؛ ولكنني توحشت مع ربحي على وجه التحديد. فقدت أعصابي حين قال ما أعرفه:

- كفانا محاولات مكلفة مع الأطباء، لا نتيجة، لا فائدة.

صحت: لا فائدة ترجى منك أنت، اخرج من حياتنا للأبد، سأصارع لتري ابنتي العالم، وانصرف أنت إلى الوهم الذي تقرأه في كتبك العتيقة، والخراء الذي تكتبه في أوراقك.

صفق ربحي الباب خارجًا، ولم ينم ذاك المساء في البيت، فاستنشقت الهواء بعمق وذرفت دموع الفرح، تمطّى جسدي على امتداد السرير، تقلبت بحرية ومددت ذراعيّ كأنهما تعامد صليب خشبتي الخلاص، وانتالت الذكريات في الروح كرزاذ المطر، هذا السرير لم يعرف حبًّا حقيقيًّا، لقد بهت الحبيب المتوقع بأسرع مما توقعت، انفلس المثقف الكبير صاحب العبارات الرنانة التي اقتنصني بوساطتها في المقهى، لم يعد الزواج باهتًا فحسب، لكنه مقيت، أتجرع مرارته كي أوصل رعاية ابنتي الضريرة.

- لا فائدة منك.

أقولها كلّما عنّ على بالي دون مراعاة ولا تردد، حين أجلب احتياجات البيت، حين أضع الطعام على المائدة، حين أمد له ثمن السجائر والصحف، حين أبتاع كتب المدرسة للأولاد، أخربش خيلاءه بوحشية ولا يجيب، كأنه فقد براعته في الكلام، بات صامتًا زاهدًا في جدالي، وإن كنا نتبادل الاتهامات كثيرًا، يطعن أمومتي وأبصق على أبوته المدّعاة، فلا يكف عن ادعاءاته. حاضر دائمًا إلى جانبي في عيادة الطبيب، لا أشكره على مجيئه ولا أشعر بالامتنان، غاضبة من الدنيا وليس عليّ شكر أحد على أي معروف، لا أتعائب وزوجي بشأن تطاولي عليه، ولا أعترف أبدًا أنني رأيت لهفته وشفقته والطبيب يفحص عينيّ صغيرتنا، ما دام أبًا لا بد أن يتجاذبه الأمل والخوف واليأس فيما يخص ابنته، هذا لا يكفر عن قماءته، بالنسبة لي مات تمامًا. كل الأشياء بيننا احتضرت على مهل حتى الموت، دون حداد ولا تفجع، لا شيء يوجعني خارج المعركة التي خسرتها مع العمى، فكل ما فعلنا نحن والأطباء لم ينفذ نظر نور.

في سذاجة فادحة، جربت تعليمها الألوان وكيف تتجلى في المشاهد المحيطة بنا، ولكنني لم أفلح بذلك تمامًا، أرتعد حين أصف الأشياء، أخشى أن أثقل على الصغيرة وأقحمها في عالم لا يمكنها التواصل معه، ظننت، بما أنني أم فاشلة، سأغادر الحياة يومًا، تاركة البنات في عتمتها، لم لا أهَيّ بكري لتكون عكازة شقيقتها العمياء مستقبلًا. تغادر ندى طفولتها مثقلة بمشاعر الغيرة والغضب من تناسيها مطوّلًا، تتحول إلى فتاة شرسة نفورة، أشعر في أحيان كثيرة أنها تكرهني أو أنها عاجزة عن تحمل وطأة الدور المطلوب منها، رفضت منذ وقت مبكر المساعدة في إسناد شقيقتها للوصول إلى الحمام أو نزول الدرج، تذرمت وصرخت بوقاحة الصبا الفجة: «لست خادمة لأحد، إنها ترى أفضل من الجميع، تتدبر حالها، لماذا تصنعون كل هذه الضجة حولها؟»

تمتّت بعدها هامسة بنزق تحاول إخفاءه مشيخة بوجهها: «لؤم العميان».

لم تغير صفعتي موقفها أو سلوكها، قليلة هي اللحظات التي تظهر فيها تعاطفًا، كأن تمشط شقيقتها أو تساعدنا في اختيار ثيابها وأحذيتها، أو تشرح لها بصورة مبتورة أحداث فيلم على الشاشة. احتجت إلى تعاطف ابنتي البكر، ولكنها لم تكثرت، وتحول البيت إلى ساحة معركة بيننا.

مرّت بي أزمنة متقطّعة كنت أحاول التوازن فيها محتملة الحياة ببلادتها وبخلها، يتأرجح مركب عائلتي بروية ونستكين كأننا تعودنا على همومنا التي باتت بعض ملامحنا.

يتحرك الماء الساكن مثل زوبعة تداهمننا فجأة، كما عندما جاء شقيقي محمد لزيارتي، وقلما يزور، كان المواسرجي غاضبًا لأنه يتكفل بمصاريف والدنا وحده، فإذا به يفاجأ بشراء الوالد سيارة لشقيقي الأصغر المدلل محمود ليحولها إلى تاكسي. صاح محمد في عقر بيتي أنه يقطع عن بيته وأولاده لمساعدة والده، فإذا بالوالد يخبئ مبلغًا يمكّنه من ابتياع سيارة لولده الفاشل.

جنّ جنوني مثل لبؤة جريحة، كنت قد وضعت عائلتي الأولى على الهامش في حياتي، لم أكثرت لمن راح ومن جاء، من مرض ومن مات ومن عاش. لعلّي تصرفت بأنانيّة ولكني لن أعتذر، كوني لم أمنح والدي قرشًا في يوم من الأيام، وهأنذا اكتشف أن التعاطف مقطوع من كلا الجانبين، لم يتعاطف أبي معي وهو يخبئ نقوده عارفًا بأنني أتحمل وحيدة مسؤولية إطعام عائلتي منذ خسر زوجي عمله، كما يرهق علاج ابنتي ميزانيتي. فضل والدي منح ماله لولده الأرعن. شاركت شقيقي محمود غضبته وحقده، وأعلنت ما كنت أعرفه مسبقًا وأفهمه، أنّي وحيدة في عالم نتن. انشרכת عائلتي المستورة، ولأن أمي كانت قد قابلت خالقها واستراحت، فإن الانسلاخ النهائي عن تلك العائلة لم يشكل صعوبة من أي نوع. فقط بعض الجنون والغضب والصراخ وفقدان البوصلة، ثم يتحجر القلب ويغلق دونهم أبوابه حتى يمكنني نسيان أسمائهم كأن لم يكونوا، أنصرف بعدها لتدبر شؤون عائلتي الممسوخة التي كونتها من لحم جسدي وحرف اسمي المكلوم.

البكر

أشك بالصور، يقولون في المدرسة أنّ هناك طرائق جديدة يمكن للمصور فيها تركيب رأس امرأة على جسد أخرى، هذه الضحكات كاذبة، وهذا الحبور الذي تشي به انطلاقات الجسد مؤكد ليس لي.

انسلخ الغطاء النايلون عن صفحات الألبوم الذي يحتوي عددًا من الصور المزيفة، هذه (أنا) أقف في أعلى الدرج الحديدي وقد فتحت ذراعي كأنهما جناحي عصفور يحلق، وجهي ضاحك كما يليق بالسنوات الخمس التي كنتها. كتب تاريخ التقاط بعض الصور على حافتها، وحظيت التي تتعلق منها بالطفولة المبكرة بعناية فائقة وخط أنيق كما توزعت مرتبة منسقة، كلما تقدم الزمن تبعثرت الصور بعشوائية وغابت التواريخ عن الحواشي، حتّى إنّ بعضها يعتريه غباش يخفي الابتسامات والتجهم في الوجوه، في منتصف الألبوم صورة أجلس فيها على حجر أمي وهي تميل برأسها ميلانًا خفيًا باتجاه كتف أبي الذي يرتدي بدلة زرقاء وربطة عنق مقلمة بخطوط عريضة، ذراعه مشدودة إلى جانبه بينما ترتخي كفه فوق فخذه، وتمتد ذراعه الأخرى على آخرها تحيط كتفيّ أمي وتبدو أصابعه مفتوحة على كتفها الأبعد، هي؛ جميلة بشعر منفوش تتقدمه غرة جامحة أعيدت إلى الوراء بغير عناية، في الوجه طيف ابتسامة وسر في العينين، قميصها أبيض مخطط بالأزرق مثل ربطة أبي، تنورتها كحلية أو سوداء، لا أتذكرها إلا بالبنتال، تحيط بي ذراعاها في الصورة لتنتهي كفها مثل كلبشات حول خصرتي، ثوبي وردي منفوش ونظراتي مندهشة وشفطاتي متكورتان إلى الأمام تفتحان فمي، وشعري مربوط بشبيرة بيضاء على شكل فراشة في أعلى رأسي، التاريخ المثبت في الحاشية 1985، وراء الصورة الملتصقة بورق الألبوم اسم الاستديو الذي تم فيه التصوير، أي أننا بذلنا جهدًا للذهاب إلى مصور والجلوس على أريكته واضعًا وراءنا خلفية وهمية لحديقة غناء! كنت في الثانية من عمري آنذاك، لا أذكر أنني رأيت أبي وأمي في غير تلك الصورة يجلسان جنبًا إلى

جنب في مثل هذا الوضع الذي يشبه العناق الجانبي. لا في صورة أخرى ولا على أرائك بيتنا الباردة التي كلح لونها البني.

أعذب ذاكرتي بالرجوع إلى الصور العتيقة، فلا أنا أتذكر ولا أكفّ عن الرجوع إلى هذا العالم الغريب البعيد الذي ترك شواهد حقيقية تثبت أنني عشت فيه، كأنه يهزأ بي، نسيت أو تذكرت سيان، هذا العالم كان هنا يومًا ما ثم مات.

في طفولتي مناطق خفية لا أذكر أطيافها السعيدة، ولكني أتذكر بيقين كامل ما كان مخجلًا ومزعجًا وموجعًا، مثل خطواتي على بوابة (مركز هيا الثقافي)، في مدخل المركز شبه حديقة صغيرة يعبرها أطفال ضحكاتهم رنانة يرتدون ثيابًا بهيجة، شعورهم ناعمة ومسرحية بعناية، يتعلقون بأكف أمهاتهم ويتجاوزونني إلى الداخل، لا أجروا على الدخول، أنا فقط أتسكع مرتدية مريولي المدرسي، ليس لدى أمي من الوقت ما يسمح لنا ارتياد مكان مترف كهذا، أسمع صوت تصايح الأطفال من وراء السور وأمضي في طريقي. هي مرة واحدة يتيمة، جاء جدي؛ إبان كان لي جد، أتذكره مثل ضباب بعيد، جاء يزورنا جالبًا معه فستانًا من المخمل الخمرى بياقة من الدانتيل لحفيدة التي بلغت السابعة من عمرها، اعتقدت أن أناقتي بهذا الرداء تمكّني من ولوج البوابة بسهولة، لاحقت أمي لتجد الوقت لاصطحابي، أظنّ أنها ترددت عند الباب، ولكننا جازفنا، في الداخل كان هناك عاملان يبدلان الصور عند المدخل، ينزلان بحرص صورة الملك حسين والملكة القديمة علياء وهما يفتتحان المركز، يلحقانها بصورة لامبراطورة إيران (فرح ديبا) كتب تحتها شكر لتبرعها الكريم بالمركز لأطفال الأردن. أنزل العاملان أيضًا صورة الأميرة (هيا) طفلة، واكتفيا برفع صورة جديدة فاتنة لها وهي صبية تمتطي حصانًا. من يدري؟ قد أصبح أميرة يومًا ما، فسندريلا كانت تمسح البلاط وصارت أميرة.

سجلت أمي اسمي في دفتر ودفعت تكاليف دخولنا، فانفتح العالم الخفي، كانت هناك مجموعة من الأراجيح وألعاب السيسو والجمال البلاستيكية التي يتسلقها الأولاد، توهجت ألوان الألعاب والثياب في عيني بصورة مربكة، ثم في لمحة سريعة اكتشفت أن ثوبي المخملي الداكن الذي حرصني على الدخول ليس ملائمًا، وأني أخطأت التقدير، فثياب الأطفال قطنية ملونة خفيفة، ارتدى معظمهم السراويل القصيرة وأحذية رياضية، حذائي كان بلاستيكيًا لامعًا، وثوبي ثقيل لا يسمح بركوب آمن للأرجوحة، قد يكشف عن ملابسني التحتية إذا ما جرؤت على التحليق عاليًا، أو

الانزلاق في الممر البلاستيكي الطويل، ثم إنَّ شعري أسود أكثر مربوط وراء رأسي كأنه معاقب، بينما تجلجل رؤوسهم شعور ناعمة شقراء وخروبية تتطاير في الهواء.

ثبْتُ قدمي في الأرض ورفضت اللعب، حايلتني أمي دون جدوى، ذكرتني بأننا دفعنا ثمن دخولنا هذا العالم، وبأنها تركت أشغالها لإرضائي، لا بد أنها غضبت أخيرًا وهي تقول: لا تحرني كالحمار. لا أعرف ماذا تقصد ولكنها شتيمة، هذا أكيد. خرجنا من تلك المغامرة، وهي تجرّني وراءها بحلق متممة بكلمات حول انزعاجها وأنها ما كان يجب أن تنصاع لرغباتي الغبية.

رافقتني رغباتي الغبية عمري كله، لا يتعلق الأمر بالطفولة فقط، فتلك مرحلة من السهل نسيانها، ولكنّ البنات يبارحن الطفولة بسرعة ودون رحمة، في ذلك العالم الضيق الممتد من بيتنا إلى مدرستي، تُركت لأمضي وحدي على الطريق، أعني كنت أرى الطالبات يصلن باب المدرسة في سيارات آبائهن، أو في باص المدرسة الرسمي، ولأن المدرسة تقع وراء بيتي مباشرة فقد حرمت تلك المزاياء، أسير على قدمي محاولة التوازن تحت ثقل الحقيبة المدرسية المثبتة على ظهري، أول الرغبات الخفية الغبية أن تموت المدرسة، والمدرّسات والطالبات. أن أصحو يومًا فأجد البشرية قد نسيت شيئًا قبيحًا، اسمه المدرسة، حيث معلمة الرياضيات التي تشوح بكفيها كلما تفحصت دفاتري أو أخرجتني إلى اللوح الأسود لأجمع وأطرح لها أرقامًا صماء لا معنى لها، تشوح المعلمة بكفيها وتكرر كلماتها كل مرة: لا فائدة.. لا فائدة.

ما دامت تعلم أنّه لا فائدة، لماذا تصر على إذلالي ووقوفني أمام الطالبات، وهنّ يتضحكن من خيبتني، لماذا لا تستسلم؟ ولماذا صرخت كأنها تفاجئت حين استدعت أمي لتشكوني: معقول!! أم متعلمة تعمل في بنك وابنتها طيش بالرياضيات؟

قصدت لوم أمي ولكن دلالة الكلام الخفية أن لي أمًا ذكية رغم غبائي، لا يهمني، بل إنّي سأخبر معلمة اللغة العربية أنّ أبي كاتب يعمل في مكتبة مع ذلك أخطئ بالإملاء كثيرًا. في الواقع لا أحد في بيتنا يجد الوقت ليأنبني أو يلومني، حتى حين أرسلت المديرية معي ورقةً لأمي تطلب منها غسل مريولي وكيّه، فإن أمي لم تأنبني، أمرتني بالعناية بهندامي وتركتني أتعامل مع المكواة الكهربائية وأتعلم بنفسي طريقة فرد الطيات وتحاشي لمس حديد المكواة الساخن، أفعل ذلك لتلافي تأنيب المعلمات والمديرة أمام جمع الطالبات، ولكني لا أهتم كثيرًا.

المدرسة عالم قاس، لا يكفيني صياح المعلمات ولا الدوائر الحمراء على صفحات دفاتري الفاشلة ولا ثقل الحقيقة الذي يقوس ظهري الغض، ولكني أيضًا أتدافع والبنات الشرسات مثل وحوش صغيرة. أسرق أدوات بعضهن لأغيظهن. أسقط طعام الصغيرات اللطيفات وأتركهن باكيات في الساحة جزاء ضعفهن وقلة حيلتهن، أفتح كفي بوقاحة ورباطة جأش للمسطرة التي تترك خطوطًا حمراء في لحمي دون أن أذرف دمعة واحدة.

بيتنا عالم بارد، لا ألعب كثيرًا، تتركني أمي لتأملاتي المطولة أو لشاشة التلفاز المفتوحة على الدوام في الصالة حتى لو لم يكن أبي جالسًا، ولأن أحدًا لا يكلم أحدًا في البيت نحتاج لمن يثرثر، لا يخلو الأمر من ليالٍ أفرّ فيها مفزوعة على صوت تصايحهما، يدوم هذا وقتًا كافيًا لحفظ كل السباب اللازم للتجريح ولطيران النوم من عيني، ثم تخرج أمي غاضبة من الحجرة حاملة غطاءها ومخدتها، تستلقى على أريكة الصالة وتلنف بالغطاء، جربت لمرات أن أندس قريبها مؤكدة انحيازي لها ومساندتي، فصوت أبي يخيفني، ولكن صوتها ليس أقل حدة، تدفعني بعيدًا وهي تأمرني بالعودة إلى سريرتي. أوشك أن أقول لها: لا تحرني كالحمار. ولكني أخاف أن تكون هذه شتيمة أستحق عنها صفة محكمة. أنصاع بهدوء وأعود إلى حجرتي.

لا تتوقف رغباتي الغبية عند حد، عندما كانت أمي تزور بيت خالي لم نعد نزورهم بتاتًا. يتوجب اللعب مع ولديّ خالي التوأم المتشابهان في كل شيء حتى حجم البثور المتقيحة في وجهيهما. يعمدان إلى دفعي نحو الجدار وتلمس جسدي بحثًا عن بشائر الأنوثة، يضحكان بحبور وهما يكتشفان أن صدري أملس، وأني أقرف من القبلية في الفم، أضربهما في صدريهما ولكنهما أكبر مني بقليل وأقوى، يمسكان بي ويشد أحدهما ذراعي ويقبلني الآخر، أرفس بقدمي في كل الاتجاهات، ويتناوبان على تقبيلي ضاحكين، أدافع عن نفسي بشراسة ولكني لا أصرخ، أخاف أن تأتي أمي وتظن أنني أشارك في تلك اللعبة البشعة، قد تجرني وراءها ملقية بلغعاتها عليّ، ولأن تلك الزيارات أفرغتني فقد فرحت وأمي تخاصم أخويها ووالدها، فأنا لا أريد قبلات أولاد الخال ولا فستان جدي المخملي.

تشبه جارتنا أم كريم الأمهات في كتاب التربية الإسلامية في حين لا تشبه أمي أيّ أمّهات نتحدث عنهنّ في المدرسة. حين كنت أشعر بالضجر فأخرج من الشقة الباردة لأجلس في منتصف الدرج الذي يقود إلى الحديقة أرقب جارتنا من الأعلى وهي تتحنى تقطف عروق النعنع الأخضر،

كنت أفكر ماذا لو كانت أمي؟ لكنها أم كريم، الشاب النحيل الذي يرسل شعره حتى كتفيه كالبنات ويرتدي بنطالاً من الجينز على الدوام والذي كان يعمد إلى إخافتي إذا صادف دخولنا البيت معاً. ينشب أنامله في شعري المتشعث أساساً يحك رأسي في حركة سريعة زاعفاً: «بخخخ...».

أقلت خائفة وأهرع إلى درج بيتنا بينما يضحك ساخرًا داخلًا بيتهم، لا أحب هذا الكريم، أخشى أن يفعل بي يوماً ما كان ولدا خالي يفعلان، ولكني أحب أمه التي تقطف النعنع. إذا أطلت أمي تناديني لتناول الطعام تقول لها أم كريم: اسمعي مني، لا تغلطي غلطتنا، هاتي للبننت أشقاء، لا تتركها وحدها، كريم زرع الشيب في رأسي.

أظنها كبيرة بصورة كافية ليزور الشيب رأسها، ولكن كلماتها تجعلني أتمنى الأشقاء. حدث أنّ خدعة عابرة قاربت بين أبي وأمي وهما يشاهدان التلفاز يبت أخباراً حول أمريكا الشريرة تهاجم العراق، بصراحة أحببت الأمر، إنه يقرب بينهما، ويشيع هدوءاً مزيّفاً في البيت. تصبح وجبات الطعام أكثر هدوءاً، لعلني سأحصل على أم وأب وأشقاء مثلما في الكتب.

تكوّر بطن أمي لأفهم أن في بطنها جنيناً سيكون لي أخاً أو أختاً، في الواقع لم أمانع، فقد بلغت العاشرة من عمري مثل شوكة في صحراء، وحيدة، حادة، لا يرويه ماء، لا صديقات لي ولا أقارب ألعب معهم دون خوف، سأفرح إذا صار لي شقيق، سيكون في بيتنا بكاء طفل وضحكات لا تصدر عن الشاشة الفضائية، ستتسخ الأريكة بالعصائر وبقع الحليب. أيّ موادّ غير سجائر أبي وأمي التي تترك ثقباً حوافها سوداء في قماش الأريكة، ستتغير الحياة وقد صار والداي يخرجان برفقة بعضهما، يصطحباني أحياناً إلى المقهى حيث يكثر الرجال من احتساء القهوة والنساء من شرب الشاي ويحضرون لي حليباً بالكاكاو أو قمعاً من الأيس كريم. عندما تلد أمي سيسمح لنا جارنا أبو كريم بالنزول إلى حديقته ولعب الكرة وتطير البالونات، خاصة أن ولده اختفى، لم أعد أراه ولا عاد ينكش شعر رأسي قائلاً: «بخخخ». ستصير الحياة طبيعية رغم أن عشر سنوات ستظل فارقة عمرياً بيني وبين الشقيق المنتظر، وأن أم كريم تبكي بحرقه كلما قابلت أمي أسفل الدرج مشتكية من أشواقها لولدها الذي ارتحل بعيداً.

جاءت شقيقتي نور. دمية لطيفة، وجه مدور وملامح منمنمة كأنها مرسومة، تسمح لي أمي بحملها بحرص، وأساعد في تحفيظها وغسل كفيها وقدميها وإعداد زجاجات الحليب الدافئ، الغريب أن علاماتي المدرسية في تحسن، صحيح أنني لا أبذل جهداً لم أعود على بذله، ولكني بدأت

أستوعب ما يقال في الحصّة، ولا أتعارك مع الفتيات الشرسات، ولا أضطهد الضعيفات، بل إنّي أشعر بالخجل على ما بدر مني سابقًا، بثُّ أكثر حساسية لما يدور حولي، أستمشت ملل أمّي، وقد عاد أبي يخرج بمفرده، ربّما لأنّ بطنها تكوّر مجدّدًا، وبسرعة، سيمتلئ البيت بالأشقاء، سأكون الكبيرة التي تدير الأمور وتوجّه وتعتني، أحببت الدّور المرتقب، وأحببت فكرة أمّي العبقريّة حول امبراطوريّة (نون)، سمّت شقيقتي نور وشقيقي نادر، كأنّنا عصبة ما، بديع هذا الانتماء. لم أعد في مهب الريح وقد غمرني الفرح حينها، لكن إنذارات غريبة راحت تعصف بنا، أبي في الخارج دائمًا، كأنه يهرب منا، مزاج أمّي عصبي، لا يمكن التفاهم معها حول أيّ تفصيل. تنسى شراء الدفاتر التي يطلبونها في المدرسة، تهمل الأضرار المقطوعة. تضع الطعام على المائدة بقرف. تعيدني إلى خانة حاولت الفرار منها تحت وهم العالم الذي يتغير، كأنها نادمة على إنجاب أشقائي، كأن الامبراطوريّة تنهاوى.

تمامًا مثلما يحدث إذا أصيب أحد بالانفلونزا بين جدران البيت، وقت قصير سيبدأ الجميع بالعطاس، ومسح برابير أنوفهم، اجتاحت عصبية أمّي ولا مبالاة أبي أسوار الأسرة السعيدة المتوهمة، وبدأت علاماتي المدرسية بالتراجع التّدرجيّ، عدت إلى قواعدي بسلام، ولم يكفّ التلّافز عن بثّ أنباء الحروب وصور الضحايا.

وحده عمّو أبو كريم يلتفت إليّ، يمنحني عصيّ (اللولي بوب) وفي قمّتها كرة سكرية أمتصها بسرور. ينتظر عودتي من المدرسة عند بوابة البيت الكبيرة، يخبئ لي في جيوبه مربعات الشوكولاتة اللذيذة، ويهديني ألعابًا ملفوفة بورق ملوّن أمزّقه بحماسة؛ قطارًا على سكة حديد؛ دبّا بفرو ورديّ ناعم، (باربي) مرفّق بها خمسة فساتين تجعلها تبدو كما الأميرة، يدلّني جارنا وتثير هداياه غضب أمّي فتهدد بإلقائها من أعلى الدرج، لكنها لا تفعل ذلك أبدًا، بل تلوح له شاكرة.

أصبنا جميعًا بالصّدمة حين علمنا أن نور كفيفة، صفعت أمّي خديها كالمجنونة، وصاح أبي غاضبًا لأنها لم تنتبه قبل أن تنبهها مشرفة الحضانة التي تترك فيها شقيقتي حين تخرج أمّي للعمل. علمت حينها أن الرحمة قد تخلت عني تمامًا، ولا أمل بعودتها، فوالداي لم يعودا يريان إلا ابنتهما الكفيفة نور، مشغولان بها أو بالنواح على ما حلّ بها، يتركان الرضيع نادر في عهدي ويخرجان إلى الأطباء، يتأملان عينيها محاولين استنتاج أيّ ردة فعل على أصابعهما المتحركة قبالتها جيئة وذهابًا. نسيت أمّي كلّ شيء عدا ابنتها الأخرى. نادرًا ما تهبّي لنا وجبة الطعام، حين تخرج وأبي

أتناول شيئاً من أطعمة العلب الجاهزة المخصصة للرضيع، أتناول نصف شبع حتى يتذكرانا أبوانا، يبكي كثيراً ويثير غضبي، أقرصه في فخذه ليصمت فيزداد صراخه علواً، أشد شعري غيضاً وأشتمه، يبكي حتى ينام. صرت بحاجة إلى قالب الشوكولاتة الذي يمنحه أبو كريم؛ لكنه أيضاً يتجاهلني. انقطعت سكاكره وألعابه دون سبب، انتظرت مثل متسولة ولكنه لم يعد ينتظرني، وإذا حدث والتقى بي عند البوابة تجاهلني تماماً. عدت إلى مهاجمة البنات الضعيفات في المدرسة، وإسقاط سندويشاتهن أرضاً، وتلقي عقابي بمسطرة حادة على كفي دون أن أذرف دمعة. انحدرت علاماتي مجدداً.

لم يربيني أحد، وحدي المسؤولة عن زلاتي وحسناتي، إن وجدت. عن فشلي ونجاحي، عن خطواتي في الشارع الخطر وفي بيت الخال الأخطر، هكذا أرادوني، وهكذا صنعوني، لهذا أجد من الغريب ألا يشمل هذا القانون شقيقتي، يزكيها امتياز عماها عني، البشر الذين يسرون كأن شيئاً لا يضيرهم أمثالي هم الأكثر تضرراً من الحياة، أما الآخرون القادرون على الشكوى أو المصابون بجرح يمكنهم من الصياح بأه ممطوطة ممدودة فإنهم محظوظون لأن لديهم مساحة فسيحة كي ينعتوا الكون بالظلم والقسوة.

التقيت طارفاً شقيق البنت ميساء، زميلة الصف التي لا أحبها في يوم تلجي بارد، كنت أجز خطواتي على درب المدرسة حين تمهلت سيارة المرسيدس، قريبة مني، وأطلقت ميساء من نافذتها ملقعة بلفحة ليلكية من الصوف، نادتنني لركوب السيارة، لعل تراكم الثلوج جعلها بنناً لطيفة، هي خطوات قليلة وأصل، ولكني مع ذلك ركبت لأنني لمحت عينين ضاحكتين وراء المقود، ظلت نظراته تتابعني في مرآة السيارة وأنا أظاهر بمراقبة الثلج على الرصيف وفروع الأشجار التي نمر بها. نزلت يومها إلى مدرستي من مرسيدس فارهة، والبنت التي تطوحت لإنقاذي من برودة الثلج نسيتني تماماً، حين وصلنا، واندفعت باتجاه صديقاتها. لا أستطيع أن أحبها حتى لو كانت شقيقة العينين الضاحكتين. في نهاية اليوم المدرسي تلكت في الساحة، راقبت (المرسيدس) تقف عند البوابة، وميساء تلوح لصديقاتها وتنصرف، لعبت بالثلج وقد حشوته بحجارة صغيرة رحت ألقها على السيارات المارة، وحين قررت المغادرة وجدت طارق أمامي، كأنه بانتظاري، ولم يخطئ حدسي. كان بانتظاري، قاد سيارته مسرعاً إلى بيتهم القريب متخلصاً من رفقة شقيقته، وعاد باحثاً عني، لم أتردد بالركوب بصحبته، لم يخيفني احتمال أن يرتكب فعلاً عدائياً مثل أولاد خالي، بل إنني أردته أن يفعل، كان جميلاً تفوح منه رائحة عطرة، يكبرني بثلاثة أعوام. أخذني في جولة

ممتعة، تفرّجنا على ثلج عمّان يكلّل البيوت بالأبيض، على صغار بينون رجالاً من ثلج بعيون من زيتون وأنوف من جزر. مرّ بي أمام مدرسته التي أنهى دراسته فيها قبل عام في جبل اللويبة، اجتزنا وادي صقرة إلى مرج أبيض في الرابية، ابتاع لي قمعاً من الأيس كريم، لم أكن أعرف أنّ الأيس كريم لذيذ في البرد، أعادني متوقفاً عند النقطة التي لا يمكن أن نرى بيتنا منها رغم أنه على بعد خطوات. لم يسألني أحد عن أسباب تأخري.

باتت لقاءاتنا سرّاً بيننا، حتّى ميساء لم تعرف بها. واطب على توصيلها مبكراً إلى البيت والعودة لنقوم بجولتنا، دعاني إلى السينما، ووجدت في نفسي الجرأة للقبول. كنت قد شاهدت نتفاً من أفلام عربيّة وأخرى يسميها أبي أفلام (الكابوي) على شاشة التلفاز، ولكن أن نهبط إلى قاع المدينة وأقف مع طارق أمام من يقطع لي بطاقة بديار ونصف لدخول الحجرة المظلمة على هدى ضوء ينبعث من بطارية ترافق خطانا، وأن يتعلّق مقعدانا في البلكون في خلفية القاعة بحيث لا يرانا أحد، فذاك كثير على القلب الصغير، لا شك أنّ طارقاً كان يريد اصطحابي إلى فيلم روماني، لكنه أخطأ الاختيار، بينما كانت الديناصورات الضخمة تتمايل على الحائط أمامنا تمكّن من اختلاس قبلة، وكنت باردة تماماً في مكاني رغم توقعي لخطوته، سرعان ما شعرنا بالملل فخرجنا، لا يعني أبداً أن لا نحاول مجدّداً. تتبعنا ضوء الفتى الذي قادنا إلى مقاعدنا في سينما (رغدان)، هذه المرة بدا له أنه أحسن الاختيار، كانت شريهان بطلة فوايز رمضان تتدلّع في فيلم (الطوق والإسورة)، سمّوها فرحانة، وراحت فرحانة تحبّ، بينما أنا وطارق نجرب التّعرف على الحب، وامتدت كفه بحذر إلى كفي، عصرها برفق ثم أطلقها منتقلاً إلى فخذي، أصابتنى قشعريرة كما في الخوف، حينها وقعت فرحانة في الخطيئة، ورحت أذوب في مقعدي، لكن الفيلم انحرف بعد ذلك ليعرض عذاب بطلته في مجتمع يغتال الحب، طُمر جسد شريهان الجميل في حفرة في التراب، وتنبّهت حواسي كأنّي قنفذ بأشواك منتصبّة، دفعت كفه بعيداً من التوغّل، وانزحت بسننيمترات قليلة وكأني أوّجل متعته، لفنا صمت وخوف منعانا من متابعة أحداث الفيلم، اكتفينا بموت البطلة، وخرجنا وقد اكفهرت وجوهنا، حاول بعدها كثيراً اصطحابي إلى السينما، ولكنّي خفت مصير شريهان.

ثم في ربيع ودون أن يخطرني، اختفى، مثلما تغني فيروز «ضاع شادي»، ضاع طارق. لا أعرف إذا كانت ميساء شكّت بأسنلتي، أخبرتنني أنّ شقيقها قبل في جامعة أمريكيّة وسافر لدراسة الهندسة، تهاست وصديقاتها وضحكن بهستيرية وهن يختلسن النظر نحوي، هكذا هرب حبيبي المحتمل من دون وعود ومن دون أن يكلف نفسه إخباري، لعله لم يسافر لو أنّي سمحت له بالتوغّل

في جسدي، أو على أقل تقدير ظل مرتبطاً بي، حريصاً على العودة، وإن عاد! هل سيبحت المهندس عن صبيّة فاشلة مثلي! ضاع طارق... ألم بي وجع خسارتي السرية الذي لا يعلم به أحد، في نفس الوقت الذي فقد فيه بيتنا رشده تماماً، صار غضب أمي حزناً، وقد فقدت الأمل من إبصار ابنتها، ولم يعد أبي يخرج إلى عمله في المكتبة، كأنه فقد وظيفته، بينما يكبر نادر ولدًا شقيًا متعبًا، والمعلمات يكرهنني بوضوح، كلهن، سأعاقبهنّ بأسوأ نتائج مدرسيّة يمكن تخيلها.

أبكاني جرحي المبكر مختنقة بدموعي التي لا تعرف طريقها عبر محجري ولا تسيل على وجنتي، بل تتركني أعضّ وسادتي بحلق وأرتجف بينما شقيقتي الطفلة نور التي نقلها أبواي إلى حجرتي تتنبّه، كأنّ لها قرنيّ استشعار، يدوران برأسها في كل اتجاه، بحثًا عن أنيني المتبدد في الحجرة الضيقة. أكاد لا أصدق أنها عمياء.

المثقف

برد قارس مختلف، منذ عقود لم يهاجم عمان برد لنيم كهذا، ينسرب بين الثياب والعظم وينخر متمهلاً، ثم يعرّب في فضاء الحجرة شريراً منتشياً منتصراً، والأجساد تنكمش مرتعشة، مدينة متعنتة لا تبالي إزاء ضعف البشر وتوقعهم للحظة دفء، تردني إلى زمهرير نخر عظامي، طفلاً يتيمًا في القرية التي بعدت سنوات ضوئية عن ذاكرتي.

لست أناثياً أتأسى على حالي دون العالم، وإن رمتني نظرات نوال بالصغار المقيت، ولست نرجسياً إلا بالقدر الذي تستحقه قيمتي. لن يسحقني برد يمر على جسدي، أنا الذي نُذرتُ للقضايا الكبيرة، أرتدي لبوسها، وأحفظ الكلمات الكفيلة بحملي على فوهة البندقية؛ لكن العالم يغفل جسارتي ويتجاهلني حين توزع الهبات والمناصب والمنافع. بذلت الكثير ليلتفتوا إليّ، ليس بعد! لا بأس. صبور كجمل، يمكنني لفترة قادمة مواصلة الانتماء إلى المهمشين والمتعبين والطامحين بلا أمل.

يحسب الرجال دخلهم الضئيل بالقلم والورقة في عالم يتضخم، يورّعون على احتياجات لا تلبّى، عن نفسي تركت تلك المهمة للزوجة العاملة وتفرّغت لتأملّي الحضيف.

عرفت أوجاع البرد واليتم في القرية، طفلاً لا رغبة لأحدهم في احتضانه، ملقى قرب شوال البصل في بيت عمّ بعيد، بالكاد هو عمي، أستيقظ على ركلات امرأة شرسة تأمرني بالذهاب إلى المخبز قبل المدرسة. أسرق رغيفين من الحمولة اليومية أقضمهما بتلذذ في الساحة وأنا أسترجع غيباً قصيدة لأحمد شوقي، عن وطن يراود المرء وهو منشغل في ملذات النعيم وجنات السماء. وشم الطفولة غائر في اللحم، قيد جارج لا ينكسر، لكننا نتعوده، نزيحه بمهارة ونقصيه، يأخذ أشكالا جديدة ويعود إلينا مقتعاً متخفياً عنيداً.

كنت أكثر الطلبة حفظاً، عريف الصف، مدلل المعلمين المجتهد الذي يأتيهم بأخبار الطلبة المخالفين والمزورين والغشاشين، ربحي الجاهز دوماً وأبداً، أغش مثل البقية لكني لا أنكشف، يحتاج الأمر إلى دربة وتنبيه تام. اجتزت ويلات اليتيم والعوز وتهميش القرية وخبثها بذكاء. وقعتُ على غنيمة رابحة متمثلة بأستاذي الذي كان يرسل تقاريره إلى العاصمة حول ما يقولون عن صدامات أيلول الأسود بين الجيش والفدائيين، من هرب إلى بيروت ومن يختبئ في حضان أمه في القرية البعيدة، اشترى أستاذي ولائي ومعلوماتي، آمن باستحقاقي فرصة ما، لقاء خدماتي الطويلة له في نسخ أوراقه وبيع أسئلة الامتحانات التي كان يدسّها في قلب دفاتري، وأعطاني نصيبي من الغنيمة نقوداً وعلامات مدرسية تساعدني على تحمّل ضعتي وفقري. مثّلت علاقتي به تدريباً مبكراً على أساليب الدنيا الملتوية التي تفضي إلى المراجيح، لاحقاً الحظّ الذي لم يمكّنني من استكمال طموحي بشهادة لها شأن مثلما أستحق. شجّعني أستاذي على الالتحاق بالجامعة في عمّان، محتملاً فقري وعوزي، قال: هي سنوات أربع يمكنك احتمالها. أنا مدين له بتحويل لي إلى رجل صُلب، لولاه لأكلنتني عمّان حياً. في الجامعة مارست ذات المهام التي تدربت عليها على يديه، أصبحت مخبراً يمرّر التقارير عمّا يدور. ساعدتني فصاحة لساني وخروجي في مقدمة التظاهرات التي تستنكر قرار فكّ الارتباط بين الضفّتين، اندسست بين زملائي أتلقت خطاباتهم العلنية، وتلك التي يتهامسون بها، حصلت بجدارة على عضوية ثابتة في مجالس الطلبة المتعاقبة وإن لم أصل إلى قيادتها؛ حبّتها عني أبناء العشائر والمتنفّذين، مع ذلك تقدمتهم هاتفاً ضدّ اتفاقية العار (كامب ديفيد). ويبدو أنني كنت أحقق تماماً، فرحت بالفتات التافه، وظننته عطاءً كريماً يساعدني على تغول المدينة وقسوتها، لمثلي بدا كلّ قليل كثيراً، تقاضيت مبلغاً زهيداً هو دخلي الوحيد الذي يعينني لأكل رغيف يومي محشو بالفلفل أو الباذنجان المقلي، وقد يتيح لي شراء قميص وبنطال وحذاء مستعمل بين الحين والآخر. صقلتني التجارب وأطاحت برومانسية الشباب الغضة وبراعتها البلهاء، لم أعد أندesh إزاء أخبار الفساد الذي يفوح عطنه بين الحين والآخر ويطال مسؤولين أو سياسيين أو بشرّاً عاديين، أيقنت أن الفساد أصل الأشياء، وأن المثاليات سراب يتسلّى به المثقفون، وكذب يدبج قصائد الشعراء وكتبه الصحف الطامحين إلى تغيير العالم. كنت مؤهلاً ومتأهباً لاقتحام هذا العالم المترف.

انقطعت علاقتي بأساتذتي بعد أن هيئوا لالتحاق بالجامعة ووجدوا لي وظيفة في عمان، نسيتهم ونسوني. التحقت بمؤسسة مرموقة بعد نيل شهادتي في علم المكتبات، ألقيت الماضي ورائي خرقة بالية، وارتديت ما يليق بما هو آت. أنا بارع في التخلص من حمولة الحياة الثقيلة، بارع في

إقناع من حولي بأيّ شخصية أختارها، من يظنون أنفسهم أذكاء يتصرفون وكأنهم عثروا على لقية إذا تقاطعت دروبنا، ينشرون حولي الإشاعات، ويتعاملون بوقية مقللين من شأني، ولكن من يهتم؟ دائماً هناك أغبياء وسطحيين وسذج، وقد استخدمت مهاراتي لاقتناص أشخاص مثل هؤلاء، يتعاطفون ويهزون رؤوسهم معجبين. في الواقع لم تمنحني الحياة ما استحقته مواهبي، ففي إهابي طاقة لا تنضب، أتفوق على الكتاب المتهترئين الذين يمتلئ العالم بضجيج أعمالهم العادية، عندما يرى كتابي النور سيحدث انقلاب فكري حقيقي، صحيح أنه تأخر ولكنه ينضج على نار المعرفة التي تتطلب زمناً، أسبق في رؤيتي السياسيين الذين حصلوا على مناصبهم إرثاً عائلياً، أتفوق على كل هؤلاء الذين يحابيهم الحظ فيفوزون بجائزة اليانصيب ومسابقات دولية، أو يتمتعون بنفوذ العشيرة وألق المال، الذين يحضون بنساء جميلات كأنهنّ عارضات الأزياء، أولئك الذين يحصلون على المناصب والمواقع بيسر، كأنهم يلعبون بحجارة الزهر التي تحمل دائماً أرقاماً كبيرة.

كنت أعمد إلى الكتب أقلب صفحاتها سريعاً وأنتقي عشوائياً عبارات أعجبتني، لا يطالبك المستمعون بالتفاصيل، تكفي إشارة ذكية لتبهرهم، تشكل عناوين أحاديثي قفزات بين الخطير من الأفكار والكتب، كأن أذكر ببساطة أن (ألبير كامو) قال وهو يتحدث في أسطورة سيزيف، أننا نعيش في عالم غير عقلاني، لكننا نكافح للوصول إلى معنى لحياتنا، وقد نصل إلى السعادة آخر الأمر. سيبدو وكأنّ (كامو) صديق لي، نتجاذب أطراف الحديث، نتناقش ونختلف، وسأبدو بهيئاً، مثقفاً حقيقياً، بمثل هذه الأحاديث المجترأة، أثري جلسات الرفاق والأصدقاء الكثر الذين يتفرقون ويتجددون ويتغيرون، أقتنصهم في الندوات الثقافية وفي مقاهي جبل اللويبة والشميساني، في المسيرات والمناسبات الوطنية، لا أنتظر دعوة من أحد، أقدم بنفسي إلى تجمعاتهم، ثم أمسك برقبة الحديث وأمتطيه كفارس على صهوة حصان، أتنقل بين موضوع وآخر برشاقة وخفة دون عناء، أترث قليلاً مفسحاً المجال لأحدهم كي يعلق أو يبدي رأيه إذا ما احتجت إلى كلمات إضافية أدبها في التقرير الأمني، فالحديث فن والتقاط معناه وإعادة تفسيره فن أصعب، تلك لعبتي التي أجيد. يتحلق المعجبون الصغار حولي وأنا أوضح أن (هيسه) أمضى عمره باحثاً عن ذاته، يقبلون علمهم يجدون ذواتهم. أمدهم بالعناوين الثقافية والعبارات الرنانة التي ينقلونها حرفياً إلى مقالاتهم ورواياتهم وقصصهم المموجة، فيصيرون كباراً. أقسم أن روايات بعضهم استعارت حبكتها من أحاديثي، وأن قصصاً كثيرة صادرت كلماتي بوقاحة، وبنت القصائد بيوتها بحجارة من عباراتي الشاعرية العميقة، يلتهم الإعجاب في عيونهم، ثم يخبر إذا ما فرّوا بالغنيمة؛ ولكني لا أعاتبهم،

أتركهم ينعمون بما سرقوا، وأعرف أنني سأصل يوماً، وأقف ماداً أطراف أصابعي يلعبونها، وقد أفقاً بها عيونهم، سيهرعون حين أنتهي من كتابي، سيندم من هم فوق لأنهم تناسوا وجودي، وسيندم الصغار ويتلهفون إلى أخذ مشورتي والنقاط الصور بصحبتني بعد أن أتربع على كرسي يليق بي وألقي كتابي مثل قنبلة في مستنقع ضحل، سيلتفت عنق العالم نحوي، وسيكتب التاريخ أن الدنيا بعد كتابي (الفكر العربي الحائر بين الأصالة والتقليد) هي غير الدنيا قبله، فأنا لست مجرد كاتب تقارير عابر، أنا مفكر خنقه فقره، وأبطأ خطوه غياب الظهر القوي، عبقرٍ لم يجد فرصته بعد. سيأتي من يقدر مواهبي الدفينة ويعيد تلميعها كما يفعلون مع الذهب.

لا أفترق إلى الوسامة، وإلا كيف للمعجبات أن يتكاثرن؟ فارغ الطول، أسمر اللون، واضح الملامح، كثيف الحاجبين، بعينين داكنتين، هذه ليست نرجسية، أنا فقط أقدر ما أراه في مرآتي، أمتلك من صفات القوة الكثير، حتى لو لم أكن مفتول الذراعين فإن وجهي خشونة ذكورية ساحرة تخلو من الليونة والميوعة التي تتجلى في موظفي البنوك ورجال الأعمال والسياسة المرفهين. بنظرة مركزة ثابتة كنت قادراً على اقتناص أي امرأة ولو تظاهرت بالتمنع أو العفاف والزهد، هذا ما حدث مع الكلبة التي تزوجتها، كادت تطير بي في بداية معرفتنا، ولا أعرف أي خلل صور لي أنها مخلوقة ناعمة يمكن تربيتها كقط أليف، أخطئ أحياناً، أعمتني حساباتي في الإفادة من راتبها الشهري عن تواضع جمالها وضحالة ثقافتها، لم يكن ما أتقاضاه كافياً لإنشاء بيت وأسرة، راتب محدود أتقاضاه من المكتبة وأقل منه ثمناً لتقارير السرية، قلت لنفسني راتبي على راتبها يمكنني من تحقيق استقرار مالي يساعدني على منح مشروع الفكري وقتاً وجهداً، صفقة معقولة، اقتنيت امرأة وبيتاً بسقف ومائدة وسرير وجدران. لكنّ هذا البيت أطبق على روحي فيما بعد، لقد أوقعت بي لا العكس، خدعتني متظاهرة بالإعجاب والبراءة والنشوة وهي تستقبل حياتها الجديدة معي بآمال عريضة وعينين لامعتين، لعلني تصرفت بغباء، مرت بي هنيهات عابرة ظننت فيها أنني مستعد للتغيير، كأن أحبها مثلاً وأكف عن الوشاية بالزملاء وأتوقّف عن نسج الحكايات المتكلفة، وأصير زوجاً وأباً أنموذجياً، كنت على استعداد لتضييق الخناق على طبعي من أجلها! لكنني لم أصبر ولم تصبر، انجلت الكذبة بسرعة، اغتال السأم أشواق الجسد والروح وغلبني الحنين إلى عالم فنتازي، إلى قصص ترسم حولي هالات ملونة وتساعدني على اجتياز دروب الحياة الحافلة بالحفر والمعوقات.

أرتكب بعض الخطايا الصغيرة، لكنها لا ترقى إلى توصيف الجريمة، جنح بسيطة، يمكن التغاضي عنها، مع ذلك تراقبني زوجتي المارقة مثل ساحرة تحدّق في بلورتها، حين كانت ابنتي الكبرى تحبو انقلبت زوجتي إلى رقيب حسيب، تزجرني بنظراتها إذا تماديت في توصيف أمر ما، تلوي شفيتها استنكارًا إذا تحدثت بحكمة، قد تقاطعني وتكذبني، تدينني كأني الشيطان وهي الملاك الذي سقط في بيتي مرغمًا، تبرر لنفسها الحدة والقبح وكل خطيئة مستندة إلى أنني البادئ، تضخم مقتنا ونفورنا مثل كرة من الشوك تدفعها ريح صحراوية، لم يخلُ الزمن من استراحات خادعة كذلك التي أنجبنا فيها ولدنا وابنتنا الكفيفة.

يوشك القرن العشرين على الخروج من بوابة الزمن، يمكنني استشعار القادم من أحداثه مثل صرصار مزوّد بلواقظ تنبئه عما سيكون أمامه، لكنني وقعت في الخطأ وأنا أفصح عن نظريتي حول دخول صدام إلى الكويت، كان المثقفون الجالسون على مقاعد المقاهي يشبهونه بصلاح الدين الجديد، اجتاحت الناس حمى الحماسة وهم ينتظرون مجداً وهمياً، وحدي رحت أتشكك وأحذر، مُفارقاً الموقف الرّسمي للدولة التي لم تكن يوماً حليفة لصدّام، لكنه أغرق المدينة بالبترول المجاني في السنوات العجاف.

جنت عليّ ثرثرتي، هفوتي لا تعادل الخطيئة، لكنها جلبت عليّ الغضب، وقعت السماء فوق رأسي، مجرّد حساب غير دقيق وحركة غير محسوبة وصارت صفحتي قائمة، حاولت بكل جهدي كي ينسى الذين هم فوق حماقاتي وآرائي السياسية البلهاء، كُنّفت خدماتي وطالت تقاريري، نشطت مع إعلان فكّ ارتباط الضفتين، مثل لاقط حساس، سجّلت ردود فعل الناس في المقاهي وخلف جدران المؤسسات الثقافية؛ لكنّ كبوتي الثانية كانت قريبة ولم أحسب خطواتي والبلاد تنتفض في حراك شعبي سمّته (هبة نيسان)، اندسست في مظاهرات الهبة وقد اختلط عليّ الأمر، فاجأني توقي الشخصي إلى حرية ما، وبحثي عن موقع لي بين الناس الطيّبين، ربّما اعتذاراً عمّا بدر مني، هكذا نقلت من خانة المخبر إلى خانة المعارض.

لم تشفع لي خدماتي السابقة، ولا صدّقني المحقّق، ولم تكن قضبان الزنزانة رحيمة بي، ورغم قصر مدة اعتقاله إلا أن الزنزانة ربّنتي مثل المرأة القاسية التي كانت تأمرني في طفولتي، كتبت اعترافاتي وتعهداتي وكنت كمن يدير صفقة على نوعية التقارير القادمة؛ لكنّ الهبة الشعبية جاءت بتقلبات سياسية كادت تعصف بي بعد أن ارتدت البلاد مسوح الديمقراطية، سكنني الخوف

على الرغم من إطلاق سراحي، ماذا لو لم يعد هناك حاجة لخدماتي؟ هو خوف عابر تافه، ففي عالم مثل عالمنا لا يمكن الركون إلى التفاريح التي تبهج الشعوب، من العسير أن تنفرج الدنيا لهم للحاق بالعالم الجديد الحر، التفاريح من نصيب أمثالي، ما زلنا نحبو ولا بدّ أن أمامي عقوداً طويلة من العمل الجاد.

بعد شهر وراء القضبان، عدت إلى صوابي أو صوابهم، رجعت عن أفكاري الخرقاء، عدلت بوصلتي كما يجب، أقنعت المحقق أنني أثرثر وأهذي فاحصاً الاتجاه الشعبي، أطرح فكرة لأسبر أغوار البشر وأعود لهم بالتقييم الصحيح. أقسمت على الولاء والانتماء، بدا أنهم صدقوني، بل إن نوال أحببتي فجأة لزم من قصير خاطف، وتسامح معي مديري الذي بدا حذراً بعض الشيء متشككاً بثقافتني، ضحكت لي الدنيا ورفعتني عاليًا، في تلك الفترة ولدت ابنتي نور، ثم نادر.

ثم وقفنا لسنوات نستجدي على أبواب العيادات والمختبرات الطبية أملين شفاء النور الذي جاء إثر غلطة فادحة، نورٌ أعمى، الفرصة التي لم نمسك بها كي نتقارب أنا ونوال، كي أتنازل عن بعض غروري وألتمس لقلبي الشعور بالضعف، ولو قليلاً، وأنا أحمل صغيرتي وأتقدم أمها إلى مقعد الطبيب، أسأل بلهفة وأمل، فرصة خاطفة لم نغتتمها، بل أن مقتها اتسع لتربط بين ما وقع لابنتنا وبينني، لا أؤمن أنني سأجازي عمري كله على الوشاية بأنزال كان غيري سيشي بهم. أنتقم من الطبيب، أغيره إذا أعلن استسلامه، أو لم ينل رضا زوجتي، أو أفزع فحصه ابنتي وأبكاها، وإذا استهزأ بكلماتي أيضاً، كذلك الذي راحت نوال تشرح له كيف اتسعت البقعة البيضاء في حذقتي طفلتنا دون أن نغير الأمر اهتماماً، أزعجني أن الحديث يروح بينها وبينه كأنني خارج المكان، طالبت بحقي في السؤال، قلت: هذه البقعة البيضاء هل هي البقعة العمياء التي نسمع عنها؟ ضحك الطبيب كأنني تفوهت بحماقة، وراح يشرح مستعليًا: لا.. لا.. هذه غير، البقعة البيضاء تطورت إلى أن فقدت ابنتكما نظرها، أما البقعة العمياء فهي موجودة في عين كل إنسان مبصر، هي نقطة في الشبكية لا تستقبل الضوء ولا ترى، نحن عادة نستكمل المشهد أمامنا بالعين الثانية، ولأننا نرى بالعينين معاً، لا نعرف أن كل عين على حدة لا ترى جزءاً من المشهد. غطي بكفك واحدة من عينيك، هناك تفصيل سيغييب عنك في المشهد الذي تراه.

ما حاجتي لكل هذا الاستعراض العلمي أيها الطبيب؟ لقد قرأت من الكتب أضعاف ما حفظت في جامعتك، كتب في كل تخصص ومجال، ولست بحاجة لسخريتك الوقحة. تنظر زوجتي نحوي

شامة كأنها عثرت على دليل جهالتي، كانت نوال قد انتهت من هذنتها القصيرة وبتنا نتبادل الاتهامات بفجور متخلّين عن الحذر والتعذيب المفتعل، مدركين أن ابنتنا البكر تسمعنا وراء بابها الموصد، أخرج أمومتها وتشكك بأبوتي، تهينني وأحقرها، لم يكن ذلك فعل انعكاسي لحالة نور الصغيرة، ولكنه الطبيعي بيني وبين المرأة التي ابتليت بها، تهشمت آمالنا بشفاء ابنتنا، حبيسين أمام جدار نخدشه بأظافرنا فيدمينا، تغولت نوال كاشفة عن أنيابها، ازدادت شراسة وهي تعزلني عن أبنائي، جعلت الحياة أتوّنًا قابلاً للانفجار، لكنني احتملتها من أجل نور، تتحرك نور بحذر أشبه بيمامة عمياء، ترف حولنا حتى ننسى أنها بشر مثلنا، وحين تتشغل نوال بها دون الآخرين، تتململ وتخاف، ولكنها سرعان ما تستكين، كانت تطعمها بنفسها تحشو معدتها الصغيرة ولا تُصغي لاعتراضي بأن البنت قد اكتفت، تنقياً نور بعد تناولها الطعام فتصاب نوال بالاكتئاب ولا تعترف بأنها أطعمت الصغيرة حصتين وظلت جائعة، ربما لهذا لا تكتسب زوجتي لحمًا، تظل نحيلة على الدوام. حين اقتنعت بأن علينا تدريب البنت على تناول طعامها انقلبت المائدة إلى ساحة للعراك، تنسكب اللقم الملونة من ملعقتها إلى ثوبها وتنفرش بقعاً رطبة على صدرها فتضحك ندى باستهتار وتثور نوال طاردة بكرنا عن مشاركتنا المائدة، تفر البكر محتجةً وتسقط كرسيها أثناء انصرافها، ويتأفف الفتى حاملاً صحنه إلى حجرته حيث يختفي وراء بابها، لا يتوقف نادر عن التأفف في كل المواقف، يتورد وجه نور خجلاً وتتحرك دموعها في مقلتيها، تحتد نوال غاضبة ويتعالى صراخها تسب لآعنة الحياة من الخالق نزولاً إلى جنابي الجالس مثل حيّط. مع ذلك عبرت العمياء تفاهاتنا الصغيرة وأتقنت استخدام الملعقة، وباتت تمشي في البيت طيفاً رقيقاً يعلم بوضوح أين يضع قدميه.

صبرت على زوجتي مطوّلاً، كما تحملت الشميساني الجافة التي أظاھر بالاعتزاز كوني من سكانها العتق، ولم تكن في نظري أكثر من مكان ينيخ فيه البدو إبلهم ونوقهم لتتشمس، من هذا التاريخ الصحراوي طلع اسمها الغريب، مكان مخادع يتظاهر أنه قلب المدينة الأخضر النابض بمنازله الفارحة وحدائقه المزهرة، سنوات طويلة وأنا أحاول هضم المكان واحتماله، تعداد مزاياء والتمتع بفرصة البيت الذهبية، كأنما الفيلا الفاخرة كلها ملك لي ولست مستأجراً لشقة تعلو بيت المالك.

حياتي الموازية تشغلني عن تفاهات بيتي، أخضع المثقفين عادة إلى تراتب دقيق، أقسمهم إلى فئات، ساعدني هذا التقسيم منذ بدايات كتابتي للتقارير السرية وسيكون مفيداً عند تألّيفي لكتابي المعجزة. هناك الفئة الأكثر ثقافة، الفلاسفة مثلاً، وهم قلة يخالطها شك كثير وعناصر متفلسفة لا

فيلسوفة، يحفظون نظريات المعلمين الكبار دون أن تكون لهم نظرياتهم الخاصة. يليهم المبدعون الذين يمتلكون هبات القدير في عجن الكلمات وتشكيلها وإطلاقها لتصير شعراً ونثراً محكماً، قصائد وروايات، بالطبع منهم الأصيل ومنهم المدعي، لكني لا أفرز بينهم وفق ذائقتي، ليست هذه مهمتي على أي حال. رغم أنني كشفت عوراتهم وهم يستعبدون مني الأفكار والكلمات. أزج الأكاديميين في مرتبة مقاربة من برج الإبداع، خاصة أولئك الذين تعبوا على علومهم بعد نيلهم شهادات الدكتوراة، فباتوا في موقع وسط بين النقاد والمنظرين، ولا يعني ذلك أن تصنيفي ينطبق على الأكاديميين الذين لم يتمكنوا من تطوير ذواتهم، ولا تجاوزوا درجة الأستاذ في مدرسة إعدادية، مع احترامي للمعلمين كقطاع تعليمي وتربوي يرفد البلاد بحملة الشهادات على كل لون ودرجة، فقد خبرتهم حين كنت طالباً نجياً في مدرسة الحياة، أضع السياسيين في أدنى السلم، مستثنياً الوزراء والسفراء ورجال الدولة، على أمل انضمامي إلى تلك الفئة المتنفذة يوماً. الناشطون السياسيون الذين أعنيهم، أولئك الذين يشاركونني هوايتي في اللعب بالكلام المنمق، ثم يتفوقون عليّ في تبني الشعارات، مناضلون يصرخون في المنابر وينطعون على صفحات الجرائد، يجيدون لعب الورق في المقاهي ويستمتعون بسحب أنفاس الأرجيلة من معسل بطعم التفاح، ينادون بالإصلاح ويتشدقون بالقيم وهم يطارحون عشيقاتهم الغرام تاركين زوجاتهم لعشاقهن، يتمتعون بالرشاقة والقدرة على الحركة صعوداً وهبوطاً متنقلين بخفة من اليمين إلى اليسار وبالعكس، قادرين على الدفاع عن الإلحاد كما يدافعون عن الإيمان وفق البيئة المحيطة، والظرف الواقع، واللحظة التاريخية المواتية. اكتسبوا نجوميتهم من لهيب كلماتهم النارية وهم يرمون بها السلطات السياسية والدكتاتورية، من شغفهم المخيف بالشعوب المرهقة، من نشوتهم إذا تذكروا عرق العمال وأحلام الناس، هم أنفسهم القادرون على احتقار الشعوب عند الغنائم، الذين يطيحون بكل ما أعلنوه في سنوات نضالهم الممتدة على طول تاريخ الهزائم العربية، عدل هؤلاء دفتي دائماً، يسامحني ضميري إذا تذكرتهم، ولا تخجلني تقاريري الكيدية في الزملاء، عثراتي لا تقارن بكبوات المثقفين الذين يرون العالم من وراء نظارات معتمة وعبر نقطة واحدة حددها لهم موقعهم، سامحت نفسي وأنا أشهد عصر النقائص تعلن عن خلل عميق في العقل الثقافي الذي كنت أخشاه وأشعر بالصغار أمامه، كانت هذه التناقضات زاداً لكتابي القادم وإن لم أبدأ في خط الكلمة الأولى منه.

ارتفعت مجسّات الخوف والتيقظ عندي، عندما تم توقيع اتفاقية (أوسلو)، وداعاً للسلاح، بحذر بالغ فتحت أذني جيداً وكبحت فمي الثرثار أن يقول، رصدت الموقف الرسمي قبل أن أنخرط

في مناقشات مشتتة مع المثقفين، لكل واحد منهم قلم، ومن يدري من مع من؟ وأين يقف الواحد منا؟ لم يفدني حذري، ولا شفعت لي حصاقتي، فقدت عملي في المكتبة التي لا يدخلها أحد، فقدته بمكيدة مدبرة حول عدم التزامي بالدوام الرسمي وإضاعة الكتب أو بيعها للقراء الصغار في المقاهي. لم تكن هذه الحقيقة كاملة، لست أحمقاً لأصدق أن ظهري الذي أستند إليه يتخلّى عني لمجرد إخلالي بمواعيد دوامي أو بيع الكتب المسروقة، ولم أتمكن رغم محاولاتي المتتالية من لقاء مسؤول يساعدني في العودة إلى العمل، كثفت تقاريري حول ردود فعل المثقفين على (اتفاقية وادي عربة) وغضبهم من السلام الذي ينصب خيمته على بلادنا، زورت أحياناً كلمات نارية على ألسنة أناس لم أسمعهم يتفوهون بها، كنت بحاجة لاسترداد موقعي، ولكن كل هذا الجهد لم يجد، طويت صفحتي كأنني لم أخدم بقلمتي وعرقتي وجهدي واجتهادي.

خسرت بفقداني عملي سلاحاً فاعلاً في التوازن بيني وبين نوال، انسحبت مهزوماً ورجحت كفتها، تنور لأتفه الأسباب، وأكتفي بنظرة سريعة متجاهلاً نظراتها المهينة وكلماتها الجارحة، أشيح بوجهي منتظراً معجزة تمنحني فرصة إثبات قدرتي. تحولت المرأة إلى كتلة من سواد، تتظاهر بالصبر والجود وهي تسد برائتها الشهري حاجيات أطفالها وإيجار السكن كما تضع الطعام على المائدة، ولا تنسى إلقاء مصروفي على الطاولة أمامي باحتقار، ظناً منها أنها استعبدتني وتقدمت عليّ، تحاول كسر زهوي بنظراتها من أجل وظيفة قميئة لم تكن تشبعنا أو تليق بي، يوماً ما سيكون لي معها شأن آخر.

أه أيتها الشميساني القبيحة، لم أغفل ثانية واحدة عن طبيعتك القاسية، لم تغرني الحقائق المنمقة حول البيوت الحجرية ولا الأرصفة الأنيقة حول البنوك وشركات التأمين، منطقة راقية مفرودة بعناية مقيئة، تذكرني بأن شعري مشعث أو أن قميصي انفلت من حزام بنطالي، وأن لسانني العمّاني خانني وتفوه بلفظ ريفي، مكان يكتشف بصفاقة ذرات التراب التي تعلق في مقدمة حذائي، بيتسم بدمائة عالية وسخرية خفية كأنه يقول: عرفتك، أنت لست من هنا.

رأس المال

لم يفقد البناء الأنيق الذي أقمته في الشميساني جدّته، كأنه أقيم حديثاً لفرط عنايتي ومتابعتي للجدارن بالتنظيف وللحديقة بالتجديد، وللبناء بالترميم كلما طرأ حادث، وحدي أعرف أن الزمن مرّ كافياً وثقيلاً على هذا البيت العتيق، يحيط به سور مزخرف تتوسطه بوابة عريضة، المدخل حيز بهي تشغله أزهار الورد والياسمين وتشقه طريق مرصوفة بحصى ناعم متراص، تلتف الحديقة من جانبي البيت وخلفه زاخرة بالأشجار المثمرة، تحاذي دالية العنب السور، وتلتصق شجرة الليمون بجدار البيت، في الجانب الأيسر شجرات عديدة، خوخ ونارنج ورماني، في الأيمن حوض للنعنن والبقدونس، تتسلق نبتة المجنونة السور مضفية على المشهد مزيجاً من ألوانها البهيجة البرتقالي والبطيخي، تنتشر الأقواس في البوابة وهندسة البناء والنوافذ موحدة الطراز، ويتشكل حديد السلم الصاعد إلى الدور الثاني على شكل زهرة اللوتس. بيئة كفيلة ببث البهجة، ولكن ذلك لا يبدو مؤثراً في عائلتي، تفرّ لميس من نومها مرعوبة، وقد انفلتت خصلات شعرها القصير إلى الأعلى كأن مساً كهربائياً أصابها، تتعوذ ويتهدج صوتها وهي تروي حلمها بحماقة، الزوجات الغيبّات فقط من يصابحن أزواجهن بكابوس مثل هذا ولم تفح رائحة القهوة في البيت بعد.

تقول: يتفسّخ الحجر من الأعلى، ينسطح الجدار هبوطاً، كأنه جرح يتسع ببطيء مؤلم، نظيف خال من الدم، ينجرح البنيان من رأسه ماراً بالطابق الأوسط فوق رؤوسنا وصولاً إلى موطأ أقدامنا في أرضية الشقة، يشرخ معه امتداد الحديقة، تصير الأشجار جرداء ويصفر العشب ويذبل النعنن في الحوض، ويتحول لون الورد إلى بُنيّ كأن حريقاً طاله، تهتز الممرات التي تقود إلى الحجرات الداخلية وتتهاوى الأبواب الخشبية ويميد السلم وتبرز أضلاعه المعدنية برؤوس مدببة.

الحق أن لميس بارعة في شرح تفاصيل ترجف جسدي خوفاً واستنكاراً، تصدر أصواتاً لهدير الجدران وهي تنهار، تطلق عواءً متقطعاً يتحول إلى صرير وهي تصف كيف تسمرت في الحلم وكأن قدميها قدتا من حجر، وكيف احتبس صوتها وثلت أطرافها، حتى نست اسم ولدها واسمي وهي تحرق في المشهد الأخير قبل الموت، وقد ذهلت عن الناس وذهلوا عنها، ظانّة أنه يوم الحساب!

تثير كوابيس لميس سخرיתי وغضبي، ولكني صبور مثل جمل، أفور قهوتي وأشربها صامتاً وأمضي، تظن صمتي استكمالاً لنيماً لحلمها، لكنني حقاً أضجر من الأحاديث التي لا طائل وراءها، ماذا أفعل لها؟ لست مفسر أحلام ولا أنا ممن يؤمنون بإشارات غامضة تزورنا في المنام، لتخرج وتنتظر البيت يقف شامخاً كما هو.

بيت أنيق في عمّان الغربيّة، لم يفقد مكانته رغم تعدد الضواحي الجديدة الفارحة، يفوح برائحة الياسمين صباحاً وشذا شجرة (الكولونيا) مساءً، ملحق به شقة علوية، بنيتها لولدي في الأصل، ولم يحدث قط أن أهملت التدقيق على كل صغيرة وكبيرة تتعلق بالبناء، أخضع المنزل من الداخل والخارج لترميم مستمر، أبدل ألوان الجدران الداخلية كما هو رائج في حينه، وأكلل الحجر وأنظفه برشاش الرمل من الخارج.

تظن لميس أحلامها وكوابيسها إشارات إلهية تحذرها وتطالبها بالعودة إلى ربّها كأنّها مُخطئة وجبت عليها التوبة. تصيبني أحلامها بالملل ولا تعنيني، إلّا أنّني في ظهيرة هذا اليوم تحديداً وقفت مندهشاً أمام خزق صغير بالكاد يرى أسفل الجدار الذي يسند حجرة نومي من الخارج، يتحرك من فتحة صغيرة وإليها سرب من النملات النشاطات، بعضها يحمل بقايا طعام يفوق حجمها متناهي الصغر، من الطبيعي تواجد مستعمرات النمل في الحقائق، لكن سرب النمل هذا كان يحث الحجر بصبر ويخرقه بخبث كأني عدوه، يبني بيته ويهد بيتي! ظهيرة حارة حين اكتشفت بيت النمل في كوة فتحها في جداري، لعنت في سري كوابيس زوجتي، وفي ثوان، وقفت مشدوهاً باللوحة الفاتنة التي وقع بصري عليها، ناسياً هجوم النمل تماماً.

متى نضجت وسالت بالعسل؟ ما الذي زلزل الحياة فجأة وفجّر في بيداها ينابيع منعشة تماماً كما انفجرت دهشتي تحت سياط الشمس؟ دهشة لم أعتدها على هذه الصورة الملتاعة التي تحرك في

صدري موجات من الذهول والفرح، كأني أكتشفها، رغم أنها لم تكفّ عبر عقد كامل عن إدهاشي على جرعات طفيفة عابرة، تومض وتنطفئ سريعاً قبل أن تتسارع وتيرة فؤادي بالخفقان.

جاءتنا عروساً نحيلة نضرة، حنت رأسها خجلاً، وتلّون خذاها بحمرة خفيفة، وزوجها يتبجح منتفخ الأوداج بأنه غير قادر على دفع إيجار شقة في الشميساني، كأنه يمنّ عليّ بفقره أو يحمّلي مسؤوليته! تغضبني العنجهية التي يبيدها الفقراء وهم يلجون بوابة الطبقة الوسطي بتعال كاذب، كأنه فقر يتظاهر بالغنى.

أوشكت حينها على دفع فنجان القهوة أمامي والاعتذار عن تأجير الشقة متعللاً بأنني أستبقها لولدي حتى يتزوج، أو يمكنني أن أسخر قائلاً: «لا تسكن في الشميساني إذن إذا لم تكن قادراً على مصاريفها. ابحث عن بيت في المحطة أو جبل النظيف يلائم قدرتك المادية، أنا لم أستدعك ولا عرضت بيتي عليك، لقد جنّت استجابة للافتة فوق الدرج المعدني، تلك التي خطّطتها في متجر خطّاط متمرّس، تتوسطها كلمة واحدة (للإيجار)». عزمت على قول كل ما سبق؛ لكن أسباباً كثيرة متعلقة تلوي الكلام عن مطارحه.

كنت غاضباً من ولدي كريم الذي قاد عصابة صغيرة، وأوقفني مخزياً أمام إدارة مدرسته. مرّغ وحيدي كرامتي بالوحد منذ وقت مبكر، قرّرت حرمانه مرحلياً من فكرة أن هذه الشقة له، تنتظر أن يبني فيها عائلته المستقبلية. لم يعد طفلاً بريئاً يدخل دكاني نابشاً قطرميزات الحلوى واضعاً الكرسي ليصل إلى رفّ ألواح الشوكولاته، لقد كبر ونبش أدراج مدير المدرسة سارقاً أسئلة الامتحانات، لا أدعي أنني حلمت مطوّلاً بولد يصير طبيباً أو مهندساً، فليكن ما يريد، إلا أن يصير لصاً. إنّه ولدي الذي يحمل اسمي وسيرث بيتي ومالي ودكاني، كنت قد جدّدت ديكور الدكان في توسّع تجاريّ غير محسوب، وأسميته «ميني ماركت» مواكباً للعصر، أتهياً لتسليم أعماله لولدي عن طيب خاطر. ولا أوفر جهداً في إرضاء زوجتي لميس واللاحق بمستواها الاجتماعي والاقتصادي الذي تعودته لدى عائلتها، أنا زوج مثاليّ وأب جيّد حتّى لو لم أجالس عائلتي كما يجب وكما تتهمني لميس، فكل ما أفعله يدور حولهما تماماً، من أجلهما، انشغالي بتجارتي والبيت والحديقة، توسعي ولحاقني بمتطلبات السوق، كل هذا كان من أجل هذه العائلة الصغيرة، فهم كلّ ما أملك.

فكرت بصورة عملية فعرضت الشقة العليا للإيجار راضياً بمبلغ زهيد لا يتناسب مع إيجارات المنطقة المحيطة، كنت بحاجة ماسة لمبلغ ثابت يحافظ على اتزان واستقرار عائلتي ريثما يبدأ الميني ماركت في درّ أرباحه، كما أنني مضطّرّ لتحقيق قسط المدرسة الخاصة لكريم الذي قهرني حين طرد من المدرسة الرسمية، وسرعان ما فسّرت الأمر لصالحه، فالتعليم الحكومي ينهار والمدارس الخاصة توفر نمطاً جديداً راقياً يليق بنا ويضمن للولد مستقبلاً أفضل. ثم إنني قدّرت أنّ العروسين لن يخربا شقة الولد. شابان تزوّجا للتوّ، تبدو العروس ظريفة تتلألأ ويفوح منها شذى كالياسمين، بصورة أو بأخرى كنت واثقاً أنها ستحافظ على نظافة الشقة، أتذكّر ذلك اليوم بوضوح، كانا فرحين، مرّت ضحكاتها كبرق سريع وأقنعت نفسي أن فرحي ناجم عن حسن تخطيطي كوني لم ألجأ إلى قرض بنكيّ يثقل كاهلي.

أوشكت في لحظة الغضب من وقاحة الرّجل على إفساد الاتفاق بيننا، تضافرت كل تلك العناصر وجعلتني أوقع عقد الإيجار، غادرا وعادا بحقائبهما، وبينما ينقل المستأجر أثاثه البسيط محمّلاً على كتفيّ أشقائها، صعدت الدّرج بخفة ورشاقة، ضبطت نظراتي متلبسة بالدهشة، وغمرت البهجة روحي. استعدت وقاري وهيبتي سريعاً صارفاً عينيّ عنها، مرّت سنوات عشر على ذلك اليوم، عقد كامل تخلّته ابتسامات عابرة ومجاملات وقورة واحترام متبادل وغيضٌ بصر وتعوّذ من الشيطان، ولعلّي عرفت اليوم فقط أنني وافقت على تلك الصّفقة الخاسرة من أجلها. انتبأه متأخر.

سنوات عشر، عقد كامل مضى زاحراً بالأحداث، وها أنا أقف اليوم مخدّراً متسائلاً متى نضجت الصّغيرة! أتحسّس اسمها بولّه كأني أعرفه اليوم، ما تزال تصعد برشاقة وقد رُسم قوسا خالصرتيها بدقة، تفيض أنوثة رغم أنها تدفع بطنها أمامها، لم يكن حملها الأول، ولا الثاني، فقد كبرت ابنتها التي أراها كلّ صباح في مريولها تعبت بجداولها وتمضي نحو المدرسة وهي توازن الحقيبة الثقيلة المعلقة على ظهرها، وأعرف أن في الشقة العليا ابنة رضيعة في المهد. ما الذي عنّ في بال هذه المرأة الحلوة مثل ثمرة تين لتجدّد حملها؟ يخلّني التشبيه الفجّ الذي راود خيالي، خاصّة أنّ زوجها السّمج يقف قُبّالتي في مدخل الحديقة فارضاً نفسه متحدّثاً بحرقة واندفاع بينما تهزّ رأسها في تحيّة سريعة وتتجاوزنا، تعطينا ظهرها صاعدة السّلم الحديديّ إلى شقّتهم ملنقطة أنفاسها بين الثّانية والأخرى، محافظةً على نقلات حيويّة.

يتحدّث ربحي في حماسة زائفة، منذ عرفته قدّرت أنّه رجل مزيّف، وها هو يعيد عليّ خطبه الثّارئة، تردّد بليد لطالب حفظ درسه عن ظهر قلب، يكرّر متشجّجاً عبارات الغضب والاحتجاج التي يهدر بها المذيع وتبثها الشاشة ناقلة وقائع اتفاقيّة (أوسلو)، لقد تعودت أن ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، ما شأني أنا إذا وقّع (ياسر عرفات) اتفاقيّة مع عدوه (بيريز)؟ أهل مكة أدرى بشعابها، مع ذلك فإنّي أهزّ رأسي كأني مثله مجروح وغازب. للحق لا أحب الخوض في أحاديث السياسة بتاتاً، غالباً ما تهاجمني الكوابيس عند وقوع أحداث جسيمة، أرى الشهداء يجزّون جسدي المتعب من ياقة قميصي، وتتساقط قذائف الإسرائيليين فوق محليّ الذي صار (سوبر ماركت) ببركة الله، لا أحتاج إلى خطب عصماء من جاري السّمج توقظ مخاوفي، ولكنّي أقف صابراً أستمع بتأثّر كما يجدر بي، وإن لم أفهم لماذا يصبّ هذا المثقّف المنتفخ مثل بالون غضبه على عراب الاتفاقيّة الرئيس الأميركي الوسيم (كلينتون)، لن يقنّني أحد أنّ الرّجال الذين يتمتّعون بالوسامة -التي حرمت منها- يمكن أن يكونوا أشراراً. غضبه من أميركا يجعل أفكاره ملتبسة، يخلط الحابل بالنابل، عن نفسي، لا أرغب في فهم ما يتجاوز حدود عالمي، ولن أتقافز بين القارات والعواصم لربط الأحداث والمسببات، لكن عينيّ تتقافزان بلهفة وراء الأنثى على السلم الحديدي؛ أوووو.. كم نضجت.

يلتقط زوجها نظراتي المشتتة فيحاول استعادتها ملوّحاً بذراعه قبالة عيني: رأيت يا أستاذ عبد الجليل؟ أيّ مصيبة تحلّ بي؟ الناس يموتون وزوجتي المصون تحبل وتلد! قلت لها بكرنا ندى صارت على أعتاب الصّبا، «أه والله عمرها عشرة أعوام»، ثم إنّ الصّغيرة التي جاءتنا أول العام غلطة، نور ما زالت ترضع، لكنّها عادت وحبلت، غلطة ثالثة، العالم لا يستحق أن نمنحه الأطفال، العالم مقيت ومظلم، نترك الرضّيع في دار الحضّانة، ولدينا أشغالنا، وهي تعاود الحبل! هل تظنّ نفسها في سويسرا مثلاً؟

لا أظن أنّ في سويسرا مثل هذا الجمال البضّ الرّيان المدوّر. أيعقل أنّ هذا الثّقيل المزرج الذي يتحدّث عنها كما لو كانت بقرة مرضعة ضاجعها مرّات لتحبل ثمّ ها هو يتذمّر؟!

تخلّجني أفكار، فالرجل يتحدّث في أمور عظام وأنا أسترّق النظر إلى أنوثة امرأته الحبلى وبطنها يندفع أمامها، كنت أعاملها بأبويّة قبل عام، ماذا حدث لي، هل كبرت؟ خرّفت؟ أم أنّي ببساطة أتحمّس الجمال الذي فاتني؟

وسط حياتي الفقيرة من الجمال، كان عسيرًا تفهم هذا الشَّغف الفجائي الذي دفعني لرصد خطوات الجارة الشَّابَّة الحبلى، أنا الذي لا أرفع ناظري في وجوه النِّساء الجميلات اللواتي يدخلن متجري متبسّطات وقد ارتدين الثَّياب التي يلبسها في منازلهن، أنا الذي لم أفعل كما يفعل الرجال الذين يملكون المتاجر والشركات ويشغلون مناصب عليا أو يتمتعون بالنجومية والوسامة، لم أسلّ نفسي يومًا بالسكرتيرات والعشيقات العابرات، ولم أفعل ما يفعله الرجال الذين لا يملكون المال ولا الشباب والصحة، لم أحرص بالأطفال والصبيان والمتخلفين عقليًا والخادمات، لم أقم بأيّ مقارنات ظالمة بين زوجتي العادية وفاتنات السينما والمطربات الجميلات أو بطلات الرياضة الفتيات، لم أقع في الخطيئة التي تتعلق بالنساء بتاتًا. ولكني بكلّ ثقل وكأبة العمر وقعت في غرام جارتي واستعرت شهوتها في روعي.

لنرحل، قالتها زوجتي مرارًا، محتجّةً بجتياح البيت لأحلامها بروى مقبلة. كلما فاتتها صلاة الفجر تعلّت بشرّ يسكن البيت، أسحب الأباجور الخشبي للنافذة حتى نهايته مانعًا أيّ خيط من الضياء من التسلّل، فيغرق البيت في العتمة ويلتبس عليها الوقت مؤقتًا. وأعرف أنها ستجروّ على استضافة الضياء لساعة وتغيير هواء البيت عند خروجي وستعيد الوضع إلى ما كان عليه قبل عودتي.

لن أرحل من البيت القديم في الشميساني، ولو كلفني هذا اتّهامها بالجنون والوقوع أسيرة كوابيسها وهذيانها، أغلظ عليها وأتّهمها كذبًا أنها امرأة متطلبة تسعى للحاق بضواحي الأغنياء في عبدون ودير غبار، أعرف أنّ الأمر ليس كذلك، فقد زرعت معي شجرات الورد في حديقة البيت، وحملت معي في تزويج ولدنا في الشقة التي تعتلي شقّتنا، وبخّرت أثاثنا الفاخر من عيون الحساد قبل دعوة نساء العائلة والجارات والصديقات إلى صباحية يتفرجن فيها على التّشطيبات الفاخرة والسّيراميك في الأرضيات والجبس المزركش في الأسقف، قدّمت فيها التّبولة والمعجنات الشّهية المحشوة بالسّبانخ والجبنه واللحم، وقالب الكيك والأرز بالحليب المنكّه بماء الورد. اتهمتها بكراهية البيت رغم أنها فرحت به وزهت على الأهل والمعارف، واعتنت به مثل طفل، كانت قبل أن نحضر البنت السيرلانكية تغسل النوافذ الزجاجية بنفسها حتى تبدو كأنها ليست في مكانها، تشطف الأباجورات الخشبية وتليف الجدران بالصابون والماء ولا تسمح لذرات الغبار بالتراكم فوق كنباتنا وعلى الطاولات الخشبية أو الزخارف الدقيقة في خلفية السرير، تمتد حملتها في النظافة حتى الدرج المعدني، لن أعترف لها وسأظلّ أتّهمها لتتوقف عن محاولاتها في إقناعي بالرحيل، فقد ربطني

البيت بسرّه وعدّبي كما يعدّبها وإن اختلفت الأسباب والنتائج، أقبع فيه معدّبا منتظرا نظرة من جارتني، وتتعدّب هي بكوابيسها التي تراها إشارة إلهيّة يجدر بنا أن ننصاع لها.

صارعتُ الحياة لسنوات، تصرعني ولا أقع، حياة عاطلة من المتعة أو رجفة القلب، مسطّحة كما لو أنها لوح زجاجي بارد. ظننت أن التفاتي لتنمية عملي يحرك بركتي الأسنة، امتصت تجديدات السوبر ماركت رأس مالي، وظلت زوجتي تسمي متجري «الدكان»، فأذكّرها أنه (سوبر ماركت)، تهزّ رأسها بسذاجة قائلة: الكلمات الأعجمية حرام صريح.

أشياء كثيرة باتت حراما منذ التحقت زوجتي بجلسات دروس الدّين الصّباحيّة والمساءيّة، تغيّرت تفاصيل حياتنا وإن لم أهتم كثيرا فانشغالي بعملي وانشغال عيني بالجارة لم يترك لي الوقت لأناقش زوجتي كيف تغيّرت محتويات خزانها من الفساتين والجاكيتات البهية الأنيقة إلى الجلابيب الرمادية والسوداء.

أقف معافى مقتدرا في كل تحدّ وسط سوق قاسية، التجارة لا تعترف بالخسارة بالنسبة لرجل ولد تاجرا، تمثلت مأساتي في ولدي الوحيد وهو يتنقل بين المدارس مطرودا فاشلا، خاب أمني به وجنّ جنوني وأمّه تدافع عنه بحجج واهية معتقدة أنهم جننوا الولد وحاربوه، داعية ربها لينتقم له، كبر كريم وكبرت معه همومه، سرق دكاني مرة ومجوهرات أمه مرة، قاد سيارتي بسرعة جنونية وهشمها عند منحدر وادي صقرة، عثرت على زجاجات الويسكي التي يحتسيها مخبأة في أكياس القمامة السوداء، اختفى أياما عند أصدقاء مجهولين، أفزعنا صرر الحشيش تحت فرشة سريره، في كل يوم حكاية، كلما كُبر كُبرَتْ حكاياته. أصبّ الملامة عليها كأنه ولدها وحدها. وأعرف أنها تضمّر اتهامًا لي بسبب إهمالي وانصرافي لأمر الدنيا دون الدين، وفشلي في جرّه إلى الدّكان ليتعلم أصول التجارة رغم أنه الوريث الوحيد لهذا الخير الوفير. أتأفّف قليلا في سري، فأنا وزوجتي نتحمل ذنبه ولا نعترف، ويتسع الشرخ بيننا حتى أكاد لا أصدق أن القدر جمعنا في حياة واحدة.

حين اصطحبتني خالتي لخطبتها، لم أرفع ناظري عن حذائي، جلست مؤدبا في صالة بيت أهلها المؤنثة بطقم جلوس جديد استعدادا لاستقبال العريس، كانت خالتي جارة لهم، شبكة مذهلة من العلاقات النسائية تؤمن للفتيات القابعات في بيوتهنّ، مثلها، أزواجا طيبين مثلي، وكان النصيب. لم لا؟ أملك دكانا في منطقة لطيفة من عمّان وأستأجر بيتا من حجرتين، لم يعرف عني ما يشين، وقد

سمعت أمها تهمس في أذن خالتي: «البنّت زي القمر، بيضة ومربّبة، والله لو كنّا في القدس، لما رضيت أن أزوّجها إلا لشاب من بيت الحسيني، ولكن، لعن الله الاحتلال».

لم نكن في القدس التي باتت محتلة ولهذا رضي أهلها بتزويجها لعبد الجليل الدّكّنجي في عمان، سرعان ما توسّعت أعمالي بكدي وإخلاصي، وصرت مالكاً لبيت لا يقلّ عن بيت عائلتها، شبيه بزواجتي المربّبة، تقاربنا هدوءً ومزاجاً، وضجراً، وربما شكلاً. معاً استقبلنا ولدنا كريم بالفرح، وقلنا يعطينا الكريم أخاً له، لكن حكمة الله لم تتأ.

أرهقنا الولد المدلّ في تربيته، يربي الجيران نصف دسته من الأخوة بنجاح، بينما نلهث وراء ولد وحيد منفلت رافض للتعلّم، في التاسعة عشرة من عمره استسلمت لضياح الأمل في التحاقه بواحدة من الجامعات المحترمة، لعن الله الأحلام والمطامح التي تبزغ في غير مكانها وزمانها.

حان الأوان ليساعدني متعلّماً أصول التجارة، أتنازل عن أحلام انتماء عائلتنا عبر ولدي إلى فئة المتعلّمين من أرتال الأطباء والمهندسين والمحامين الذين تعج بهم البلاد، وأكتفي بالتحاقه بكاري، يبدو هذا منطقياً وعادلاً ومستساغاً للغاية، لعله كان الوضع الأمثل دائماً. تنازلت عن أحلامي طوعاً ووقف يساعدي في تجارتي. علّمني كيف أزيل الأحرف الصغيرة التي تبين تاريخ الصّلاحيّة وزمن الاستهلاك عن عبوات الأطعمة والمشروبات. صنع لي ختماً يدور على تواريخ أختارها وفق ما أريد، ولم يشترك مشترٍ أو يلحظ أحد، ذاك أهم ما أفدته من ولدي، حين ساعدني في ترتيب أمور السوبر ماركت ظننت أن زمان جنوحه وجنونه إلى إياب، سيصير تاجراً، يملك وسائله المذهلة، لص صغير مستتر، يفوقني خبرة في الغش، وفي التجارة لا بد من رذائل غير ملحوظة لا تطيح بالحياة ولا يمكن تصنيفها شراً شيطانياً. أحضر لي كريم الملصقات الصغيرة التي أعطي بها التواريخ المحفورة على علب المعلبات المعدنية، ملصق صغير يمدّ في عمر البضاعة ستة أشهر مثلاً، ستة أشهر لن يتضرر أحد، في الشتاء يمكن مدها إلى تسعة أشهر، وإذا ما انتبه أمين الصحة فإن مبلغاً من المال يسكته، يسمّي الناس هذا الفعل «رشوة»، ولكني أنظر له من زاوية مختلفة، كأنه صدقة، فالبلاد في حالة كساد اقتصادي ينذر بالخطر، وراتب الموظف الحكومي بالكاد يفي احتياجاته، لا بد أن ما أقدمه له يمثل صدقة حقيقية سأؤجر عليها، أفيد وأستفيد، ولا يتضرر أحد.

ثم إنَّ مَعَدَّ المواطنين وأمعاءهم ذات كفاءة عالية في التعامل مع الطعام، معد تعودت على الخضروات المهرمنة التي يقدمها لهم المزارعون البسطاء، الذين كانوا بسطاء، معد هضمت المجمدات المستوردة بكل الكيماويات الحافظة، تلك التي قدمها لهم السماسرة والمستوردون، لن يضرهم أن يبتاعوا علب المرتديلا التي طمس تاريخ صلاحيتها واستبدل، أو الأجبان التي تم غسلها من الطبقة الحمضية التي تكونت على وجهها، للتجارة قوانينها التي تتسامح مع فساد صغير يزوب في المستنقع الأكبر، فالحياة بمجملها فاسدة.

لفرط اعتقادي بأن الحياة استقامت لي في عملي وبيتي أوشكت بسذاجة وبقايا عاطفة على تسمية محلي «سوبر ماركت كريم» وإهدائه للولد الذي تاب، أحمد الله أني لم أفعل، وأن أشواكًا ظلت تنغص يقيني كي أصبر راصدًا تحولات الفتى، أو من أن هناك قوة رحمانية تحيطني بالعناية فلا أتعرض لضربة قاصمة، لم لا؟ لست شريرًا، صحيح أنني أتدبر أمر صلاحيات العلب المتبقية في محلي، ولكني لا أبيع اللحوم الفاسدة ولا المخدرات.

ثم جاءت الضربة قاسية؛ سرَق كريم خزنتي التي لم تكن محكمة الإغلاق لشراء المخدرات، سرقتني ببساطة كما لو أنني لست أباه. أخزاني وأنا أخضعه للعلاج من الإدمان، متى حدث ذلك؟ ولماذا؟ وهل كنت غائبًا إلى هذا الحد؟ وأين كانت أمه حين كنت منصرفًا إلى تطوير دكاني والوقوف في وجه أي منافسة تنزغ في طرف الشارع؟ اكتشفت غبائي وغيابي عن الناس والعالم حولي، مثل ولد غرّ رحت أسأل: متى بدأ الناس في الشوارع العمانيّة يعرفون المخدرات؟ ولماذا لم أسمع بالأمر قبل دخوله بيتي؟

توالت الصدمات وأنا أكابر، لم يؤت التقريع والغضب ثماره، خفت أن تخطفه المخدرات بعد شفائه، ثقل قلبي، ولم أحتمل حين انتحبت الخادمة السيرلانكيّة الهزيلة في حجرتها جامعة ثيابها للسفر. طردت فلذة كبدي من البيت رغم دموع أمه ورجائها. لملت ولميس فضيحتنا وحزننا مجبرين على ردم الشرخ العميق بيننا، وصارت الحياة أثقل وطأة وأكثر بشاعة.

لم تقع فضيحة بالمعنى الدقيق، لقد أجدنا إخفاء ما حدث، لم يعرف بنذالة الولد وتهجّمه على الخادمة إلا أنا وأمّه. رزحنا تحت مرارة العار، وصرت أجزّ قدمي محزونًا مكسورًا إلى العمل متظاهرًا بالرضا كما لو أني شيخ عجوز، لم أكن قلقًا مما سيحدث للولد بعيدًا عن البيت، تذرف

لميس دموعها مساءً منزوية في حجرة بعيدة بعد أن منعتها من لعب دور الثكلى ونهيتها عن البكاء في حضوري.

وهأنذا، كهل حسن السمعة، قاحل القلب، مسكون بالأحزان، هادئ تمامًا، لا أجد الشكوى، لا أشعر بحركة أو صدى يذكر في صدري، لا أجزع، لا أحزن ولا أغضب، ماتت مشاعري، كل شيء ساكن حتى هذه الظهيرة المجنونة، حين راحت الحبلى تصعد درج البيت بكامل خصبها وفنتتها، تحرّك قلبي، استيقظ الميت.

يخيم على عمان حزن رمادي ويسكن الملل بيتي، كأنه الموت، لكن الجارة تحدث زوبعة خاصة في فؤادي، شغلت بها تمامًا، سيطرت على نهاري وليلي بمشاهد منوعة، جميلة ورومانسية أو فاحشة مهلكة، منعتني الالتزام الذي تعودته وحافظت عليه لعقود في بيتي وتجارتي. أتنبّع كالمجنون خطواتها، أرقبها ذاهبة إلى عملها، ثم عائدة، أرصد في هجعة الليل أيّ حراك في بيتها، وأسبّ الستارة اللعينة التي لا تتحرك، أحضر الهدايا لابنتها وهي تعود من المدرسة كي تقول لأُمّها: «عمّو عبد الجليل أعطاني هذه اللعبة أو هذه الحلوى»، فتلوح لي بكفها من أعلى السلم راسمة ابتسامة قاتلة على شفثيها. يلتمع باطن ذراعها حينها مثل عود شجرة ورد صغيرة يؤرجحها النسيم، أتحمّل تردد زوجها على السوبر ماركت حاملاً المؤن متظاهراً بالتعفّف، ناسياً دفع الثمن. سرّني في خبث أنّ للرجل دناءات صغيرة متفرّقة، هذا يمنحني نقطة وينقصه طولاً وهيبة، كيف اختارت أن تكون امرأته، تمنحه جسدها الفتّي ويجعلها تحبل؟

تطوّعت في ليلة مجنونة لنقل الجارة وزوجها إلى المستشفى، أردت تسجيل شهامة لا أمتلكها، جلست أنتظر قلقاً مراقباً زوجها وهو يذرّع الممرّ متحدّثاً بما لا يليق بالحالة، رجل سقيم يصفق كفيه متعجباً مستنكراً مصافحة ياسر عرفات لرابيين في واشنطن، وهما متأثران بعد سماعهما أغنية عن السلام، يا سلام! كيف ينسى الرجل البارد المتفلسف زوجته الرقيقة الجميلة وجسدها ينشق لتمنحه ولدًا بينما هو منشغل بعرفات ورابيين؟ أو اصل هزّ رأسي كأنّي أوافق الرّأي، هزّة تخفي وراءها قلقي على المرأة التي تلد طفلها، تنفّست الصّعداء كأنّي الأب حين جاء الولد نادر، لا أحب هذا النادر، فقد أوجع جسدها الجميل الذي أعشق، لا يدرك مخلوق في الكون العواصف وهي تؤرجح روحي ثم تشطرها، أي عشق وحشي هاجم فؤادي وأمراضي؟

أربضُ في الحديقة رغم يقيني بأن النافذة لن تفتح، ولكن الباب ينشق لتخرج أكياس القمامة السوداء، تجرها الجميلة على السلم لإخراجها إلى الحاوية في الشارع. زوجها الكلب، الذي تنقصه الرجولة، هل يتركها تجر القمامة منصرفاً إلى صحيفته؟ أهرع لملاقاتها حتى منتصف السلم حالفاً ألف يمين أنني من سيجرّ القمامة، وتمطرني باعتذارات وشكر وعرفان.

مجنون تماماً، أدور في فلكها، أشعر بأنفاسها رغم الحواجز والجدران، لم يعد فؤادي يتراقص بين أضلعي إلا من أجلها.

تركت نادر يجرب ركبتيه الجديدتين ويحبو على نجيل العشب الأخضر الذي زرعت في حديقتي ممتداً حتى بداية السلم الذي يقود إلى حيث تسكن، ولو لم أكن خائفاً مما سيقال عني، لزرعت الورد في فتحات حديد السلم حتى سريرها، ولكني أكتفي بنادر يحبو ونور جالسة على عشبها كأنها دمية نسيها أحدهم هناك، أما هي فقد كانت الوردة التي أبهجت حديقتي، تشكرني كعادتها فأنتشى وأتظاهر بالتواضع، ثم ألتفتُ مثل جرو جبان قرّر في لحظة أن يتحول ذنباً، المكان خالٍ وليس حولنا إلا معزوفة الطبيعة ونار تضطرم بالحشا، جذبت خاصرتها نحوي فارتبكت، اتسعت حدقتا عينيها، ولم أمهلها لتفهم، هي أشياء لا ضرورة لفهمها، قبضت كفي الأخرى على نهدتها فتأوهت وجعاً، طرت لذة وأنا أطبق على شفثيها بفمي وأسنانني.. أفلتت مني إلى صغيريها، شملت كلّ منهما في ساعد، وانطلقت مفزوعة مسرعة نحو بيتها.

كانت هذه المرة الأولى، ثم صرت صياداً حقيقياً، أتابعها مثل فريسة مذعورة، ألاحقها في الزوايا، ومطلع السلم، وفي موعد دفع الإيجار، كنت أترك مهمة قبض الإيجار سابقاً للميس أو أتناولها بنفسني غاضباً بصري، ولكني منذ القبلّة الأولى لم أعد أطيق مرور فرصة دون شدّ شعرها بتحبّب والتهام وجنتيها وضغط نهدتها في كفي ومداعبة ظهرها النحيل ومؤخرتها الصلبة بأناملي، لا يردعني رجاؤها وأنيبها، أشكّ كلّ الرجال في جدّيّة رفض الأنثى وتمنّعها، ولا توقفني مخاوفها من ظهور الزوج أو الابنة الكبرى التي يمكن أن تعي ما يحدث.

لكني لا أتقدّم أكثر تاركاً إياها تفلت في النّهاية. مناورة مغامر خائف لا يجرؤ على إلقاء جسده في اليم تماماً، لعلني كنت مستمتعاً بعدم الوصول إلى نهاية الشوط، تكفيني المداعبات التي تخيفها، ولا أبذل جهداً لتخفيف روعها كأن أطمئنّها بأنّي لن أطردها وعائلتها من بيتي أبداً، لم يخرج وعد مثل هذا من فمي، خفت فقدانها إذا نمت شجاعتها وعالجت نقطة ضعفها، حرصت أن تظلّ

الضعيفة الخائفة، سيدة خيالاتي الجامحة، لأستكمل شوقي في أحلامي وطيفها في حضني ينتفض كما لو كان جسداً حياً.

يفجعني إقدامي على لعبة خطيرة كهذه، لعبة تشقّ حياتي الرّتيبة ببركان من عواطف وتصرفات ماحنة متوترة، ظننت وأنا أحبّها أنّي سأتحوّل إلى عاشق رومانسي، أو مجنون مثلاً، الرومانسية أقرب إلى طبيعتي المسالمة الهادئة، والجنون أمر لا حيلة لي فيه. ولكني في الواقع خارج هذا وذاك، استدعيْتُ هاتّين الحالين الجميلتين مراراً، لكنهما لم يظهرّا. يصعب على رجل الحسابات الذي يقضي نهاره بين أرقام الأرباح والخسائر أن يصير رومانسياً، كما لا يمكن له أن يستسلم للجنون، ولكني صرت ذنباً يتقدم خطوة ويتراجع خطوة، يستبقّيهما ولا يلتهمهما ولا يفلتها، ربما هذا ما أقوم به في التّجارة، فلست ناصعاً تماماً ولا شرّيراً تماماً، تمضي حياتي بحذر، في الواقع كنت أغشّها، مقنعاً إياها أنّي رجل قويّ، سلطة لا يمكن الإفلات من برائتها، فإذا ما تركتها سيكون هذا بإرادتي، ولعلّها صدقت، ما دامت الحياة تتعقد والحاجة ماسة إلى إبقاء سقف البيت فوق رؤوس أولادها وزوجها الهلام، ظلّت بحاجتي، بحاجة إلى إيجار البيت التافه القليل، تمدّه نحوي فأرفض أخذه بشهامة مصطنعة، وأمدّ يدي إلى خاصرتها، أضمتّها، فتستكين، توشك أحياناً على البكاء خوفاً، تمنحني الدّقائِق التي تشفيني ثم تتملّص مسرعة نحو بيتها والنّقود مضمومة في كفّها.

الغشّ ليس أمراً صعباً، ولكنّه بحساب. التاجر الشاطر وحده يعرف كيف يقيم الميزان، أتحرّش بجارتي ولكني أترك أمر الانتهاك الأكبر لزوجها البغل، أموت من الضّجر برفقة لميس ولا أستسيغ ملامسة جلدها الرخو ولا طعم طبيخها، أستسخر أفكارها ويسبب لي صوتها الهامس غثياناً، لكنّي أعطيها مصروفها بانتظام ولا أسيء إليها بكلمة بل أكون لطيفاً في معظم الوقت تكفيراً عما يفعل الذّنب بالجارة. لست رجلاً سيئاً أبداً، لا أعاقِر الخمر ولا أبيع لحم الخنزير في متجري، أصليّ أحياناً، وأصوم رمضان بثبات، وأعتق نوال من جنوني في الشهر الفضيل، وإن كنت أغشّ في تجارتي غشاً بسيطاً لا يؤذي أحداً.

أندهش وكأنّي لم أنتبه، وأقع حزيباً وأعاتب أقداري حين أرى وحيدي يدخل في حالة جديدة غامضة، لقد أتعب الفتى أعصابي على مدى سنوات، ولم أكن مستعداً لمثل هذه التحوّلات الدّراميّة العنيفة. تاب الفتى وأتاب؛ وذهب إلى أفغانستان. رافقته السّلامة.

لم يكبح جنوني خبرُ توبة ولدي وتغيّره ثم سفره، قطع كريم القارات ليصل إلى ديار بعيدة مجاهدًا، بات في نظر أمّه بطلًا تحدّث عنه الجارات بزهو وحكايات وهميّة، ومَرّت المخاوف في نفسي مرورًا هيّئًا بينما هناك دنيا جديدة تشغلني، مرّ السّؤال عابرًا، ماذا يفعل كريم في الجبال الأفغانيّة؟ وهل حقًا يقاتل فيقتل؟ وهل يعود؟ وإن عاد كيف ستكون الحياة؟

يذهب الأبناء إلى بلاد بعيدة ليحصلوا علمًا، أو يجدوا عملاً، هذا معقول، أفهمه مع أنّ ولدي الوحيد لا يليق بتلك المسوّغات فلا هو أهل للعلم، ولا محتاج للعمل؛ لكنه كعادته في العقوق وتسميم حياتي اختفى فجأة، ذهب يجاهد من أجل قضية لا تخصّني ولا تخصّه، وكانت قضية العرب على مرمى حجر، شهدت بنفسي شبابًا، أبناءً وآباءً يختفون أيضًا، لكنّهم يذهبون قريبًا إلى عواصم عربية، تفتح صدرها وتمنح رواتب مجزية أو تربّي ولاءات لها، وكنت أرى الأمر ببساطة أن من أراد الحرب فهي هنا، لا يحتاج المرء إلى بوصلة لمعرفة الطريق، عن نفسي لا أحبّ الحرب، ولا أريدها، ولكني أتفهم من ينادون بها حلاً وحيداً في عالم متغوّل، وإن لم أكن مستعدّاً لما تفعله الحرب بالناس، إنها تعطيل للحياة كما نعرفها، تدمير للأعمال وعرقلة للمراكب السائرة، وهي يد من أيدي عزرائيل، تقبض روح الأولاد، وقد تحلو لها رוחي التي لا ناقة لها ولا جمل، مع ذلك أعتقد بثقة كاملة: أن لا بأس بالحرب إذا اختارت الطريق إلى فلسطين. هناك من يعتقدون أن موقفي رخو هلامي مائع، فالحرب واجبة لتحرير الأرض، ربما لا يحق لي التنظير على حاملي السلاح المضخّين بأرواحهم ولا حتى على أصحاب القلم الذين يصنعون وعي الناس، ولا السياسيين الذين لا ينامون ليلهم بحثاً عن مخارج واحتيالات ممكنة، بينما أطمّر رأسي بين بضائعي في الدكان، أنا أقل خلق الله مساهمة، ولكني فهمت الأمر على نحو معقول، فهمت باحترام وإجلال أن هناك فئة قليلة تختار دروباً خطيرة وتتركني لعملي، حتى هؤلاء المناضلين القدامى تعبوا وذابوا في المجموع الذي يرعى في سهل الله الواسع، وصار الشباب حين يختفون، يذهبون إلى أفغانستان!

لم أكن أعرف الكثير عن أفغانستان، ربما نتف عن حروب محلية بعيدة، وصراع بين الشيوعية والرأسمالية، انتهى بترك السوفييت الأرض لأهلها وأمريكا، لا يعنيني تفسير ما حدث هناك، فلست بقادر على تفسير ما يحدث في الشارع المجاور لأربك عقلي بفهم ما يدور وراء البحار والجبال الغربية، انقسم الناس هناك طوائف وتيارات، كل وجد له راعياً، وحمل سلاحاً، أعجز عن التمييز بينهم، أنا حتى لا أجيد نسب العشائر الأردنية إلى مناطق نفوذها ومساقط الرؤوس، لا أعرف إلا بالصدفة عقائد الناس الذين أتعامل معهم، مسيحيين أو مسلمين، وانتماؤاتهم إلى قرى

بعيدة في شرق النهر أو غربه، كيف أفسر إذن احتقانات الطوائف الأفغانية ومصالحها وتعدد حالاتها؟ لذلك لا سبيل لي لفهم أي جهاد استدعى ولدي وقد انقضى الجهاد ضدّ كفّار الشيوعية، لا يسألني أحد ماذا يفعل ولدي هناك بالتحديد.

لم يعد هذا مهمًا، فالنار تاكل صدري، والحنين إلى لفظة من نوال يعيث الفوضى في أعصابي.

في الأيام العصيبة التي أمضتها زوجتي تنوح وتتلقط الأخبار الكاذبة حول مكان كريم، أشرعت في وجهي حجبا أكثر دمارًا من ذهاب ولدي إلى أفغانستان، تقول لميس أنّ الله يعاقبنا بولدنا لخطيئة خفيّة نرتكبها، وإن بركات الله ومحبته انتشلت ولدها من حياة مارقة ربّما إلى خير وفير، رابطة كلّ ما يحدث بكوابيسها التي لا تأتي جزافًا فالناس بعيدون عن ربهم، لا يرتادون بيته ولا يلتزمون بالصلاة له، والنساء عُدنّ إلى تبرجهنّ في الشوارع، وفتح الكفار متاجر الخمر جهارًا نهارًا. بتنا نستحق الغضب القادم.

حين بثّ مکتبنا، حائرًا، شرسًا، في أمسّ الحاجة إلى مغامراتي «البريئة»، ضربت نوال ضربتها القاتلة.

تعتقد نوال أنّ الله أنزل عقابه عليها وحدها لأنها لم تتمردّ على كفيّ وهي تجوس جسدها، تبكي وتذرف الدمع بغزارة حتّى يصير طعم قبلاتنا مالحًا، وتصدر آهاتها أنينا لا هو الخوف ولا المتعة ولا التمتع الكاذب، بل الوجع الحزين الذي يصدني، حتّى توسلاتها كانت صادقة تمامًا: أعتقني لوجه الله، حرام.. حرام.. لا أستطيع الاستمرار.

تخرج مع زوجها وقد حملا طفلتها نور تاركين الصّغير نادر برفقة شقيقته وراء باب الشّقة المغلق. يخرجان مفزوعين ويمرّان بي وكأنّهما لا يريانني، يختفيان لساعات ويعودان جريحين. منذ اكتشاف أنّ ابنتهما فقدت نظرها تمامًا، ونوال تلقي باللائمة على نفسها، لعلها امتنعت عن ملامتي طمعًا في استمرار معاملتي الطّيبة كمالك للشّقة لا يتقاضى عنها أجرًا.

صدّني عمى الصّغيرة وارتفع جدارًا بين كفيّ وخصر أمّها، تعمّقت كآبتي مثل ثور يخور مطعونًا، الغريب أنّ لميس ظنّت ما بي أثرًا من آثار فجيعتي بولدي، وأن نوال ظنّت ابتعادي نبلاً وتقديرًا لحالها؛ لكنّ هذا النّبل المتصوّر لم يدفعني يومًا لمرافقتها وزوجها إلى الطّبيب، كم اختلفت

عن ذلك الرجل الأرعن الذي خرج بالمرأة الحبلى لتلد ورافق زوجها في ردهة المشفى ممثلاً جسده بالأماني، متوقعاً المعجزات. بعد أن تبدد سحر المغامرة، وتبخّرت الأوهام بثُ أراهما يقفان لدقائق ملّوحين لسائق سيارة الأجرة كي ينقلهما إلى عيادة الطبيب، فإذا ما اختفى جسدهما داخل المركبة الصفراء أسدلت طرف الستارة التي ألتصص من ورائها.

أبدت لميس تعاطفاً مفاجئاً مع الزوجين، صارت أخبارهما تصلني عبرها، وهي التي كانت لا تطيقهما، تصنّف الرجل بالكبرة على خازوق، ولا ترتاح للمرأة، موظفة البنك التي تفتقر إلى اللياقة والأناقة، المسألة طبقيّة، ولميس خبيرة بالطبقات بمجرد النظر إلى أظافر المرأة وحذائها وحقيبتها، تلك تفاصيل لا يمكن تزويرها أو تشذيبها؛ لكنّها بعد عمى البنت تعاطفت وتحسّرت، شغلّتها مصيبة جيراننا عن مصيبتها بغياب ابنها، تتجمّع الدموع في مقلتيها وهي تسرد تفاصيل الفاجعة. طبيّةٌ هذه اللميس، لا خبرةً حقيقيّةً لها بالعالم المتوحّش.

أما أنا فسأتفادى ما بقي من عمري التّواصل مع الجارة، لن أتعبّها، وسأمنع عيني من افتراس مؤخّرتها اللطيفة وهي تمضي، سأكفّ أناملي عن حنينها وعربدتها، سأتصرّف كوغد قرّر النسيان، هذا ما عقدت العزم عليه ومضيت فيه، ألقيت بما مضى خلفي كأنّه الذكرى المخزية. قصرت قامتي قليلاً وانحنى ظهري، ولكنّي ما زلت تاجرّاً محترماً، قادراً على الجلوس وراء منضدة خصّصتها لأحسب فوقها الأرقام وأعدّل التواريخ، وأتصفّح منشورات الشركات التي تجيء بالبضائع الجديدة، أنتقي وأرفع ما عتق وأجيء بالجديد، أضيف إلى محلي محمصة قهوة صغيرة، وركناً للخضروات والفاكهة، ألاحق الصبيان في المحلّ للعناية المستمرة بنظافة البضائع، ومسح الأغبرة، فنحن محسوبون بقوة على عمان الغربية، حيث تزداد شكوك النسوة بالتّجار الصّغار، تشمّ الزّبونات شرائح المرتديلا وأوراق الدجاج المقطعة، كما يبجلقن بتمعّن في تاريخ الصّلاحيّة على العلب، بعضهن أصبحن يقدن سياراتهن مفضلات الدّهاب بعيداً إلى أطراف العاصمة حيث (المولات) التي يبتغنّ منها كلّ شيء، من الإبرة إلى الصاروخ. كلما انفضّ الزّبائن جدّدت ديكور السّوبر ماركت لاستعادتهم، وإن لم أتمكن بمقدرتي المالية على تحويل محلي إلى (مول)، فهناك حيتان ضخمة تبتلع الأخضر واليابس، وأنا رجل مُتعب، إلّا أنّ عليّ قضاء عمري أطارد أصحاب رؤوس الأموال الذين يبتدعون الخطط لتحطيم السوق والسيطرة على المستهلكين وسرقة اللقمة من أفواه أنصاف المقتدرين أمثالي، ينحسر الرفاه الاقتصادي تدريجياً، قد لا يرى الناس الاقتصاد بوضوح وهو يأكل نفسه؛ ولكنّي أشعره يتدهور ويستغيث ويتعثر، كلّما تقدّمت خطوة شدّني إلى

الـخلف خطوات؁ أدور في رـحى حرب حـقيقـيـة مـنتـبـهـا لـحمـى المـنافـسة الرّهيـبة؁ فالـعـالـم لا يـرحـم وأنا لا
أقوى على اـحـتمـال الأـرجـل الـتي سـتـدهـسـني لو سـهـوت للـحـظـة عن مـصـالـحي.. هـكـذا تـوجـب عليّ نـسيـان
مـغامـرات ولـدي في الجـبال البـعيدة وخطايـاي مع الجـارة القـابـعة فـوق رأسـي. أنـساهـما... أنـساهـما تـمـامـا.

الفصل الثاني

نور

صباح معتم يولد من مساء قاتم، عالمي على هذه الشاكلة، رغم تساقط نثرات الضياء أفواجاً وجيشاً من الأطياف، لا يمكنني رؤية أو وصف الإضاءات المبهجة وهي تخترق قشرة الكون الرهيفة مخففة بوهجها الغامض غلواء العتمة المتقهقرة، كما لا أعرف للعتمة انعكاساً ولا ثقلاً ولا ملمساً، يحيط بي أثير مخاتل، كأنه ميت.

ينساح الكون في وعيي بلا اسم ولا لون، عالمي فضاء من فراغ لا نهائي.

يستيقظ البيت، يعلن حفيف حذاء أمي المنزليّ بدء النهار، لا شك أنها تمط جسدها ساحبة أنشودة الأباجور الخشبي الثقيل في حجرة نوم نادر، تتصادم ألواح الخشب متلاصقة ببعضها البعض صاعدة إلى الأعلى، يتجاوز صوت طرطقتها الجدار الفاصل بين حجرتين واصلًا إلى سمعي. مؤكّد أنّ حزم ضوء صريحة تخترق فضاء الحجرة الساكن متسلطة على جفني نادر مباشرة، يدعكهما بتثاقل وغضب ويهمهم، يتدثر في لحافه ويفلته ثم يعيد شدة فوق رأسه، يرفس بقدميه وهي تهزه، كلّ حركة تصل إليّ حفيقًا، أنفاسًا وتأنفًا يחדش سكون الهواء، يمكنني رسم المشهد في ذهني، ينتفض معتدلًا في جلسته ملقيًا باللحاف، يصلني هفيف لحاف يرتفع في الهواء ثم يهبط متكورًا عند حافة سرير، لا بدّ أنّ أخي يحافظ على ملامح الغيظ والاستنكار التي تجعد جبينه وترمّ شفتيه، كلّ صباح معلنة أنه رجل صغير، وربما يهرش أنفه، ويحدق في ذرات غبار تسبح في شلالات الضوء المعلقة في الهواء. حين تتأكد أمي أنه استيقظ تمامًا، تتركه يستكمل طقوس الاستيقاظ متثاقلاً، وتلج حجرة البنات.

تتذكّر كلّ صباح أنّها لم تغلق الأباجور الخشبي في الليلة السابقة، كما تستدرك مُسوّغاتِها؛ لا حاجةً للعتمة القسرية هنا، فـ«ندى» تندس تحت اللحاف مانعة الضوء والصوت والهواء من اقتحام خلوتها الغنية بالأحلام، وإن نامت فإنها تتمتع بموهبة الغرق في النوم كمن يسقط في قعر بئر ميتاً ثم يطفو. موهوبة ندى بالنوم العميق حتى لو أضيئت كل مصابيح المنزل، لا ضرورة للأباجور في ليل شقيقتي ندى، أما أنا، فإن شلال الضوء النهاري لا يعني بالنسبة لي انقلاباً يومياً يلزمني بالاستيقاظ، لي أضوائي الخاصة التي لا ترتبط بدورة الزمن وانتقال الشمس من الشرق إلى الغرب.

تعاني أمي كلّ صباح وهي تجر ندى من مخبئها الدافئ الوثير، تتصايحان، وينتصر إصرار الأم وطقوس الحياة الصّباحيّة. يحدث هذا حولي وأنا أجلس مستوية في منتصف سريري أقلب وجهي بحبور في بهجة الضوء الذي غمر الحجرة، كأنّي خارج العراك اليوميّ كائن ذهبي يعوم في مجرّة. تتلبسني الدهشة كل يوم، وأشعر بحيرة أمي، أعرف السؤال الذي يخربش فضولها وهي تراني جالسة على هذا النحو، لا تجرؤ على النطق بسؤالها رحمة بعمامي: هل ترى نور مصبّات الضوء التي تخترق الحجرة أم أنّها تستمتع بالدّفء فقط؟

هذه أشياء لا أتحدث بشأنها، خفايا عزيزة غالية عندي، إدراكي للعالم حولي سرّي وحدي. أشعر بالضياء يخاتل فضاء الحجرة الفارغ بخيالات ضبابيّة، يلمع مثل رشّة ماء مفاجئة تتساقط قطراتها منعشة صادمة، وقد يمرق مثل خيط بارق عابر، وقبل أن ينطفئ في الفراغ الخالي من الألوان أدرك أن الضوء قد عم النهار ولم يَسْتَنْئني وإن عجزت عن وصفه. أمي وندى مخلوقتان تعستان محرومتان من هذا التوافق مع الكون، بينما تتعاركان لتبدأ طقوس الاستعداد للمدرسة أخرج هادئة دون مساعدة، أعدّ خطواتي من يمين السرير إلى الشرفة، البقعة الوحيدة في بيتنا التي تنفتح على الهواء والنور، أتبع رائحة الضوء وحرارته، ثم خطوتين إلى مقعدي في موقعه الثابت، لا بُدّ من ترك الأشياء التي أعرفها في موقعها الثابت حتّى يتسنى للجميع الاستراحة من مساعدتي على الحركة. أرخي جسدي هناك فيلامس الضوء بشرتي، يلاعبها في المساحات الصغيرة التي كشفتها منامتي الصّوفيّة، يمسح وجهي وكفيّ شتاءً، وفي الصيف الدافئ تفسح مناماتي للمزيد، أرفع ذراعيّ وربلة ساقيّ ليرتكز لهما على كرسيّ يقابلني، تتقدّم حرارة الضّوء خجلي فوق القماش، ومن ثمّ يتجاسر دفئها على اختراق النسيج وصولاً إلى اللحم مباشرة، تكتمل متعة معانقة الدفء، يرتعش جسدي وتبتهج روحي، أقيس الوقت المثالي لاكتفائي من الشمس الودودة، ثم أغادر الشرفة.

كلّفتني الكشف البريء عناء كبيرًا في طفولتي. أفصحت عن الومضات التي تداهم عمتي كوخزة دبوس مضيئة متوهجة في الفراغ المعتم، هنيهة في الصباح وأخرى في المساء ثم تنطفئ. فتجدد أمل والديّ، يحلمان عادة أحلامًا منفصلة، ولكنهما يجتزآن حلمًا واحدًا إذا تعلق الأمر بابتئهما الكفيفة. تنقلًا بي بين أطباء كثر، رغم ترددي المستمرّ على العيادات والمستشفيات لم أعتد جلسة الانتظار في ردهة الطبيب حيث تفوح رائحة النظافة الخانقة، تنقبض رئتي وأنا أبتلع الأثير الكيماوي الذي يطرد الهواء، فأوشك أن أتقيأ. وسط حومة من روائح مختلطة لعرق المنتظرين وفوح أحذية الممرضات البلاستيكية وعبق المطهرات الكيميائية الذي يتسرب من فتحة باب العيادة، يعنّي الفراغ المساحات بين المرضى الساكنين وجسد المساعدة وهي تتحرك مصاحبة كل مريض إلى دوره عبر باب آخر، لا أعرف إذا ما كان جانبيًا أم أنه يتوسط الجدار، ذلك أن خطوات تضطرب حين أسمع اسمي، ثم تقيّدني ذراع أبي وكفّ أمي وهما يعينانني على قطع الخطوات الحاسمة إلى كرسيّ الطّبيب. يحدث خلل طفيف في تلقي الإشارات من الكون المحيط بي، تضغط أمي بحنان مفتعل أناملي الصغيرة الباردة إلى حد مرعب، وإذا ما قربت رأسي نحوها في حركة عاطفية لفحتني أنفاسها الدافئة، ولامست الصهد الذي يتأجج في وجنتيها، كأنها قلقة مذعورة، ثم ونحن ندخل إلى حجرة الطبيب يقبض أبي بكفه الخشنة ذراعي يقودني، قبضة محايدة لا حرارة ولا برودة فيها، أما أجهزة الطبيب التي أسند ذقني وجبيني إليها فاتحة جفني على ظلمتهما المريعة فهي أجهزة صلبة باردة لا حياة فيها. صقيع حولي، والفراغ صامت ومخيف، إذا جر الطبيب مقعدًا حكّ بلاط الأرض وأرجف جسدي، هناك لعبوا بعينيّ، فتحوهما عنوة بأدوات صلبة لها لسع الثلج وحدة الحديد وملاسته، ثبتوا جفنيّ مفتوحين كي أحرق كاشفة أسرار عينيّ، صبوا في قاعيهما سوائل دبقه وأخرى حارقة لها طعم يتسرب من محجريهما إلى حلقي، ويتصعد قشعريرة في جمجمتي، زجوا رأسي في أجهزة تحاول اختراقه، جرّوني بإصرار في أروقة المشافي، مدّوني على أسرة ليست سريري، تفوح أغطيّتها بعرق قديم ومطهر، تختلط الأصوات والهمسات وتسّلل الممرضات بخطوات مريبة لا توقع صوتًا، بينما يلتقط سمعي تكتكة مفتاح الكهرباء وهم يطفئونه ويعيدونه. راودتني الآمال، ووقعت في أسر التمني مثل أسرتي. حاولت في عزليّتي مساعدة ذاكرتي على استحضار لحظات تجلّي الومضة المنيرة، أستدعي المشهد الغامض متوسلة، أسدل جفنيّ وأشدّهما بحزم كأنّي أحرض نظري على الإفصاح عن سره، أستعين بكفيّ لمنع أي طيف من التسلل من خارجهما إلى حدقة العين، ثم أركز مُقطّبة جيبني. حينها، وسط القتامة الواسعة إلى اليسار أرى

فجوة تنفتح، تفج بحجم رأس الدبوس وتتسع قليلاً، تتلألأ وتتحرك في مكانها في وجيب منتظم، يميع شكلها فتتفرش بلا حدود في كل الجهات ثم تتكمش مجدداً، تتضغط في قلب العتمة حتى تغيب، ممتعة تلك اللعبة ومرهقة، أوقن أن لا جدوى من مطاردة المشهد الغريب الذي أراه بحدسي لا بعيني، ما زلت في عمائي وما هذه الالتماعاات إلا هلوساات لا يمكن فهمها، صور صنعها في مناطق أخرى من عقلي لا علاقة لها بمهمة عيني المِعْطَلَّتَيْن، ولا بالمشهد المائل أمامي. عَذْبني هذا الشعور، ولا أُنْذَكِّر متى قرّرت الانسحاب ومغالبة الأمل الخادع والسّرّاب الوهمي، فارقت براءة طفولتي وصرت بنتاً كذّابة أقي نفسي كلّ هذه المعاناة.

يتنفس أبي حزيناً كمن أسقط في يده، تزفر أُمي بحشجة وانفعال، ولا يفوتني اهتزاز رأس الطبيب الذي يخلخل هواء الحجرة، ثم يُلْقِنَا يأس ثقيل.

أُكْذِب بكلّ ثبات، كنت خبيثة بما فيه الكفاية لأدّعي أنّ بصيص الضوء الذي كان يراودني والذي يبحثون عنه بإصرار غادر حياتي تماماً، انهارت أُمي ناحبة، وتقطّع صوت بكائها في نشيج يائس، كأني عميت للتو لا قبل سنوات.

تحرك والدي بعصبية متأففاً طالباً منها الكفّ عن بكائها البغيض، أظنّها قفزت وهي تصيح: كلّ ما يجري لنا بسبب غضب الله علينا، أفعالك الواطية، قلّة إيمانك التي جعلته يتخلّى عنّا.

ردّ ساخرًا: لمّى الإيمان الذي يتساقط من أطراف أناملك.

علا صوتها وانفلتت كلماتها: تقاريرك السوداء لحست مخك وطيرت البركة من البيت.

انخرطت في بكاء أستدعيه عادة لأوقف تطاير الشّتائم من حولي، نجحت في سنّ مبكرة في السيطرة على لحظة الانفجار المرتقبة في بيتنا، سيسامحني الله على خبثي وكذبي، فكلّ ما كنت أرجوه أن يسود السكون فراغ الحجرة المضطربة ليتسنّى لي الانسحاب بهدوء المعهود إلى حجرتي تاركة ورائي وحشين جريحين يتربصان ببعضهما بعضاً صامتين. أشفق عليهما ويؤنبي ضميري على ما أفعل، خذلتها وكبحت حماسهما لتتوقف محاولات العلاج. ظلّ أبواي لعام كامل يسألانني: هل عاد خيط الضوء، ولا نقطة؟ وأهزّ رأسي نافية، إلى أن توقفا عن سؤالني، ولكن ندى ترصدني بفضول، أشعر بنظراتها تحاصر وجهي كما لو كانت صهداً وأنا جالسة في سريري أبتمسم

بهدهوء محدّقة في لا شيء، كأنها ضبطتني متلبّسة، تسألني متشكّكة: هل عاد الضّوء؟ هل ترينه مجدّداً؟

أواصل الإنكار، لن أطيق مشاوير جديدة إلى عيادات الأطباء، أحنُّ إلى التّنعّم بجلسة رائقة على طاولة الطعام مع عائلتي، فليس من جلسات تجمعنا إذا لم يكن هناك طبق ساخن يفوح برائحة شهية.

أسمع صوت أُمي من الداخل، لهجتها المتهورة غاضبة ساخرة وهي تعلق على الغلاء:

- طار الراتب، قال طبقة وسطى قال! لولا العيب لوقفنا كلّنا نشد عند إشارات المرور!

نفخت المبالغة كلماتها حتى حدود السقف، ثم زفرت تنفّس بالون مبالغتها، هذه عادتھا حين لا يعجبها شيء ما، تنفخ وتدور الكلمات في فمها وتلقي بها جُزافاً، ثم تزفر وتتأفّف وينتهي كل شيء. أقبلتُ من الممر الذي يربط المطبخ بصالة الجلوس، وعلمتُ أنها تحمل طبق الغداء الرئيسي بين كفيها، ندى تسأل بهيل: ماذا طبختِ اليوم؟

أميز رائحة الدجاج المتبل بالبهار تفوح منتشرة في الحجرة.

تتضاءل آثار كلمات أُمي، لكن قلبي لا يتوقف عن الخفقان، لم تخذعني رائحة الدجاج الشهية للطبق الذي توسط المائدة. أعرف أننا نأكل كما كل الناس، لا نشتهي شح الطعام على المائدة، لكننا طبقة وسطى، وإذا تسولت عائلتي عند إشارات المرور فمن الأولى أن تكون الكفيفة أوّلهم. تواصل العائلة التهام الطعام بنهم كالعادة وأنا أرتجف، دون أن يلاحظ أحدهم أنني لم أضع لقمة في فمي.

هربت من الأجواء المأساويّة، حارمةً عائلتي من متعتها الحزينة ومسرحيات العواطف المبتذلة، لم يعد هناك سبب يقتادونني لأجله إلى عيادة الطبيب ومشارط الجراحين. حلّ بهم الاستسلام النهائي. فقادوني إلى معهد يعلمني القراءة والكتابة بتحسّس أحرف (بريل)، ارتضوا واعترفوا بأنّي لن أقرأ يوماً كما يقرأ بقية البشر.

ألحقتني أُمي بمعهد قريب لتعلم طرائق القراءة والكتابة للمكفوفين، من حسن حظها أن ذهابي إلى المعهد لم يكن بحاجة إلى قطع طريق أو اختراق مبنى، بدت الطريق إليه كأنها صممت لحالتي وحدي، مع ذلك ارتبكت خطواتي في البداية.

تجرّني ندى بعصبيّة، تترك ذراعي رغم توصيات أمي، فأتحسّس دربي كأنها ليست معي. قد يتقدمني نادر متأفّفًا وهو يتّهمني بتعطيله عن مدرسته، بات بامكاني عدّ العقبات في الشارع، أدرك أنها أمامي قبل أن يقع نظر شقيقتي عليها، أعرف موقع الحفر الصغيرة والنقوش الحجرية على الدرب، وتوزيع أعمدة الكهرباء على الرصيف الضيق، أتعمد ملاستها كل مرة كأني أمني نفسي دليلًا على حسن تقديري ودقتي. ألعب اللعبة وحدي كأن أحدًا لا يرافقني. انتقلت مهمة اصطحابي إلى أبي وقد تخفف من عمله، في تلك الآونة اكتشف أبي أنني أعرف طريقي دون معونة، قدرة على إبطاء خطواتي إذا ما اقتربنا من حفرة أو تكتل حجري على الرصيف، رافقني لأيام، سائرًا قربي ثم راح يتبعني موسعًا المسافة بيننا متحيّنًا الفرصة للفكاك من الواجب الثقيل، وأخيرًا تركتني العائلة كلّها أمضي في طريقي وحدي بكل ثقة.

للحق تُركت لمتعة الإحساس بالكون، أتتبع إيقاع السائرين مسرعين أو متمهلين، حشجة محركات السيارات وهي تمر على الطريق المحاذي للمشى، احتكاك المكابح بأسفلت الشارع، نعومة فراء قطة مشردة تتمسح بقدمي ثم تبتعد، شجرة تُحَيِّنِي بأمطار ورقها المتساقط على كتفي، أو غصن منفلت يخربش خدي، خطوات مضطربة مترددة لمشاة فطنوا إلى أن فتاة كيفية تسير بجوارهم فتوقفوا أو تمهلوا أو انزاحوا، صباح الخير يقولها حارس المعهد، ثم الخطوات المشحونة بالخوف لزملاء المعهد الذين يتلمسون الجدران ويستندون على أكتاف بعضهم بعضًا ليصلوا إلى صفوفهم. صوت الأستاذ أيسر كأنه قادم من قلب الغناء، ثم في حركة دائرية أسمع جرس إغلاق المعهد وأخرج من بوابته في ذات الطريق عائدة إلى البيت، أعاود جلستي الأثيرة في الشرفة مع تقدم النهار. يبرد الضوء عصرًا وينسحب هادئًا حتى لا يقوى على عناقي، تتكثف العتمة في كتل متجاورة عميقة غائرة لا يخالها ضباب، ويخيم الليل ساكنًا مخليًا فضاء الكون لخيالاتي. في جلستي التي تمتد لساعات ليلاً، يلمس النسيم وجنتي، ويشرخ السكون دوران عجلات سيارة تهرس أسفلت الشارع الجانبي، مُحَتَكَّةً بالرّصيف، تشحطه ويعلو صرير مكابحها وقد تمضي متجاوزة الحيّ بنزق. يجعر كلب ضالّ، أو يموء قطّ، مُتَحَمِّسًا باحثًا عن لذّته. فجأة، أقتنص ضوءًا غامضًا لا حرارة فيه، مجرّد وميض لامع ينخر قلب اللوحة الغامقة كما شكّة دبّوس، ويختفي، هي نجومات السماء البعيدة، يراها الناس بوضوح، وأحسّها بعمق، يرونها بنواظرهم، وأعرفها بروحي.

تبذل أمي جهدًا لترتيب حاجياتي وفق نظام يساعدي على قضاء حوائجي بنفسي، ملابسي مطوية في رفّ محدّد في الخزانة، البنطلون والسترة المناسبة له معًا في الزاوية، أعتقد أنها تقصد

بالمناسبة تناسق الألوان التي لا أراها، أي أنها مناسبة لأعين الآخرين، لا تصدم ذائقتهم باختيارات حمقاء لفتاة عمياء، أحذيتي القليلة، حذاء صيفي وآخر شتوي، وبوط رياضي أفضله في قاع الخزانة، أرتدي ما يوافق الموسم والمكان الذي أقصده، في واقع الأمر ليست هناك أمكنة كثيرة. أعرف موقع مشطي والمطاطة التي أربط بها شعري، كما أعرف موقع الصابونة والشامبو في الحمام والمناشف في الرف العلوي، خلف باب الحمام، ومعجون وفرشاة الأسنان في كأس مخصص لي. الغريب أن ندى حين تتعارك مع أمي حول أشياء تافهة لا تستحق الحدة، تتعمد نقل حاجياتي من مكانها، وتقف متفجرة وأنا أتحمس بارتباك مواضع الأغراض دون جدوى، أسمع ضحكة شريرة مكتومة فأفهم لعبتها، أستغني عن حاجتي لذلك الغرض دون افتعال مشكلة أخرى تستدعي تدخل أمي.

في المعهد الذي تسميه أمي مدرسة كي تُداري انزعاجها من اختلافي نقف في صفوف معوجة. تقوم معلمة النشاط بضبطنا وتقويمنا بدفعنا بلطف من الأكتاف والسواعد، ويقول أستاذ القراءة أيسر: «لا تدفعيهن، لن يضرّ كيف وقفن».

صوته رائق مثل تدفق ماء من دورق إلى كأس، أثمل قليلاً ثم أمدّ ذراعي وأضع كفي على كتف رفيقتي التي أمامي، وأشعر بكفّ من تقف ورائي تحطّ على كتفي، نسير نحو فصولنا. البنات يصغرنني بأعوام قضيتها بعيدة عن المعهد بحثاً عن أمل الإبصار. قاماتهنّ أقصر من قامتي، لذا أمدّ ذراعي منخفضة إلى الأسفل، وتعلّق من ورائي ذراعها إلى الأعلى، الأولاد في الطابور المقابل أيضاً يصغرونني، صيحاتهم الطفولية لم تخشوشن بعد، نسير أولاً ثم يسيرون، نتوزع على الصفوف، ندخل الحجر متحسّسات الجدران، أعدّ خطواتي إلى كرسيّ وطاولة خُصّصت لي، أضع حقيبتني أرضاً وأرهف سمعي لوقع خطاه، أنتظر صوت الأستاذ أيسر: - البصيرة ترى أنصع وأجمل من البصر.

يتمتع بالبصر والبصيرة، وكنا كفيفاته الصغيرات اللواتي يستمع إلى آلامنا. أسمعهم يتهامسون.

- سبحان من صور هذا الجمال، يا حرام، الحلو لا يكمل.

هل أنا جميلة إلى حدّ أن يعاتبوا الإله على عماي؟ وما هو الجمال؟ لون بشرتي مثلاً؟ هل أنا سمراء أم حمراء أم خضراء؟ كيف تكون هذه الألوان على جلد البشر؟ وهل تبدو عيناى الكيفتان جميلتين؟ هل تسيان بسر عجزهما عن الرؤية فتبدوان جهازين معطلين أكثر تبلّداً تجاه الكون أم أنهما تخدعان الناظرين ككلّ عيين سليميتين؟ وهل أنفى متورم في منتصف وجهي أم أنّه لطيف يفي بحاجة الشم؟ وكيف أعرف؟ فأنا لم أتحسّس غير وجهي، كيف لي أن أعرف بالقياس إلى الآخرين إن كانت مقاييسي مثالية تتناغم مع مفهوم الجمال؟ ما دمت أحجل من لمس وجه أمي، وتردني ندى، نفورةً عن لمس وجهها، وبالكاد أعرف ملمس أصابع كفّ أبي، لن يتأتّى لي تقدير نسبة ما ينطوي عليه وجهي من قبّح أو جمال. حتى تلك المسطحة الباردة الملساء التي نصبتها ندى فوق الكميدينو الخشبية في الحجرة وأسرتها مرآة لن تتمكّن يوماً من إخباري شيئاً عن ملامح وجهي، لن أرى عيني في انعكاساتها، ولن يتسنى لي وضع لمسات من المكياج وأنا أقف ناظرة إليها، لن أطبق تخضيب وجهي بذلك الملمس لزج القوام الذي فردته ندى على وجنتي في تكرم قلّما تجود به، ربتت على وجهي ملاحقة أنفى وجبيني بقطعة إسفنج، سدّت مسامي كتل عطرة الرائحة، ثم بفرشاة كثة صغيرة ذرّت مسحوقاً ناعماً، قالت إنّه يلوّن وجنتي. هل لوني قبيح بحيث أحتاج إلى تبديله بلون جديد من إسفنجة رطبة وفرشاة معبأة بما يشبه التراب الناعم؟ جلست إلى الكرسي الذي يقابل المرأة ممثلة لنزوة ندى في تزييني ونحن نتجهز للذهاب إلى عرس أحد أولاد الخال الذين لا أتذكّر أننا زرناهم أو زارونا.

زوّرت شقيقتي هينتي كما يحلو لها، ضربت فرشاتها وجهي بلوم، لعقت شفتي، بحثاً عن مذاق أحمر الشفاه، فصرخت مستكثرةً وأعادت تلطيخ الشفتين بدقّة وأناة، ضغطت جفني ومرّرت قلّماً فوقهما ورحت أرمش مذعورة من جرح قد يحدث وهي ترسم عينيّ الكيفيتين بالكحل، قالت: إنّ خط رفيع يحدد عيني باللون الأسود. ولا أعرف كيف يكون اللون فوق جفني أو في الأشياء، لكنّه قطعاً ليس الأسود الذي يلوّن كوني الخاصّ وأراه بوضوح مذهل.

أطلق أبي صيحة ترحيب وإعجاب وأنا أدخل حجرة الجلوس متلمّسة الحائط، حركة كنت قد أقلعت عنها تماماً داخل البيت الذي أجيد التّحرّك بين جدران كائني أراه، لكن الزينة في وجهي خلّخت توازني فاستعنت بكفي مرتكزة إلى الحائط كي لا أميد، وزاد أبي بقوله: طلّة مثل أميرة.

مثل أميرة! كيف تكون طلة الأميرة؟ وهل تحتل الأميرات المساحيق التي تلتصق بوجنتي والزوجة في شفتي؟ لعلّ ترميم المكياج أخفى هيئتي البائسة، وهل هيئتي حقًا بائسة؟ أليست الضريرة العمياء الكفيفة؟ جَمَعَ من المُسمّيات ليس بينها الأميرة! أم أن كلمات أبي مجرد مجاملة عابرة لا تعني شيئًا كمعظم ما يقول؟ قررت يومها أن لا أعاود التجربة، فقد شعرت بالاختناق وارتبكت خطواتي، ثقلت، ولم يتنفس وجهي كما يجب.

فضاء المعهد ملبد بالحنن، أصوات خجولة تخرج من حناجر مشروخة. حالات غاضبة تحرك أجسادها بعصبية، وأخرى تنفث حولها كراهية مقبّية في شجارات متكررة، وهناك ضعف صامت وتسلط معلن يتصارعان، انكسار وأمل يمتزجان، وأنا في هذا الموج الحائر أستأنس بخيالاتي.

- لكنك ترين تلك الأضواء؟ هل ما زلت ترينها؟

لم أتوقّع أن يسألني الأستاذ أيسر عن مشاهداتي العابرة، ندمت لبوحي بسرّي الصغير الذي أخفيته عن عائلتي، لماذا يعيث الفوضى في قراراتي المبكرة؟
أجبتّه كاذبة: كلاً.. لم أعد أراها.

يمسك الأستاذ أيسر بأناملي بثقة. حرارة كفّه معتدلة ولمس بشرته يخالف خشونة أبي ونعومة أمي، وسطي معقول برائحة زكية، يدرّب أصابعي على تحسس الحروف النافرة على الورق.

حروف بريل ليست ككلّ الحروف، لا أعرف لماذا تخيلت حين التحقت بالمعهد أن حروف بريل المحفورة في الورق هي نفس الحروف التي تراها شقيقتي في كتابها المدرسي، لكن الأستاذ أيسر يأخذني في رحلة مغايرة تمامًا. حروفي نقاط خشنة بارزة تصطفّ في خانات، النقطة الواحدة حرف الألف، واحد إضافة إلى اثنين حرف الباء وهكذا في منظومة غريبة ننتهي إلى أن نقرأ أسماءنا وأسماء الأشياء ثم عبارات راقصة من قصائد طفولية وأشعار وكلمات في مديح العلم الذي لم أتحمسه أبدًا رغم أنّي أحبيّه كل صباح مرفوعًا على سارية لا أراها ولا أراه، قد أقرأ مديحًا في الشجرة التي أتحمسها في حديقة جارنا أو طريق المدرسة، قد أقرأ وصفًا لعصفور لم ألمسه إلا في أنموذج بلاستيكي، وقد أتغنّى بالبحر الذي لا يمكنني قياسه ولا تحديد لونه ولم يلامس ماءه قدمي

العاريتين بتأتًا. ينقل الأستاذ أيسر أناملي فوق النقاط البارزة على عمودين، متحرّكًا بي من اليسار إلى اليمين، فيما يشبه نغمة حرّة أو رقصة ممتعة، ترتخي كفيّ في كفّه كأني أستمتع.

تقول ندى أنّها تقرأ حروفها المرسومة في خطوط من اليمين إلى اليسار، هذا لا يهّم، فهي تقرأ بنظر عينيها، ثم تتركب الكلمات على الأشكال التي تعرفها، وأنا أقرأ بما يخدش جلد أناملي الناعم تحت إصبعي السبابة والوسطى، وبصور تتشكّل في ذهني أطيافًا وأشكالًا لا أعرف مدى شبهها بالواقع، فهل القطّة التي رأيتها مخيلتي هي ذات القطّة التي عبرت الشارع؟ أم أن لكل امرئ قطّته؟ في بدايتي ظننت أنني سأكتفي بما تحسه أصابع كفي اليمين لكنّ أستاذي حرّضني على تنمية مهارتي وإشراك سبابة كفي اليسرى في رحلة التلمس للكلمات المنقطة، لم أطمح إلى قراءة الجرائد التي يتركها أبي على المنضدة؛ إذ لم يفكر أحد أن يدونها حروفًا ناتئة، وكنت شاكرة لشقيقتي وهي تقرأ أناشيد من كتابها المدرسي بصوت مرتفع، لم أعول كثيرًا على تعلّم القراءة ولم أتحمّس لمواصلة التعلّم حتّى مرحلة الكتابة، لكنّي أعترف أنّ القراءة منحنتي مشاعر سرّيّة تتعلّق بتلك المسافة التي لا يمكن السيطرة عليها بين جسدي وجسد الأستاذ، وحده من تمنّيت تلمّس ملامح وجهه لقياس نسبة الجمال، ولم أفعل.

الأوراق القليلة التي أتيحت في المدرسة فتحت لنا عالمًا سحريًا، ليس كمن يرى العالم بوجوه متعددة، ولكن كممارسة تقتل الوقت وتحيي الفؤاد وتستعير عيون الخيال، وتطمئنني بقدرتي على التلّهي الجادّ بشيء بين يديّ والبيت يمور في ضجيجهِ اليوميّ المعتاد: أصوات الممثلين في مسلسل تلفزيونيّ، زعيق أبواق السيارات القادمة من تحت الشرفة عبر الشارع، طريقة الصحون التي تغسلها أُمّي في المطبخ، وشيش انهمار شلال الشاي من الإبريق إلى الفجان، معزوفة مختلطة تتكرّر يوميًا حتى الملل، لكنّي قادرة على استدعاء تجاربي الحسيّة إلى قلب الروح، فكما أضع إصبعي في سطح الماء لأتحسّس انزياحه الطّيف وموجه يحيط بأصبعي دوائرًا، أستدعي الأستاذ أيسر ليمتلئ به الأثير، وألمسه فتتحرك الدوائر حولي وأنتشي، تتسلّل رائحته إلى خاطري في رحلة متعة عذبة، يصير كأنّه في حجرتي جالس إلى جانبي في ذات السرير، تغاير رائحته روائح الرجال الذين اقتربت منهم، ليست حامضة كرائحة أبي ولا حاذقة كتلك التي تنبعث من عنق الطبيب، ولا مغبرة عطنة كرائحة نادر وهو يعود من لعب الكرة في الشارع، ولا تشبه عبق الخيار المنبعث من جارنا عبد الجليل، أمر مختلف، منعش ولطيف ينتشر كما لو أن شجرة تهتز في الريح، أخجل من تفكيرني في الأستاذ الشاب الذي يتحدث بسعادة عن اقتراب موعد زفافه، من هي

المحظوظة التي ستنام في تلافيف الشجرة العطرة؟ يقول إنه سيدعوني وعائلتي إلى زفافه وأنا لا أريد الذهاب إلى حيث تصطحب امرأة غريبة شجرتي العطرة وتمضي. واخجلي! ماذا سيظن بي لو أمسك بأفكاري الخفية؟ أيُّ روح شريرة تتلبس طفولتي لأفكر برجل مبصر يربت على كتفي بحنان ويقول عني: طفلة ذكية.

لم أعد طفلة، حين راحت ندى تصف لي بمتعة شريرة منظر الدماء على فستان العروس ومفارش طاولات العرس الذي فجّره إرهابيون في قلب عمّان، كنت في الحادية عشرة من عمري، أفهم معنى أن ينزف جسد بشري حتّى الموت، وأختنق من أخبار الحروب والمجاعات والناس الذين يتعاركون رغم أنّ في أعينهم بصراً. مع ذلك نzf جسدي ككلّ أجساد النساء.

حدّقت في فراغ الحجرة أغلب قلّفاً لا مُسوَّعَ له، ربّما لفرط الوجد الذي أحسسته في مفاصل فخذي، والدبيب الذي سرى ألباً على طول سلسلتي الفقرية، يربض على صدري حزن وغضب، رغبة في البكاء، لكنّي اعتدلت في سريري كعادتي، كانت أمي قد دلفت إلى الحجرة ورفعت الغطاء عنوةً عن جسد شقيقتي الكسول، وفتحت النافذة وألقت بكلماتها المعتادة عن ضرورة الاستيقاظ مبكراً ثم خرجت، تمطّأت أختي دافعة الوسادة نحوي وهي تلعن اليقظة الصّباحية، ثم شهقت فجأة وأتبعته شهقتها بصمت لوهلة وقفزت من السرير مهولةً خارجةً تنادي أمي بصوت مرتبك كما لو أنّ مصيبةً حلّت. سمعت صوت خطوات أمي راجعةً إلى الحجرة تدبّ بسرعة بحذاءها البلاستيكي، يتبعها خطو شقيقتي الحافية، تقدّمت أمي وتأخّرت شقيقتي، وبلا تردّد رفعت أمي اللحاف عني، فتحركّ الهواء الساكن وخمد في ثانية، أمسكتني من كتفي وأزاحتني جانباً دفعة واحدة، وشهقت أيضاً، تحوّل الوجد من سريان رفيع على طول ظهري إلى فجوة في أسفل الظهر دفعتني للصّراخ بأه طويلة ممطوطة، لكنّ أمي لم تنشغل بوجعي بل بهذا السائل الدبق، الذي اندلق من أسفلي إلى منامتي ملوّثاً السرير. دمدمت مرتبكة: قومي.. إلى الحمام.. قومي.

قمت متعنّرة أعلم أنّ أمراً فادحاً حلّ بي، ربّما هاجمتني الشياطين ليلاً وفتحت فجوة في أسفلي، إنّهُ دمٌ دبق لزج جعلني أسير إلى الحمام عرجاء متعنّرة باكية، هتفت بتمتمة مخنوقة: لم أفعل شيئاً..

- طيّب.. طيّب.. اغسلي الدم الآن.

اتَّسَعَت سَبْخَةُ الدَّمِّ بَيْنَ فَخْذَيَّ، قِيلَ لِي أَنَّ الدَّمَ أَحْمَرُ. الْآنَ عَرَفْتُ مَا هُوَ الْأَحْمَرُ، لَوْنُ دَبَقٍ دَافِئٍ، ذَنْبٌ اقْتَرَفَهُ أَحَدُهُمْ، خَطِيئَةٌ تَنْسَرِبُ بَيْنَ فَخْذَيَّ، هَلْ يَكُونُ لَوْنُهَا مُشَابِهًا لِلْوَرْدِ الْأَحْمَرِ الْأَمْلَسِ الْمُخْمَلِيِّ ذُو الرَّائِحَةِ الشَّدِيَّةِ؟ أَمْ أَنَّهُ أَحْمَرُ مُغَايِرٍ؟

مَنْعَنِي الْأَحْمَرُ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى الْمَعْهَدِ يَوْمَهَا، وَرَاحَتْ أُمِّي تَعَلِّمُنِي دَسَّ الْفُوطِ فِي لِبَاسِي، وَتَهْذِي مُحَدَّرَةً مِنْ أَنْ يَضْحَكَ أَحَدٌ عَلَيَّ!

مَرَّتْ أَيَّامٌ خَمْسَةٌ فِي وَجَعٍ وَخَوْفٍ وَخَجَلٍ، أَنْوَحُ وَلَا أَتَحَدَّثُ، شَقِيقَتِي أَيْضًا صَامِتَةٌ، فَقَدْ هَاجَمَهَا الْغُولُ الدَّبِقُ الدَافِئُ مِنْذُ أَعَوَامٍ كَمَا يَهَاجِمُنِي. جَاءَتْ مَمْرُضَةٌ شَابَةٌ وَأَدْخَلَتْ إِبْرَتَهَا فِي جَسَدِي، فَاسْتَرَحَتْ قَلِيلًا مِنْ أَلْمِي. الْجَرَحُ الَّذِي أَسَالُ الدَّمَ أَسْفَلَ جَسَدِي سَرُّنَا نَحْنُ النِّسَاءُ وَحَدْنَا، وَلَفَرْتُ مَا حَنَنْتُ عَلَيَّ أُمِّي وَأَحَاطَتْنِي أَسْعِدَتْنِي حَالَتِي، خَفْتُ أَنْ تَحْرِمُنِي تَعَاطُفِهَا وَرِعَايَتِهَا إِذَا مَا انْتَهَى الْأَمْرُ، وَنَمْتُ مَخَافٍ جَدِيدَةٍ فِي نَفْسِي، كَيْفَ أَتَدَبَّرُ شُؤُونِي مَعَ الْبَحِيرَةِ الَّتِي لَا أَسْتَطِيعُ تَقْدِيرَ مَدَى انْتِشَارِهَا لَوْلَا أَنَّ أُمِّي تَتَكَفَّلُ بِتَغْيِيرِ الشَّرَاشِفِ وَاللِّبَاسَاتِ وَالْمَنَامَاتِ الَّتِي تَبْقَعُ. هُنَاكَ أَشْيَاءُ جَدِيدَةٌ لَا أَسْتَطِيعُ التَّعَامُلَ مَعَهَا وَتَذَكَّرُنِي بِخَسَاسَةِ أَنَّنِي عَمِيَاءُ. يَصِيبُنِي خَجَلٌ وَخَزْيٌ، مَاذَا لَوْ كَانَ أَبِي وَشَقِيقِي نَادِرٌ يَعْلَمَانِ بِمَا يَحْدُثُ بَيْنَ فَخْذَيَّ؟ تَوَارَيْتُ فِي حَجْرَتِي خَمْسَةَ أَيَّامٍ إِلَى أَنْ عَادَ جَسَدِي عَفِيًّا وَادِعًا مُحَايِدًا.

عَدْتُ إِلَى الْمَعْهَدِ عَلَى قَلْقٍ، أَقْرَأُ فِي كِتَابِ بَرِيلٍ، وَأَتَتَبَّعُ أَصَابِعَ الْأُسْتَاذِ الطَّوِيلَةِ الذَّكِيَّةِ الْعَارِفَةِ، قَرَّرْتُ أَنَّ مَا حَدَثَ كَابُوسٌ يَجْدُرُ بِي الْاسْتِيقَاضُ مِنْهُ وَتَنَاسِيهِ، لَكِنَّ حَيْضِي قَهَرَ طُفُولَتِي وَأَوْقَفَنِي عَلَى تَخَوُّمِ الْأُنُوثَةِ رَاجِعًا بِصُورَةٍ شَهْرِيَّةٍ بَلَا رَحْمَةٍ فِي ذَاتِ الْمَوْعَدِ، يَجْرَحُ جَسَدِي وَيَهْدِرُ دَمِي، أَعَالِجُ أَوْجَاعَهُ بِالْذَّمُوعِ وَالْحَقْنِ الْمَسْكُونَةِ. تَفُوحُ مَنِّي كُلَّ شَهْرٍ رَائِحَةٌ نَنْتَنُ مِثْلَ رَائِحَةِ لَحْمَةِ الْعِيدِ الَّتِي تَرَكْتُ لِسَاعَاتٍ عَلَى طَاوِلَةِ الْمَطْبَخِ. تَدْرِبُنِي أُمِّي عَلَى اسْتِخْدَامِ الْفُوطِ الَّتِي وَضَعْنَهَا فِي الدَّرَجِ الْعُلَوِيِّ عَلَى الْجِهَةِ الْيَمْنَى، عَلَّمَتْنِي كَيْفَ اغْتَسَلُ لِأَصِيرَ نَظِيفَةً بَرِيَّةً فَلَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَاذَا أَعَانِي فِي لِبَاسِي التَّحْتِي. هَمَسْتُ تَحَذَّرُنِي مِنَ الرِّجَالِ الطَّامَعِينَ بِجَسَدِي، تَنْبَهُ وَتَشْرَحُ مَا لَا يَشْرَحُ، وَتَخَافُ عَلَى جَسَدِي الَّذِي لَا يَغَادِرُ الْبَيْتَ إِلَّا إِلَى الْمَدْرَسَةِ، هَلْ يُمْكِنُنِي مُوَاصِلَةُ الذَّهَابِ إِلَى مَدْرَسَتِي وَقَدْ شَقَّ جَسَدِي خُطْبَ عَظِيمٍ؟ تَكْبُرُ مَخَافِي، مَاذَا لَوْ هَاجَمَنِي الدَّمَ وَأَنَا غَافِلَةٌ فَيَرُونَهُ وَلَا أَرَاهُ؟ مَاذَا سَيُظَنَّ بِي الْأُسْتَاذُ أَيْسَرُ؟ وَهَلْ يَشْفَعُ لِي عِنْدَهُ أَنَّنِي بِنْتُ ذَكِيَّةٍ شَاطِرَةٍ؟ بَاتَ الذَّهَابُ إِلَى الْمَدْرَسَةِ جَحِيمًا.

أفهم أنني كبرتُ وأنَّ صدري يتمللم بارزاً متوترًا، وأفهم أنني قد أكون جميلة أو لا أكون، فما أنا إلا مجرد نوع بشري ضعيف مهدد بمرض في جسده وبأطماع الآخرين حوله، ضعف يضاف إلى علة العمى، لم تمنعني المخاوف الخفية في نفسي من التحليق إذا سمعت أغنية تحكي عن لقاء حبيبين، ولم تعالج ارتباكي وحنقي حين وضع الأستاذ أيسر بطاقة الدعوة إلى عرسه بين أناملي. لم أتقن التظاهر بالفرح ولم أقل له كما علّمتني أمي: مبروك.

هل أنا أنثى يمكن أن يلتفت إليها رجل ما في يوم مستقبلي؟ هل سيحدث يومًا أن أتزيّن وأهرع خارجة من البيت كما تفعل ندى وهي تُوقّت خروجها على لحظات مغادرة وعودة الشاب الأعزب الذي سكن حجرة السطح.

ضربتني الرؤيا مبكرًا، لم يكن مناسبًا أن أرى ما أرى، حين يتبادل البطلان قبلة على الشاشة المسطحة الناطقة، تأمر أمي ندى بإحضار كأس ماء من المطبخ، وتتلجلج وهي تأمر نادر: قم لدروسك.

أضحك في سرّي لأنّي استثنيت من أمر إحضار الماء أو التفاح والبرتقال. لا حاجة للقيام لدروسي أو خدعة صغيرة كالتي كانت تقال لنادر ونحن أطفال: هؤلاء إخوان.

تتمللم أمي وندى وقد يضحكن وكأنّ القبلات على الشاشة تفرك أجسادهنّ، لم أكن أستطيع رؤية البطل يحشر جسد البطلة بين ذراعيه ماسحًا وجهها بشفتيه، ولكنّي ألتقط الهمهمات والتهنّدات الخفيفة، وتنقر رأسي دقات الموسيقى المرافقة للمشهد، فينطّ قلبي ويفارقني وأرتعش حتّى مفارق الشعر في رأسي، دون أن يشعر من حولي.

مع ذلك، كنت أصغر من أن أرى ما رأيت.

هدأت أصوات العمارة في ليلة صيف، ومن باب الشّرفة في حجرتي، الفتحة الوحيدة المشرعة للهواء في بيتنا، ينتقل إليّ هسيس هواء ناعم لم يقو على تحريك أوراق الشجر. البيت ساكن تمامًا وقد اختفت وشوشة شاشة التلفاز، يحدث هذا حين يغادر أبي وأخي البيت، يختلّ التوازن؛ إذ يتركان فراغًا في الهواء حيث كانا يحتلان المكان. تنسلّ ندى عبر الرّدهة على أطراف أصابعها، لا بدّ أنّها تلفّتت قبل أن تفتح الباب الخارجيّ متمهّلة، مراعية كتم صرير مفصلات الباب. تفقد حذرًا عند الدرج وهي تصعده بقفزات متسارعة وجلة، ويرتدّ إليّ صدى فتح باب شقة الجار

في الطابق العلوي وإغلاقها مجددًا بسرعة، أفقد أثر ندى بعد أن تبتلعها الشقة في الدور العلوي تمامًا، يزداد فضاء البيت تخلصًا بخروجها، وأتكور على نفسي، أتمس نعومة اللحاف ورائحة شعري المختلطة برحيق تفاح في وصادتي، ينبت التفاح في الوسادة قادمًا من ذاكرة (الشامبو) الذي غسل شعري بالأمس، أحبّ غسل شعري لأنّي ألتقيه رحيقًا في الوسادة إذ أنام وأحلم.

تبددت الرائحة تلك الليلة في غيمة رائحة طلاء الأظافر القادمة من حجرة أمي، وسمعت دندنة أغنية خفيفة بصوت متواضع لكنّه رائق وحنون، ثم نقرات أصابع أمي على أزرار هاتفها الخلوي. تلاه تمتمة وهمس، ارتجف صوتها وهي تتهاشم مرتبكة ثم تفارق رقدتها، سمعت أزيز مفصلات سريرها، وقفت رائحتها الزكية، ثم تبعثرت حاجيات كثيرة في حجرتها وتخالطت أصوات قرقة وفتح أدراج، فاح ياسمين عطر أمي المفضل، وفُتح باب الحجرة وانسلت نوال بنفس الخطوات الفلقة التي ترجف خطوات أختي وهي تهرب للقاء عشيقها، انفتح باب الشقة مجددًا وردّ بلطف تحسبًا لصريير المفصلات، تواصل إيقاع خطواتها هابطة الدرج ثم اختفى، جثم على قلبي سكون مفاجئ. تخيفني عمتي بلا أصوات ولا روائح، دار صدى الخوف في قفص صدري، عتمة حالكة، ثقيلة، تقطع أنفاسي، أستجدي هسيس الهواء الصيفي من شق النافذة؛ لكنه أيضًا توقف. ارتعدت كأنّي فقدت نظري! وقفت وسرت خطوات إلى باب حجرتي، ثم عدت قرب النافذة ومر الوقت ثقيلًا غامضًا، وقفت مجددًا وتحشرج صوتي مناديًا: ماما.

لم أظ برّد. دفعني خوفي إلى البحث عن أجوبة، لماذا تركوني وحدي في هذا الصمت؟ لعلّ حواسي خانتني فلم أفهم ما حدث.

سرت نحو باب الشقة، قطعت الشقة طيفًا لا يحدث حراكًا ولا ينبه أحدًا، أعرف عدد الخطوات اللازمة لقطع المسافة في صالة البيت حتى الباب، فتحتّه بسهولة، لم يكن مغلقًا، وخرجت، عند عتبة الباب، صعدت رائحة عطر أمي إلى أنفي فاطمأن قلبي، تقدمت، وضعت يميني على سطح الجدار المبرّر بدهان خشن، تحسّسته وسرت خطوتين، اشتد حضور عطر أمي، كدت أناديها إلا أنني ابتلعت صوتي؛ فقد اختلط عطرها بعطر دخيل، هذا عمو عبد الجليل، طبعًا، هو من يستخدم تلك الرائحة التي تذكر بفوح خيارة طازجة.

هبطتُ درجتين بخفة قط لا تُحدث جلبة، فعصفت بي أصوات وهمسات، كنت أستطيع رؤية أمي أسفل الدرج؛ ياسمينة تتأوه وتدوب في أحضان الجسد المضمخ بالخيار، قبلات تفرقع متمسحة

بالجسد وأنفاس تنهدج، وجسدان يغمران بعضهما ويعتصران. فزعت لوهلة حين انفكّ الياسمين عن الخيار، رفعت قدمي وعدت خطوة ثم خطوة أخرى، استعدت تماسكي وصعدت الدرج، دفعت باب بيتنا برفق، وتجمّدت لثوان وراء الباب قبل أن أغلقه وأهرع إلى حجرتي، انهزت فوق سريري أبكي المرأة الياسمين الجميلة التي خرجت لمغامرتها الليلة بشجاعة امرأة تخون، كرهتها تلك الليلة، لم يكن يجب أن أرى ما رأيت.

عادت ندى بعد نوال بقليل وقبل عودة أبي وأخي تلك الليلة، خلعت ثيابها مبتهجة بمرح وغنج، ودندنت بحبور بأغنية لأم كلثوم، لا شك أنها تعرف أنني أظاهر بالنوم تحت الغطاء، تخرج بريئة سعيدة تنادي أمي من حجرتها لتتابع برنامجاً تلفزيونياً فكاهياً، ورغم ضحك ندى الذي انفلت إثر البرنامج التلفزيوني فإن أمي سقطت في هدأة غريبة ووقار ليليّ مضللّ. عاد الرجلان، تقول أختي أنهم يسمّون نادر بالرجل منذ أن رسم شارباه ظلّاً مخربشاً فوق شفّتيه. جلس الرجلان، الكبير والصغير في الصالة وقلبا قناة التلفاز من البرنامج الضاحك إلى مباراة كرة القدم دون أن تعترض ندى كعادتها، ربما لأنها مشغولة بتقليب بهجتها السرية الخاصة. وحدي في الحجرة، وقد مات الهواء الذي كان يتسلل إليّ من فرجة في باب الشرفة.

رصدتُ الفراغات القاتلة بين أمي وأبي قبل تلك الليلة، أعرف أنهما جسدان لا يتلامسان، لكل مقعده، والسرير في الحجرة الموارب بابها، بالكاد تتنّ مفاصله حين ينهضان أو يرتميان فوقه، نَعْمَيْنِ متوازيَيْن ينبعثان من المفصلات القديمة ثم يكون صمت، كما لو كانا يصدران عن وترين في آلتين موسقيّتين منفصلتين لا يشكّلان معزوفة؛ جسديّن محنّطين فوق الفرشة العتيقة، غالباً ما يصلني هدير شخير متقطع أو انقلابة جسد ثقيل ثم يتسدد الصمت. لكن ما حدث في مساء الخيانة كان فوق احتمالي، وخارج قدرتي المحدودة على تفسير الحياة، تصدّع عالمي، ضربت بنيان روحي شروخ طولية هزّتني كما عمارة آيلة للسقوط.

لماذا لم يتركني ربّي في عمائي؟

تقدّم المشهد باتجاه الكشف عمّا هو أبشع. لم أكن وحدي من يحمل في أعماقه سرّاً قد يقتله كسمّ زُعاف، فيما بعد، من موقعي في الحجرة الثانية، أراهم ولا يرونني، فالحائط السميك يفصلنا والباب موارب يداري هيكلي وراءه.

يتغير المشهد تمامًا حين يعبق عطر أمي، وأسمع تسلل ندى إلى الأعلى، ثم قدمي أمي الناعمتين الحافيتين على بلاط الحجرة، لم تعد تنتظر خروج أبي أو نومنا، تتركنا في الصالة وتنسل حافية، تفتح الباب وتخرج، يهبّ أبي من جلسته، أعرف أنّ الصحيفة تكومت على الأرض وأوراقها تكشف، أو أن الكتاب طار إلى الطاولة محدثًا ارتطامًا، لا يأبه أبي بوجودي على كرسي في الحجرة، ولكني أحس بجسده يندفع مشدودًا إلى النافذة ثم يحتمي بالجدار كأنه يختبئ، تتقطع أنفاسه، يشق هسيس قماش الستائر الثقيلة الصمت على مهل، لا بدّ أن أنامله حركت الستارة ببطء وحذر، ينقطع نفسه لثوان كأنه لم يعد ملتصقًا إلى الحائط واجفًا، ثم ينفلت من حنجرته متهدجًا مرعوبًا وهو يحرر الستارة لتتسدل مجددًا، صوت خطواته مرتبكة تعود به إلى كرسيه لاهثًا، يتحرك في مقعده كمن يبحث عن شيء ضائع، يلتقط الصحيفة ويطيل في عملية فردها وترتيبها والورق يتكرمش وينفرد ويهتز في خشيش متواصل، أوشك أن أسأل ببراءة: أبي، ماذا رأيت من النافذة؟

ولكني لا أفعل، أخشى أنّه رأى ما رأيت في أسفل الدرج مرة.

أختنق بصمتي كما أبي وأستسلم لرؤية مشاهدي الخاصة عن أناس يجلسون على المائدة يلتهمون تفاحة، ويمزقون أكتافهم وينهشون بنهم أفخاذهم النحيلة، يقطعون ثيابهم إلى خرق مدماة، يمزغون لحوم بعضهم بعضًا بشراهة، تختلط صوري الذهنية مع خريز مكتوم ثقيل لزج لدم مراق في مذبحه وقعت في مكان ما تنقل تفاصيلها على شاشة التلفاز. يصيبني يقين أنّ أحدًا في الحجرة لا يرى ما يدور على الشاشة رغم أن أعينهم مفتوحة ترى.

تدهشني أصوات مذياعي الأخبار حين يروون مشاهدي السرية وكأنها ما يحدث في العالم الذي يراه الناس. أخاف الإفصاح عن مرور هذه المشاهد المرعبة في رأسي الصغير تمامًا مثلما كنت أخاف الإفصاح عن نقطة الضوء التي تبرق هنيهة أمام ناظري. استمرت روحي تظمر أسرارها، ورحل الأمان من قلبي بينما كانت أمي وندى تتقاسمان سرًّا جديدًا حول جارنا الأعزب الذي يشبه مرده الحكايات: يختطف فرحنا الضئيل ويرحل!

ارتخى الزمان حتى ترهل. خمدت كل العواصف التي حرّكت المياه الراكدة، تخمّج العالم وفسد حتى لم يعد صالحًا للاستهلاك البشري، ولكن الدنيا تركض على عجل ولا أتمكن من اللحاق بها، مثقلة مثل جثة، متعبة كأني أصعد بينما روحي تنزلق.

اكتشافي الطبقي ليس جديدًا جدًّا. أعرفه منذ وطأت قدمي الشميساني، ولكنه يتعزز كل يوم، تغادر النساء اللواتي عرفتهن البنك، ويترقى زملائي ليصيروا أعلى مرتبة مني، وتغزو البنك فتيات صغيرات يرتدين بناطيل ضيقة وقمصانًا حريرية يفتحن أزرارها العلوية عن نحور بيضاء وسلاسل رقيقة من الذهب الأبيض، تنتهي قريبًا من النهدين بنجمة تتلألأ أو قلب صغير، يرافقه مفتاح أحيانًا. وحدت إدارة البنك الأزياء لفترة وجيزة، ومنعت ارتداء بنطلونات الجينز التي أفضلها لصالح بنطلونات من القماش، أختار أرخصها. يستحسن ارتداء قميص قطني بلون وردي رائق، لا أجد إلا قمصانًا فاقعة في جبل الحسين، أبدو نغمة نشار بين الصغيرات الجميلات بشعورهن المكوية بعناية والمقصوصة والمصبوغة أحيانًا بشقرة صريحة. تودّع النسوة القرن العشرين شقراوات بفضل أصباغ الصالونات الأنيقة التي يرتدنها، لا يحتاج شعري إلى عناية يومية مكلفة في صالونات التجميل كما تفعل زميلاتي اللواتي لم أتمكن من اعتبارهن زميلاتي لفارق السن بيننا وذلك الفرق اللئيم في نسيج قماش البنطلون ولون القميص اللذين لم يمنعا المدير الوسيم الجديد من ملاحظتي بنظراته وابتساماته التي لا يمكن تفسيرها، لعلها دمثة البرجوازي الصغير.

لا أحزن ولا أبدي ضعة أمام موظفات البنك الجدد، حتى عندما تمردن على الزي الموحد، وعُدنَ إلى ارتداء ثيابهن الملونة الفاخرة، فأنا لا أحتاج إلى ثياب غالية ترسخ موقعي في مكان عملي. أفوقهن خبرة وقد انتقلت من موقعي مقابل الفتحة الزجاجية إلى المكاتب في عمق البنك،

وصارت لديّ سلطة نسبيّة عليهن، سلطة خادعة، أنا نفسي لم أكن أصدقها. أراقبهنّ عاجزات عن التقاط أنفاسهن أو مغادرة مواقعهن حتى لو شعرت إحداهن بمثانتها تلحّ عليها لتلبية نداء الطبيعة، فالعملاء يتدفّقون تبعاً، ولا يمنعهنّ انهماكهنّ بإحصاء النقود وتفحص شاشة الكمبيوتر من تبادل أحاديث مقتضبة حول المشتريات الغالية والماركات العالمية، أو الخيانات والعلاقات السرية. كنّ مهووسات بأسرار الأميرة البريطانية الليدي ديانا، وعلاقاتها الكثيرة واحتماليّة حملها من عربي مسلم والتشكك بأن موتها كان مدبراً من الملكة العجوز. يتهامسّن وهنّ يبتلعنّ ضحكاتهنّ بفضيحة الرئيس الأمريكيّ، وعلاقة كلينتون بمونيكا متسائلات عن معنى الجنس الفموي، لم تعد الأحاديث حول البطولات أو الأفكار أو شطف العيش والأمال بمستقبل العيال، بدلت الحياة وجهها تماماً بسرعة مذهشة.

توجّب عليّ غير مرّة تنبيه الموظّفات الجامعيّات الجميلات المغرورات أنّ أحاديثهنّ غير لائقة؛ تقلّ من هيبة البنك وتثير امتعاض العملاء، خاصة أن الإدارة أزالَت الحاجز الزجاجة بين العملاء والموظّفين؛ تعكس وجوههنّ الاستخفاف بكلماتي العتيقة، لكنهن يصمتن ويعدن إلى الانهماك بعملهن، وفي ثوان تتغير هيئاتهن إلى ما يشبه الأجهزة الميكانيكية التي تعد النقود، يفقدن بشريّتهنّ تماماً.

عندما كنت في موقعهنّ توفرت لي ولزميلاتي المتقاعدات فسحة قليلة لأحاديث تصنع رفقة طيبة ووداً. كنا نتناول سندويشات الجبنة ورقائق البسكويت والشاي أحياناً، مع ذلك لم أفلح بصنع صداقات دافئة، فكيف وقد بات الإفطار ممنوعاً على مكاتب العمل أو في الردّهات، كما منع التدخين نهائياً. يهرب المدخنون لدقائق خارج المبنى، يسحبون دخان السجائر بسرعة إلى رئاتهم ويعودون لمعاملات الواقفين بالطوابير وهم يسعلون ويتنحنحون. على ما يبدو أنّ الناس جميعاً باتوا يتردّدون على البنوك كما يزورون المخابز يومياً.

لا أفسّر الظاهرة نموّاً اقتصاديّاً ورفاهاً جديداً يصيب الشميساني وعمّان الوادعة. يتسارع كل شيء كماء يسيل على منحدر، إلّا حياتي، تمضي بطيئة رخوة تلتصق بي وتعيق خطاي كما لو أنّ مضغة من علكة دبقة علقت أسفل حذائي، لم يتأثر بيتي بالرفاهية التي تجتاح الحدائق والشوارع والمقاهي العامرة بشاربي الأرجيلة، ولم تخدعني الصورة الإعلانية التسويقية لبلدي، أعلم أنّ

منحنى حياتنا ينحدر بسرعة، تزداد مسؤولياتي المالية مع ارتفاع الأسعار وطلبات الأبناء وخمول الزوج وتنمو مخالب غيظي من العالم.

لم يحدث أني رأيت ثورًا يدور في ساقية إلا في الأفلام المصرية بالأبيض والأسود، يدور الثور معصوب العينين بلا توقف، تحضرني صورته كلما قارب الشهر على الانتهاء ونفدت النقود في محفظتي، إنه دوران لا نهاية له، كدح لا طائل تحته لن يمكّني من الوفاء بأقلّ مستلزمات عائلة صغيرة كعائلتي. أعدّ الطعام كما لو كنت ميزانًا، أقيس بحذاقة كمية اللحوم التي أبتاعها، أوزع الكميات بين الحمراء والبيضاء ببراعة أحسد عليها، أقلّ الحمراء شتاء إلى الحد الأدنى ناقله ثمنها ليصير ثمنًا لجرة الغاز التي تدقّ الصالة، وأنفّس في إعداد أطباق ذكية تقي بالشبع ولا ترهق الميزانية، لا أتسامح مع نفسي في كماليات يمكن أن تبهجنا لدقائق ثم تموت الرغبة بها أو الحاجة لها، هكذا نسيت شراء الألعاب لأطفالي. كانت لدى ندى في طفولتها المبكرة دمية بشعر أشقر طويل وعينين زجاجيتين. قلعت ندى عينيّ الدمية وقصّت شعرها أو لعلها سحبت من جذوره، هذه غلطتنا، كيف قدّمنا لبنت بشعر أكرت منكوش دمية يسيل شعرها كحرير ذهبي؟ لم أزجرها وهي تشوه دميّتها وتقضي عليها؛ إذ كنت حينها في صدمتي الكبيرة، أكتشف عمى الرضاعة نور، لم أجد الوقت لاستبدال الدمية أو شراء ألعاب أخرى للطفلين نادر ونور، وإن كنت أعثر أحيانًا على ألعاب لم أشتريها وأعرف أن ربحي لم يفعل. كرة غريبة في زاوية حجرة التلفاز، أو تماثيل بلاستيكية صغيرة لمحاربين وحيوانات وسيارات معدنية متقنة الصنع، في الدولاب أو الحقيبة المدرسية لنادر، أو تحت غطاء السرير، لم أسأل ولدي من أين يأتي بتلك الألعاب. إنّها مجرد أشياء متناثرة لا تعني شيئًا، لعله أخذها من صديق، لم يكن هذا يعنيني أبدًا، لم أفكر بتدليل أطفالي إلا في تقليد وحيد يردني إلى طفولتي المبكرة، حين كان أبي يبتاع لي قمع البوظة، واصلت تلك المهمة العائلية الوحيدة التي ظلت في ذاكرتي عن أبي، حين نذهب لزيارته في جبل الحسين، نقف جميعًا عند ناصية الدوار وأبتاع البوظة المائعة في أقماع من البسكوت، نلحسها مبتهجين ونمضي.

يحدث أن أتذكّر أنّي ابنة أحدٍ في هذا العالم؛ شقيقة رجلين كانا شديديّ الغباء في طفولتنا، ابنة الأسرة البسيطة، الوحيدة التي نالت شهادتها الجامعيّة في المحاسبة. أتقهقر في أدنى السلم الاجتماعي، بينما يمتلك شقيقي المواسرجيّ بيتًا واسعًا في الشوارع الخلفية من جبل الحسين، ويرتحل سائق التاكسي إلى أطراف المدينة متجاوزًا عين غزال ليمتلك بيتًا بحديقة في طبربور. الفرق بيني وبين إخوتي، أني وأنا المتعلمة قاطنة الشميساني الراقية أسكن بإيجار رخيص حدث

صدفة أن المالك لا يزيده، كما لم أفلح وزوجي الجامعي على حضّ أبنائنا لإكمال تعليمهم بالصورة اللائقة، متى حدث هذا الخلل وكيف؟ أقسم أن أناقلي تشنجت وأنا أقرأ بطاقة الدعوة التي جاء بها ابن أخي محمود الذي كانت تتطاير منه روائح الشّحوم والزّيوت والمطهرات الفاقعة في الماضي، دعوة إلى زفاف ابن أخي «المهندس» في فندق عمرة؛ فندق الطبقة البرجوازية وقبلّة السياحة، من أين لك هذا يا أخي؟ البطاقة مذيلة بعبارة «دامت الأفراح في دياركم العامرة». الحياة رحلة طويلة أشك أن بيتي سيعرف فيها فرحًا.

مع ذلك؛ ابتعتُ فستانًا لندى وآخر لنور، وارتديت زياً رسمياً أنيقاً، احتفظتُ به منذ سنوات للاجتماعات الرسمية في العمل، لم يعانِ ربحي مثلما عانينا في تهيئة ثياب تليق بالأعراس التي لم نُدعَ إليها قبل ذلك، فلديه ما يزيد عن حاجته ومكانته من بدلات رسمية وربطات عنق رخيصة تبدو ثمينة، أما نادر فلم يتخرج من ارتداء بنطاله الجينز؛ لكننا تحت الإضاءة الكاشفة وبين النسوة اللواتي ارتدين مجوهراتهنّ وتراقصنَ في منتصف صالة العرس حول العروسين، شعرنا بالضالّة، التصلقنا بمقاعدنا، وحدّقت بأخي وهو يتنقل بين المدعوّين مزهوًا ببدلته الرّمادية الأنيقة والتي تفوّقت بأناعتها على بدلة زوجي، لم أتمكن من رفع عيني عنه. تتنطّط صورته التي عرفتها أمام ناظري وكأنّها الحقيقة الوحيدة، لم تنسني بدلته الفاخرة قميصه المدعوك الذي كان يدلف به إلى البيت ملوثاً بالسّناج والخراء. سبحان مغيّر الأحوال، تابعت نظراتي تنقلاته كأنّه سفير في حفل رسمي، بينما راحت عائلتي تراقب بوجوه واجمة الراقصين وذيل العروس الأبيض يتخبّط خلفها، يتهلّل وجه نور ببراءة رغم ضيقها من مكياجها كلما ارتفعت وتيرة الأغنية التي تصدح بصوت عالٍ مقيت من سماعة قريبة من مكان جلوسنا ويتفافز الشبان على وقع كلماتها ولحنها: «لولاك... لولا لولا... لولاك ما حببت، والله ما غنيت... لا الشمس تطلع... لا لا... بدر السما عالي... لا القلب يعشق... ليا عزيز غالي... لا لا...».

هل ثمة وجود لمحبيّين وعشّاق في هذا الكون الرخو؟ ولماذا لم نتمكّن من مجاراة الناس في فرحهم ولا شاركنا نور ابتهاجها؟

اصطف المدعوون قبل منتصف الليل بقليل وتدافعوا حول طاولات الطعام؛ لكننا لم نتحرّك، ولأنّ أبي يجلس على طاولتنا فقد وصلت الصحون المعرمة بالطعام إلينا، وانهمك نادر في تناول

الدجاج واللحوم بالآية جائع أخلتني، بينما قضمت نور قرصًا من الكبة متلذذة كأنها تتحسّس شيئًا لم تعرفه قبل ذلك اليوم. أصابني الغمّ، وامتنعت أنا وربحي وندى عن الطعام.

فاجأني العرس بمكانة اجتماعية متغيرة لإخوتي ولي. لم أفرح، ولم تمض أيام حتى وقعت البلاد كلها في حزن.

احتضنت نور على الأريكة، تسمح لي عادة بضمّها أو تتمدّد واضعة رأسها في حجري تاركة أناملني تتخلّل خصلات شعرها، كأنها تفرّغ أحزاني بدفء جسدها في أحضاني، بينما تجلس ندى، بعيدًا، في كرسي منفرد لا يتيح لي ملاطفتها، تضع أمامها صحنًا من بذور البطيخ المحمّصة، وتصدر أصواتًا وهي تقزّز البذور تحت أضراس قوية. لا شك أن تسليها بالبذور قبالة الشاشة التي تبث مسيرة الجنازة الحزينة المهيبة أمر وقح للغاية، لكنني لم أكلف نفسي عناء توجيهها والدخول في شد وجذب أنا في غنى عنه، كنا نشاهد ما يحاول ربحي ونادر رؤيته عيانًا في الشارع، خرجا في وقت مبكر، يلحقان الجموع المحزونة والفضولية، فالبلاد أغلقت أبواب مؤسساتها حدادًا، وخرج الناس يحاولون الانضمام إلى جنازة العصر، فقد مات الملك متأثرًا بالسرطان. لا يعفي المرض الخبيث الملوك، كأنه يتهدّد البشر جميعًا، لم يجد المواطنون فسحة حقيقة للمشاركة في الجنازة مع كثافة الإجراءات الأمنية التي اقتضاها وجود الرؤساء والملوك من كل أنحاء العالم، جاءوا لعزائنا دون لقائنا، مع ذلك جرّ ربحي ولده وخرجوا للوقوف في الشارع ورؤية الجنازة تعبر من بعيد، واستسلمت نور في حجري لمداعبتي مغمضة العينين، ولو كانت فتحتهما فإنها لن ترى شيئًا، ويبدو أنني وحدي كنت المتأثرة بينما الجنازة تمرّ في قلب الشاشة الصغيرة بالخیل والعازفين والمراسيم الرسمية وجموع الملوك والرؤساء. لم تنتبه ندى لدموعي تغلّبي، بدت بعيدة عن المشهد، مراهة لها خيالاتها.

ثقل قلبي بانتهاء بثّ مراسيم الجنازة، وسرحت لأيام صباي حين كنت معجبة بصورة الملك الشابّ بقبّعته العسكرية على جدار الصّفّ المدرسيّ. لا أعرف إذا كان سواي يكلف خياله عناء الانتقال إلى الأزمان التي تبدّدت، لعلّي وحدي ابتليت بالحنين الرقيق، تفاهة عليّ نسيانها ونسخها تمامًا من حياتي.

توجهت نور إلى حجرتها وواصلت ندى قزقة بذور البطيخ. قفزت منتفضة راجعة إلى زمني وأنا أسمع صوت الارتطام المريع، حديد دخل في حديد، توقّفت نور مضطربة والتفّفت

برأسها نحوي متسائلة: حادث آخر؟

هرعت ندى إلى النافذة، أزاحت الستارة وأرختها بسرعة مجيبة: لا شيء. فتحت باب الشقة ووقفت في مدخل البيت أطلّ على حديقة عبد الجليل. رأيته يهرع من بوابة البيت الكبيرة باتجاه بيته.

- ماذا هناك؟

رفع رأسه وصفق كفيه: هذا الشارع الجديد سيدمر كلّ السيّارات، قلنا لهم مائة مرة، هناك نقطة عمياء، لا حياة لمن تنادي.

منذ شقّ الطريق الخلفيّ للعمارة الصغيرة، والحوادث تتكرّر. تندفع السيارات مسرعة من المنحدر العلوي وتتحرف على سرعتها نفسها، وقبل أن يظهر للسائق مبنى عمارتنا يكون قد ارتطم بسيارة برزت من اتجاه متقاطع ولكنّه مخفي مثل مفاجأة غير سارة. سمّى سكّان الشارع تلك النقطة بالتحديد «بقعة عمياء»، لأنّ ثمانية واحدة تفصل بين رؤية السائق للسيارة المقابلة، ثمانية لا تتيح التريث، كفيلة بإحداث التصادم.

دار عبد الجليل على سكان الحي يجمع توقيعاتهم على عريضة يناشد فيها أمانة عمّان لاستحداث مطب صناعي يخفف سرعة السيارات، كان خائفًا من تعرض سيارته المرسيديس الجديدة لخبطة في قفاها. لم تُجدي المناشدة المكتوبة والموقّعة من أهالي الحي من يقرأها ويتحرك، واستمرت الحوادث. حين عاد ربحي ونادر قلت وكأنّي أحدث نفسي: حادث جديد عند النقطة الزفت.

لم أكن أسمّيها العمياء، خاصة في بيتنا، أخّار ألفاظي بعناية خوف أن تخدش سمع ابنتي ترهات الكلام التي تذكرها بنقصها، لعل حساسيتي تجاه نور هي ما تبقى من إنسانيتي الجميلة التي عرفتتها يومًا. منذ أن أعلنت استسلامي في معركة محاربة عماها والكآبة تخربش روحي وتمنعني من الابتسام. لا أتذكر أساسًا أنّي كنت أبتمسم، لا في لقاء عمليّ أو عائليّ ولا حتّى في صورة. مع ذلك أبديت حماسة لالتحاق ابنتي بالمعهد الذي يعنى بحالتها. شجّعته ووعدتها، مزيّنة القادم من حياتها. تحدّثت بفرح طفوليّ عن مصادفة قرب مدرسة المكفوفين من البيت، يا لهذا البيت اللقطة! غالبًا ما يكون مناسبًا لحياتنا.

ليس تمامًا، حدس غريب تسلل إلى قلبي عندما تم تأجير الحجرة في الأعلى، ولكنني تغاضيت عنه، أتغاضى عن حدسي كثيرًا وأقع في شر تجاهلي لصوت داخلي يحذرني في أمور كثيرة. هذه المرة قلت لنفسني أن الأمر لا يخصني، ولا يضرني، ولا يهمني. بل إنني تصرفت وزوجي كما لو كنا مثقفين حقًا، في واقع الأمر لم نكن إلا شخصين مستهينين يتركان الحياة تمضي بلا وجهة نظر حول أي تفصيل، لهذا لم ننفعل مثل أهالي عمّان الذين تنشب المخاوف أسنانها في صدورهم ويعتريهم الشك حين يكون في الجوار رجل أعزب. استشارنا عبد الجليل بشأن تأجير العلبة للرجل. فعل ذلك أدبًا منه فطريق الرجل ستمر من أمام باب شقتنا، سيستخدم درجنا الحديدي صاعدًا إلى حجرته. لم نمانع، لم نعتقد أن لنا الحق بالمانعة. لا يملك زوجي ترف الرفض، ولا أظن أن الأمر يستحق الوقوف عنده، فالأعزب بشر ككل الناس.

هكذا سكن الشاعر كمال فوقنا، لكنني أدركت بعد فوات الأوان أن تلك الأريحية لم تكن في محلها؛ فالأعزب رجل جائع، لا تنفذ رائحة طهو الطعام من وراء بابه الخشبي، يشتهي الأطعمة التي نعدّها ويتلوى وحده على قرصات الجوع لمعدته الملعونة، قد يندفع خارجًا بحثًا عن مطبخ مطعم في الشارع، يضع على طاولته صحنًا من الدجاج المقلي، فلا تحقق رائحة طعام المطاعم له رضا كاملاً. يأكل بنهم وقرف ويعود متخمًا مترصدًا الروائح الحية المنبعثة من مطبخنا. الأعزب رجل جائع مقرر، لا جسد يدقّ جسده، تفترس عيناه الإناث اللواتي يقطن تحتها، بدءًا من جسدي إلى الشابة الرعناء ندى وصولًا إلى البنت العمياء، يبحث في فتحات أثوابنا عما انكشف من بياض الأذرع وسمانات الأرجل المكتنزة ورحابة الصدور التي تشي بما يرفعه القماش، يشتهي لمس خصلات شعورنا التي يمرّ قربها مسرعًا مستنشقا فوح الشامبو، متممًا بتحبة مقتضبة متصنّعًا الأدب، ثم إنه شاب في ثلاثينات العمر، وسيم فارغ الطول، وقح النظرات وفوق هذا هو شاعر، تشحنه الكلمات الملتأثة بالشغف وتفجر شهواته، وتقول له: إن الشاعر كائن مغاير يحق له تخطي كل المحاذير.

قد تقع النسوة في عسله مثل ذباب بليد.

دعاه ربحي غير مرّة لشرب القهوة في صالوننا الذي لا يدخله أحد. استمع إلى قصائده التي يلقيها كأنه يغني، ولعب دور الناقد وهو يفكك القصيدة ويخلط في تنظيره بين شعراء مشهورين وآخرين لم أسمع بأسمائهم، وهذا الكمال يهزّ رأسه كما لو أنه موافق ومهتمّ بينما نظراته تطارد إناث

جاره الغافل المعجب بنفسه وقدراته النَّقدية المدّعاة. يدخلان في تحليلات سياسية عبقرية حول الأحداث. يطيلان دراسة السيناريوهات المحتملة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، يستبعدان أن تكون الطائرات قد أسقطت البرجين، لا بدّ أن متفجرات زرعت في أساساتهما المتينة فجعلتهما أنقاضاً، وقد يكون الأمر من تدبير الأمريكيان أنفسهم ذريعة لاجتياح الشرق، وإلاّ لماذا كان عدد القتلى أقل من عدد قتلى حوادث السيارات مثلاً؟ ولماذا لم يذهب اليهود إلى أعمالهم في البرجين في هذا اليوم بالتحديد؟ هذر من كلام لا يغيّر شيئاً ولكنهما يجتزّانه مع كاسات الشاي الساخنة وفناجين القهوة التي تنقلها ندى لهما في جلستهما المسترخية الفاحصة، كانت تتلأأ لسماع حديثهما وتبدو مستمتعة بقصائد صياد سلاحه الكلام المرصوص كما النشيد.

تمكن الشاعر كمال من اصطياد ندى، اندفعت نحوه مثل طريدة حمقاء. دخلت بكري عامها العشرين بسيماء مجنونة أكثر من صبيّة فاتنة، متوسّطة الجمال غاضبة منّي ومن أبيها إذ لم نفلح في إقامة حياة سعيدة وقضينا معظم أيامنا نتنقل بنور بين الأطباء، حانقة على شقيقتها ملاك البيت المدلّلة التي تمشي إلى مدرستها كأنّها ترى وكأنّ العالم على ما يرام، وشقيقتها الذي يقضي يومه يخزّب في البيت والحيّ ويعود مُغبرّاً من لعب الكرة ومصاحبة الأولاد الذين يكبرونه سنّاً. يدخل البيت كل مساء بهيئة مربية كأنه ارتكب جريمة. غاضبة من فشلها في نيل شهادة الثانوية وإرغامنا لها على إعادة العام الدارسي وتجريب حظّها البائس مرتين بلا جدوى، لينتهي بها الأمر عاملة في عيادة طبيب أسنان عجوز تنظم له مواعيد زبائنه بأسنانهم النّخرة، غاضبة من شحّ النقود التي تحصل عليها من عمل متواضع لا يتيح لها رفاهاً ومظهرًا لائقاً، تفور بشهوة الحياة ووجع الخسارة والحرمان، لم تكن ناعمة كما بنات الشّميساني، وليس لها من ترف الحياة ما يخفّف غلواءها، فنحن لم نطفئ شمعة عيد ميلاد لها، ولا ابتعنا لنهديها حمالة مزينة بالدانتيل. أحضر لها حمالات قطنية رخيصة لا ترفع نهداً؛ لكنّها تقي بالغرض، لم نزيّن جيدها بسلسلة في آخرها قلب من ذهب، ولا زودنا حجرتها بالدّببة الوردية والبالونات، لم تتمرّع ابنتي في حضن دافئ لجدة مكتنزة؛ فأمي توفيت مبكراً، وأم ربحي لا يأتي على ذكرها أحد كأنّه نبت شيطانيّ، وُلدَ من فراغ. تبحث ابنتي عن ذراعين تعيدان ثقتهما بنفسها وجسدها، ذراعين تثق بهما، تنفر من لمساتي كأني سأعضّها وتجد في الشاعر الصعلوك الذي يسكن العلّية ملجأً للهروب من بيت جفّ حتّى تهشم. ابتلعت لساني وأنا أرقب مغامرتها الخطيرة، لُمت نفسي، فأنا ألوم نفسي عادة، لم أتمكن من أن أكون أمّاً كاملة لها؛ ولكنّي أيضاً أملت في تحوّل العازب المغامر إلى مشروع زوج مستقبلي للابنة التي لا تحب المدرسة ولا

تفلق في تحصيلها العلمي، يبدو لي زواجها الحل الأمثل لحالتها والخلاص الحقيقي من مسؤوليتها. تعكر الشكوك أمني أحياناً، فالرجل لا يبدو من الصنف الذي يتورط بالزواج، على الأقل على تلك الصورة، أعرف ذلك بحواسي، وبالمنطق. إنه شابٌ جداً ووسيم جداً وشاعر قليلاً، وفقير جداً، ما الذي يجبره على الزواج بفتاة عادية فاشلة فقيرة؟ لا شك أنه ينتظر فرصة ترفعه وتغير أوضاعه لا بنتاً تجره على درج حديدي. بت أحرس الأبواب مثل ذئبة، أصبّ شكوكي وقسوتي على الصبية حد إغلاق الباب حين أخرج مصطحبة حزمة المفاتيح، لم يثن هذا الحرص البنت المضبوعة عن اللحاق بصيادها. بتنا نطارد بين مواعيد عملي وعملها والأوقات التي يتواجد فيها الشاعر في حجرته. لعنت اليوم الذي ارتضينا به سكن الشاعر في العلية، ومحاولتنا السخيفة بالادعاء أننا بشر متحضرون، نسكن شاباً أعزب فوق بيتنا العابق بحمي التفكك الأسري.

خجلت من مفاتحة جارنا عبد الجليل، فقد مضت سنوات وأنا أتعامل بجفاء مرسوم بالكاد ألقى سلاماً متوتراً سريعاً جافاً إذا مررت به وزوجته يحتمسيان الشاي في حديقتهما، هل يحق لي الآن محادثته بأمر خاص جداً يتعلّق بابنتي التي يعدّ نضجُ أنوثتها بأفول أنوثتي؟

هل أحرضه على طرد الشاب الأعزب؟ هل أشي بابنتي وأفضح سرّها لأومن لها خلاصاً عادياً؟ فشلت في مفاتحة جارنا خاصة أن احتفالات إنشاد دينيّة كانت تعمر بيته احتفالاً بعودة ولده الغائب من أفغانستان، تتجمّع نسوة متسترات بالحجاب والنقاب وجلاليب رماديّة، ضاربات الدفوف، مُنشِداتٌ بخشوع: «ردّد الكون الأغاني باسمه في كلّ عيد... هل رأيتم يا عباد منقذ الكون العظيم، حوله الأملاك جيش تحرس البدر اليتيم، من سنا البيت نور مشرق عم الوجود».

تصلني أصواتهنّ من الأسفل، وأعجز عن ربط نشيد مولد النبي بالاحتفال بعودة الابن الضالّ! اعتذرت عن المشاركة بالاحتفال الذي أقامته أم كريم رغم دعوتها، تعذّرت بمشاغل طارئة، فلوت شفّتيها غير مصدّقة أعذاري، من العسير الامتثال لحالة النشوة الكاذبة لو أني احتفلت معهنّ، قد أضحك بهستيرية وأفسد وقار الجلسة، وقد أخربش المسافة التي تفصلني عن أم كريم الفرحة برجعة ولدها الغافلة عن مغامرات زوجها وخطايا جارتها، كيف أذهب إذن إلى جارنا ليتدبّر أمر ابنتي التي كانت بهجة حياتي في طفولتها ثم تحوّلت إلى شابة كريهة؟ كبرت لتصير صداً في رأسي، امرأة جائعة مندفعّة، تصعب السّيّطرة عليها وهي تتسلّل عبر الدّرج إلى حجرة الفتى المتعرق أشعث الرأس.

قرّرت الاستعانة بربحي الذي لا أستعين به بتأتًا، قلت لنفسي أنّه والدها، فليتحمل مسؤولياته كرجل لمرة، فهو من يشجع الشاعر الصعلوك على الجلوس في صالتنا المتواضعة، يتسامران في الشعر والأدب كأنه صديقه القديم، سأخبره متواظنة معه للمرة الأولى، لعله يتدبر أمره بتقرير أمني ليختفي الشاعر الفاجر وراء الشمس، لم يتسنّ لي القيام بالمهمة، توقّفت، وأنا أقترّب من ربحي المتحجّر قبالة التلفاز، باهت الوجه، ماجت الشاشة القبيحة وتفتّتت المشاهد معلنة سقوط بغداد. ليست بغداد بباب البيت لأجزع، وأنا روّضت قلبي أن لا يرجف لأمر لا يخصّه، ولكنّ مرارة طفحت في حنجرتي حتى اختنقت، وبدا وجه ربحي مربعًا؛ كفّاه ترتعشان وعيناه تحدّقان وتزوجان. سيمضي زوجي وقتًا طويلًا في اجترار هزيمته كما سيفعل الأغليّة، وسأمنح الكارثة ليلة واحدة وأمضي، ليس لأتي امرأة فولاذية ولكنني ملساء لينة يمكن لكل الأمور أن تنزلق عني دون أن تخزني. الغريب أن تلك المرة أطالت حفرة في روعي وذاكرتي.

اعتصمتُ ليلتها في حجرتي، جلست مطوّلاً على طرف السرير، وأقسم أنني لم أعرف كيف طلع نهار اليوم الذي يليه.

اعتدْتُ سقوط المدن، حدث ذلك مرّات، ضاعت القدس ونابلس والخليل وغيرها في طفولتي، تحاربنا في صباي مع إخواننا وجيراننا وأعدائنا؛ لكن خدعة دنيئة «لعلها رحيمة» أنستني وسلمتني لهدوء كاذب ومستقبل مجهول محتمل، مخاتل، لإيمان غبي بأنّ شيئاً لن يتغيّر، لا خيراً سيأتي ولا شراً سيقع، ستمضي الحياة الباهتة ببلادتها، لن يقع ما يحرك الضمائر أو ينخر الكرامات، ولكنه وقع.

وحدي في حجرتي، أسمع صرير عجلات سيارة، فوجئ سائقها بعمارتنا تنتصب أمامه بعد أن اجتاز مسرعاً النقطة العمياء في الشارع، يحتضر صرير الفرامل وهي تحتك بالإسفلت ثم تموت، لا أقوى على مد ذراعيّ على هيئة صليب الخلاص. أرتمي أربعينيّة عاجزة، وتضربني ذاكرة الخطيئة التي تمرّدت عليها منذ أعوام، تلك التي نسيتها وسامحت نفسي عليها، تعاودني الدّلة التي توسّلت بها من جاري ليعتقني عليّ أهب حياتي لابنتي الضّريرة. وما وهبتها شيئاً، ما هذا العقل المضطرب الذي أحمله في رأسي ولماذا تتداخل صور لا رابط بينها؟ ها قد اكتهلت امرأة صالحة طاهرة، في الخامسة والأربعين من عمري الذي تحنّط والزمن يجري بلا توقف، وفي الحجرة المجاورة بعل يستمع إلى نشرة الأخبار أو يكتب تقريراً وهمياً حول مناضل أو معارض تبادل معه

حديثاً عابراً في مقهى السلطان. سريري بارد مثل ميت، وجسدي يشتعل، رأسي في غليان موجه، لا شيء مثلاً أردت من حياتي، وما هي ندى تتحىن الفرص فتغافلني وتصعد العلبة لتلاقي عشيقها، لا يمكنني إغماض جفني بسلام، تصارعني الأحلام والكوابيس فتصرعني.

سأكره عام ألفين وثلاثة ما حييت. انهمرت هذه السنة اللئيمة حمماً بركانية فوق رؤوسنا، لم تمنحني فرصة لالتقاط أنفاسي، ما بين مطاردة ابنتي والعراك اليوميّ معها ثم الوقوف مشلولة أمام شاشة التلفاز التي تصرّ على إلقاء قاذورات العالم في عقر بيتنا، جثت وحجارة كانت بيوناً وجند يضحكون ببلاهة واعتزاز، متاحف تنهب ولاجنون يتدفقون إلى عمان التي بالكاد تسدّ رمقنا وتروينا، جاء بعضهم بنقود كثيرة، في حقائب السمسونايت أو أكياس الخيش لا فرق، فالنقود تتكدس فوق دكة البنك الجرائيتية وتحت بصري كما لو كانت مخلفات حياة لم تعد راهنة ولن تعود أبداً، بعضهم سرقوا العراق وآخرون سرقوا أمريكا، جاء اللاجئين بقصصهم المرعبة الحزينة، وجاء أثرياء الحرب والهاربون إلى بنوك عمان بأكياسهم وأوراق (البنكنوت) التي يصعب عدّها، أدخل مع العملاء الجدد إلى حجرة حفظ الأمانات، فيودعون في صناديقنا تحفاً من المرمز العتيق أو الكهرمان الصّافي، أو الحجارة المنحوتة، رغم أنهم يلقونها بإحكام كان بإمكانهم معرفة طبيعتها.

في روعي زوايا لم تخدش بعد رغم كل ما مر بي، ارتطمت بوجه الحياة الصفيق وتحطمت إلى شظايا جارحة، لم أعد أؤثر أو أتأثر، ولكن قلبي ينسحق كأنه ما يزال حياً وأنا أشاهد عملية الفجر الأحمر على الشاشة، ووجه صدام مسحوقاً أرضاً في فتحة الحفرة التي أخرجوه منها بشعره الأشعث ولحيته المننقة. أغضبني اكتشاف المنطقة الرخوة في روعي، فأقسمت على مقاطعة الصحف وشاشات التلفاز وكل أخبار السياسة والسّياسيين، لا أبتغي معرفة شيء حولي، لا أخبار ولا معرفة بالسيل الذي يجري تحت قدمي، ولا بالزلازل الذي يهدّ جدران غيري، لو سألوني عن أسماء الملوك ورؤساء الوزارات فإني لن أعرف، حقاً لا أعرف، ومن يهتم فهم يتغيّرون مثل ورق الشجر في المواسم. لن أمنح الهزائم ولو ليلة واحدة تعيث فيها حزناً في وجداني، لن تكون هذه الميوعة التي تحوّلي إلى امرأة بكاءة ندّابة، سأشطب العالم خارجي وأمضي، أتركوني بسلام فقط خارج التاريخ والحاضر، خارج حسبة المستقبل، انسوني.

تتقلب المواسم في عمان، تصيبني شفافية ضئيلة في بدايات الشتاء، تنحسر مع ارتفاع درجات الحرارة، عندما يصير ضباب الشارع كثيفاً، ولا شيء مرئي، يتحوّل الكون إلى بقعة عمياء

ضخمة، يساعد قرع المطر الراكضين تحت الهطل السّخيّ على تحديد مسار الرصيف الحجري، وأنا أركض دون توقف، لا مجال للتوقف في حماية مظلة أحد المحلات، لا وقت لأتريث وأستريح، في سبالي المحموم لم تتشكل لدي هلوسات عن عالم فردوسي ينتظرني لأسترخى في جنباته، لماذا إذن أبحث عن مظلة تحت المطر وهو يسفع وجهي؟ المحظوظون البسطاء يتقنون المسير في الشوارع، يخترعون نسخًا من عوالم مدهشة، يسترخون فيها على الأرائك، أما الملعونون أمثالي، فما زالوا يركضون.

تباغتني المرأة بجسد نحيل يميل إلى الترهّل، وشيب ساخر يبرق بين خصلات الشعر، وتجاعيد وقحة تتراكم في زوايا جفنيّ. يعود ولدي نادر يوميًا مضروبًا أو ضاربًا في معارك تخلف كدمات على جبينه وعينين متورمتين وجروح في ركبتيه، وفيض من مشاكل، عليّ حلّها مع أناس غرباء يشتكون منه، ثم هناك تلك الطفلة العمياء التي تعزل في حجرتها وكأنها خارج العالم تمامًا، تفشل في التأقلم مع محيط مدرستها ولا تكون صداقات تعود بحكاياتها إلى البيت. يترك فشلها كمذا في نفسي، لماذا لم تكن مثل طه حسين مثلًا أو هيلين كيلر؟ آه، أخجل من أفكاره وهي تلومها ومن عينيّ اللتين تبصران في حين أن عينيها كفيفتين.

فشل أطفالي انعكاس لفشلي، يؤكد لي حدسي أن ندى تتماذى غير قادرة على التمييز بين علاقة تقتنص رجلًا وعلاقة توقع الغزاة ذبيحة، ليس أنني أقيم حدودًا بين الفضيلة والرذيلة؛ ولكني أعرف حدود هذا المجتمع التي لا تزيد عن حدّ الشفرة، وأعرف أن رأس المرأة شديد الإغراء بشعرها الطويل جعدًا كان أو مرسلاً، مصفّقًا أو أشعث، هو الطريقة المثلى لجبرّ المرأة على صوّان الحياة القاسي المدبّب الجارح، وأنا لا أتمنّى لابنتي تلك النهاية رغم تلك الهوة التي تتسع بيننا. عامان من الكر والفر، فلا هي تتوب ولا أنا أتمكّن من إيجاد حل ناجع، حتى بدا كما لو أن هذا قدر جديد علينا التأقلم معه حد تجاهله.

في مساء الأربعاء الأسود كدت أجنّ، بدأ يومًا مجنونًا منذ صباحه، كنت على وشك المغادرة إلى مكثبي حين وقفت سيارة الأمن عند بوابة البيت في وضح النهار، ترجّل منها رجلان دخلا منزل عبد الجليل وخرجا يمسكان بذراعَي كريم الذي ارتدى جلبابًا قصيرًا وسار هادئًا دون مقاومة ليختفي في خلفيّة سيارة الأمن. تراجع خطواتي داخلة البيت محرّجة متظاهرة أنني لم أر ما حدث، ناحت أم كريم وأمسك عبد الجليل كتفيها مؤنّبًا على ما يبدو. تنبّهت مساء الانفجارات الإرهابية إلى

أن الليل يتقدم ولم تعد ابنتي إلى المنزل بعد، لماذا لم تكتفِ بالصعود إلى العلّية الفاجرة؟ هل تتسكّع برفقة الشاعر في ردهات الفنادق التي يمكن أن يزرعها الإرهابيون بالقنابل القاتلة؟ هل أصابها شرّ؟ ندمت لأنني لم أزود ابنتي بهاتف محمول ككلّ البشر، كنت على أقلّ تقدير عرفت أنها حية ترزق، وأرجأت أمر عقابها لطمًا وصفعًا إلى حين عودتها، لم يتحرّك زوجي من أمام الشاشة وهو يعلّق محدثًا نفسه بعبارات غيبيّة حول الحدث الذي فجّر ردهات الفنادق وصلات عرس دفعة واحدة في ثلاثة فنادق في قلب عمّان، رحت أتقافز خلفه مثل طائر مذعور، عليّ ألمح في الشاشة مشهدًا يفجّعني أو يطمئنني، أمسكت فمي عن إخباره أن ابنته لم تعد بعد من مغامرتها الليليّة، تأخّر نادر أيضًا كعادته، بمن أستجير وجاري في الأسفل وزوجته يندبان حظّهما وقد قبض على ولدهما؟ ينهار العالم فوق رأسي ولا أفوه بكلمة، تلمس نور ذراعي كأنها تدعوني للهدوء، فأظهار به، ولكني وبمجرد أن دفعت ندى باب الشقة ودخلت، قفزت مثل نمرّة غاضبة، دفعتها نحو حجرتها عنوة وانهلت لطمًا على كتفيها وهي ترفع ساعديها تقي وجهها، لكنّي تمكّنت من صفعها بقوة حتّى أن رأسها دارت، فجأة دبّت القوة في جسدها ووقفت، قامتها أعلى من قامتي، دفعني جسدها الفتّي الغاضب حتّى خيّل إليّ أن الفتاة المارقة سترد صفعاتي بمثلها، جنّ جنوني حقًا، أملت رأسي وعضضت ساعدها بغیظ، فوجئت بهجومي على هذا النحو، فأطلقت زعقة ألم جعلتني أتوقّف وكأنّ غليلي اكتفى، وفتحت نور في اللحظة نفسها باب الحجرة مواربًا هامسة برجاء باكٍ: ماما.

قطعًا أنّ صراخ البنت وصدى الضربات كان مسموعًا في الصّالة، توقّفت لاهثة بينما ارتمت ندى في سريرها على وجهها وهي تننّ أنات مخنوقة، لمحت ربحي من فرجة الباب يفزّ منزعجًا صائحًا: عالم مجانيّن، ثم يغادر الشقة صافقًا الباب خلفه. انهمد جسدي في طرف السرير جالسًا، احتمت نور بالطرف الآخر وهي تتلمّس موقعها، كلما ارتبكت تذكّرت أنها عمياء وعادت تتحسّس حولها، فوق السرير، إناث ثلاث متعبات خائفات عاجزات عن فهم الحياة، أنين ندى ودموع نور صامتة على وجنتيها وصوتي يرتجف شارحًا مخاوفي: قتلّنتي خوفًا عليك، ماذا أفعل؟ هل أنتظر أن يعيدونك جثة من حادث إرهابيّ مثلاً؟

صاحت بصوت متحشرج: أحسن من ضربي وعضّي مثل الحيوانة.

لم أعرف من تقصد بالحيوانة، المضروبة أم الضاربة! ولكني كنت قد استنزفت تمامًا، فلم أقو على مناكفة جديدة. خرجت ندى من معركتنا الصغيرة تلك بمكسب جديد، هاتف خلويّ يمكّنني

من الاتصال بها أينما كانت، أنا نفسي تنازلت عن انتقادي الدائم لمن يحملون الهواتف المتنقلة وكأنهم عملاء في المخابرات واقتنيت واحداً، وبإلحاح بسيط تمكن نادر من اقتناء الجهاز المعاصر، رغم أنني أعلم أن ندى تغلق هاتفها إذا ما صعدت إلى الحجرة في أعلى البناية، وأن نادر لا يسمع رناته إذا كان منسجماً مع أصحابه أو قدّر أن سؤالي عنه سيخرجه، إلا أنني ورغم شحّ مواردني مؤلت ثلاثة خطوط هاتفية في بيتي بحجة التواصل مع أبنائي في العالم المتوحش الجديد. كذبة صغيرة صدقتها.

تكالبت الخسارات، لو أن مديري الأنيق ببدلته الفاخرة وربطة عنقه الوقورة وعطره الباريسي وصوته الأرستقراطي وكلماته المهدبة تحرّش بي منذ زمن بعيد لتغيّرت أقداري، لكنّه فعلها متأخراً، متسبباً بكآبة ومخاوف غامضة، أخيراً يمكنني تفسير ابتساماته الدمثة ونظراته الناعسة، تصورت أن مصيبة ستحل بي لو تورطت بحكاية معيبة داخل حدود عملي، سيتمّ ركلي بعيداً، سأخرج شائهة مجروحة من مكان أقيت به عائلتي، ولعلي لا أجد عملاً بديلاً فلست من طراز موظفات البنوك الجديّات، ولن تكون لخبرتي قيمة تذكر، لا، لم أكن قادرة على تحمّل هكذا خسارة، نبّهني حدسي أن صدّ الرجل أفيد من مجاراته أو تمثيل دور الضحية. إنّه الإجراء الذي سيقوقف المهزلة عند حدها.

أسمعني مديري في مكتبه المعزول ووراء الباب الموصد غزلاً مكشوقاً ووعوداً ببهجة منتظرة، مدّ ذراعه جاذباً خصري، ولأن جسدي تمللم مفزوعاً، تبدّل صوته إلى فحيح يهدّدني بخسران وظيفتي إذا لم أعقل وأرضخ مثل قطّة شاميّة. اشتدّت همسات حدسي وأنا ألمح في عينيه قيمتي الرخيصة السهلة، ما الذي جرّاه عليّ ولم أكن الأصغر والأجمل حوله ولم أراوده ولا بذلت الابتسامات وما تمايلت لإغوائه؟ لعلّ كهولتي وشت بحرمانني، وثيابي أفصحت عن فقري، جرح الرجل كرامتي بتحريشه فتنمّرت روحي، دفعته عنّي بعزم ليرتطم بخشب المكتب محدثاً صوتاً مربكاً، هزرت إصبعي المرفوع في وجهه مهدّدة بالفضيحة، تراجع تاركاً لي مساحة أكتشف فيها حالي الرّهيب الموجه والعمر ينسحب على يباب.

تظاهر المدير الحصيف بعد ذلك أنّ شيئاً لم يحدث، عاد إلى قلبه الشّمعيّ، وتعامله الرّسميّ، انتصرت لمرّة، وواصلت عملي في مكاني لا أتقدم ولا أتأخر، إلّا أنّ صهداً متقدّ من غضب وجوع حاصر روحي، ما زلت امرأة تنثير شهوة رجل، لم يشبعني هذا العالم ولا أنصّفني، وكأني بحثت عن

الخلاص بانتحار عبقرى، في الليلة التي تكثفت وحدتي كما لو كانت رمادًا يشبّ حريقه من جديد، ارتجفت من أعلى كتفيّ حتي أسفل القدمين كأنّ حمّى زلزلت جسدي. وحين لوّنت الشمس الأفق باحمرار وادع سرت إلى جحيمي، نزلت السلم المعدني بهدوء لص، حافية، مسرنة تمامًا، ودون أسباب ولا تفسير عاد ذاك الذي طمرته بعيدًا أنا وجاري الكهل، عاد مثل وجه مهرج يبرز من التراب، كأن جرّوا صغيرًا نما بغتة ليصير ذئبًا.

تجنّبت الصعود إلى الأعلى حيث ابنتي وعشيقتها، ماذا كنت سأفعل لو داهمتها؟ هل أشدّها من شعرها الجعد الطويل وأسحبها ورائي؟ لا يليق بي دور الأمّ المفجوعة التي تنقذ ابنتها، وليس بإمكانني لعب دور القوادة حين تكون السلعة ابنتي، يتشظى العالم حولي كما لو كان زجاجة.

نزلت حافية بهدوء شيطاني بدلًا من الصعود، لأول مرة منذ عشرين عامًا سكنت فيها البيت الملعون، لامس حديد الدرج البارد الصلب لحم قدميّ العاريتين، احتكنا بصلب الحصى وفثيت التراب الفاصل بين مدخل الدرج والحديقة، داستا بوله العشب المبلّل، وتدغدغ اللحم أسفل قدميّ مترطبًا.

دلفت الحديقة حيث الهواء ساكن ورائحة العشب حادة ممزوجة بطين الأرض والضوء غامض يودع النهار، كان عبد الجليل واقفًا ببجامته المخططة كأنه من زمن عتيق، يشتعل رأسه باللون الرماديّ، ويحمل خرطوم المياه مُطيّرًا رشاشات رفيعة فوق النباتات يروي عطشها، وجهه محايد حدّ البلاهة، كأنه بات غيبًا! لم يكن ذكيًا في الماضي على أيّ حال. رأني أمامه، حدّق كأنه يستفسر، لم أمنحه فرصة حقيقية ليسأل عما جاء بي، ألقيت جسدي النحيل المضطرب فوقه، فسقط خرطوم الماء من كفه راثًا في الهواء جناحًا من الماء فتح مروحة فاتنة على الأفق سرعان ما خدمت منفلشة أرضًا، تراجعت خطواته بارتباك المتفاجئ المدعور، أوشك على الوقوع في حقل النعنع، ولكنّه استند إلى جذع شجرة الخوخ. طوّقت جسده المتفاجئ بذراع مسندة ذراعي الأخرى إلى ذات الجذع، خشخش أوراق الشجرة وخربشت أغصانها الرفيعة رأسينا، أطبقت بشفتيّ النّهمتين على شفتيه اللّتين أطلقنا همهمة سريعة وكتمتا آهاً مختنقة بالدهشة وبلحم فمي، تجاهلت طعم العفن الذي امتصصته من فم تناول طعامًا خثرًا. كان يمكن لمن يطلّ من نافذة بيتي على الحديقة أن يرانا، لكنّ نوافذ شقتي لم تلعب هذا الدور يومًا، لم يكن لها لزوم في تهوية أو إضاءة أو رؤية، كأنها عدم. فزع عبد الجليل غير مصدّق اقتحامي المفاجئ والقبلات المحمومة التي اغتصبتها

من فمه المترهل المفزوع، سرعان ما هرسنا جسدينا مستندين إلى جذع الخوخة كما لو أننا نتصارع، غاصت قدمي في الطين الذي عجنه الماء المهدر فوق التراب، وانتبه قبلي إلى أن الأمان خادع تمامًا، يمكن أن يمرّ ابني إذا عاد مبكرًا على غير العادة، أو يحضر ابنه لزيارة أهله وقد أفرج عنه، وسكن بعيدًا، يمكن لزوجته لميس أن تخرج بروبها المنزليّ العتيق حاملة كأسًا من الشاي، همس عبد الجليل مذعورًا وجسده يرتجف لذة: ماذا حدث لك؟ هل جننت؟

تهدّج صوتي وسقطت دموعي وأنا أتمتم: أريد أن نرجع مثل زمان،

ورجعنا.

من قال إنّ ما يموت يموت؟ تقع النساء في الخطيئة مرغبات أو مستمتعَات باسم الحب، أو التسلي أو العازة، هناك عشرات الأسباب التي تبدو منطقية في زمانها وظرفها الخاص، إلا حكايتي، لا تمتلك منطقًا ولا سببًا، في تهوّري الذي حاولت معه اللحاق ببعض شبابي وسرقة المتعة من قلب الخطيئة تفاديت الأحكام الأخلاقية والدينية على نفسي، سألومها وأقرعها فيما بعد كثيرًا؛ ولكن ليس الآن. راقبت بفضول متزايد حديث زميلات العمل، لعلّي أقع على حكاية خيانة زوجية مشابهة، وإلا ما الذي يعجبهنّ في خيانات ديانا وكلينتون؟ على يقين بأنّي لست الأسوأ ولا أنا شريرة، ربما كل المحيطين بي لديهم أسرارهم الغامضة ولكنهم يخفونها بمهارة، تبدو النسوة فاضلات، والرجال نبلاء، يخبرني وسواسي أن الحياة مسرحية مُحكّمة، ووراء الستائر المسدلة خفايا وأكوام من العطن، يستحق العالم بأسره انتقامي، يستحق جسدي نفسه إذلاله، رسمت فلسفة خاصة بي لأحتمل، لأرتضي نفسي الجديدة الجامحة المجنونة.

كنت أبدأ دائمًا مهاجمتي لجسده الكهل المرعوب عند باب بيته غير عابئة بالأوقات، أكثر رعونة منه إبان كان يبدأ بالهجوم قبل سنوات. أندفع نحوه كلّما صعدت الدماء إلى رأسي، في كل الأوقات، وقد يخيل إليّ أنّ عينيًا ترصدنا من الأعلى، بالتحديد من شباك منزلي، حيث النوافذ مغلقة دائمًا والستائر مسدلة، لا أحد في بيتي يقيم علاقة مع النوافذ، مع ذلك، أشعر بعيون خائفة ترصدني ولا ألتفت، هازئة بما يمكن أن يصير: من لديه كلمة ليواجهني.

أتعمّد عناق عبد الجليل عند الباب قبل أن يشدّني إلى الداخل مستعجلًا حاسبًا الساعة المتبقية لعودة لميس من الدرس الديني، وراء الأبواب الساترة وعلى الأرائك استكملنا خطيئتنا المبتورة التي

عرفناها قبل سنوات سبع، لم نكتف بالوقوف على حافة الهاوية ولكننا سقطنا تمامًا ممرّين فيها حتى الجنون.

يهمد جسدي متخلصًا من هيجانه وجوعه، أشعر بالانتصار على العالم، على الوجع، على الحرمان والقيود والتعب. لم تكن علاقتنا الجسدية نموذجية فانتة، بل أقرب إلى صراع حيوانين ينشد أحدهما البقاء بقاء الآخر، فقد جسدي ترف النعومة وتكوراته الفتية، كما ترهل جلد فخذه وصدره وغابت عضلات ذراعيه، ينتهي غالبًا على عجل قبل الوصول للذة النشوة، كأنه لصّ متعجل. لكنني أكتفي من علاقتنا بفجيرة الخطيئة وزهو الانتصار. أعود إلى بيتي أكثر هدوءًا وقد نكّلت بجسدي في سعي العلاقة المثيرة الوجلي.

في الداخل هناك شيء ساكن خائف رغم وشيش التلفاز وصوت المذيعة يهدر عن حملة لتطعيم الأطفال، وكشكشة ورق الصحيفة التي يقلّب ربحي صفحاتها العريضة مخفيًا وجهه، يسترق من زوايتها نظرة منكسرة ندلة. أحقّ في وجهه بوقاحة، أرفع حاجبًا وأرخي الآخر مستنكرة: نعم؟ فيعود إلى صحيفته وأنامله تهتزّ اهتزازًا طفيفًا لا يمكن رصده بسهولة. أقسم أنه يعرف، يعرف ويصمت مثل ديوث غبي.

انشغل ربحي مطوّلًا بمتابعة محاكمة صدام ولم ينتبه لكارثة تحدث في بيتنا، وهو المناط به أن يكون عيبًا خبيرة ترى ما وراء الظاهر، لم يعيش معنا فصل ابنته الباكية النكدة، أنا نفسي ذهلت عنها ولم أع ما تعانيه، كانت قدمي تغوصان في وحل مغامرتي المجنونة، لم أنتبه إلى صفاقة ندى تزداد حدة وهي تصب غضبها وعصبيتها على شقيقتها، تدخل مع نادر في عراك بالأيدي لأسباب تافهة، ترد على كلماتي بسخرية ووقاحة عالية، لم تكن ملاكًا ولكنها لم تكن على هذا المستوى من الشيطانية، رجحت أن الشاعر شطبها من حياته، سيحدث هذا عاجلاً أو آجلاً، تتصرف بكري كنمرة جريحة.

فتحت باب الشقة حاملة علبة من معمول العيد الذي يفترض حلوله غدًا سمعت صياحها الباكي قادمًا من الشقة التي تعطينا، تفقدني هذه البنت صوابي، ما الذي يدفعها نحو شاعرها إذا كانت علاقتها شائكة حدّ الصراخ! تلفتُ حولي محرّجة؛ لكنّ أحدًا لم يكن في حديقة جيراننا بالأسفل، ففكرت في ترك الكعك في المطبخ والصعود إلى الشقة العليا واضعة حدًا للمهزلة، اكتفيت من مخاوفي وتوترتي وصبري على البنت الحمقاء، دفعت الباب بقوة وسمعته يغلق خلفي محدثًا رجّة،

ربحي كعادته يحدّق بالشاشة، تجاهلت تحيّة نور الخائفة، لا بد أنها تسمع تصايح أختها وعشيقها. تركت علبة المعمول فوق المنضدة، وعدت أدراجي حانقة، سأفجّر غضبي في وجه العاشقين الكريهين، سأفتعل فضيحة تطرد الشاب من حجرته المعلّقة فوق رؤوسنا كابوسًا يندر بالخطر. ما إن فتحت الباب حتّى أطلّت ندى أمامي متورّمة العينين بوجه خطّطه الكحل المنساب مع الدموع، أزاحتني بساعدها ودخلت البيت مسرعة إلى حجرتها، كادت تغلق بابها لولا أنّي أسرعت خلفها وثبّته بقدمي. انفلتت إلى سريرها منخرطة في بكاء يهزّ جسدها. تبعتنا نور، أمرتها بالخروج من الحجرة وأغلقت الباب، تدفق رشاش الكلام من فمي مؤنّبًا موبّخًا كاشفًا عن معرفتي بتفاصيل مغامرتها. انقطع هذري حين صاحت: أنت لا تعرفين شيئًا... لا تعرفين.

أيّ هول ينتظرني؟ ابتلعت لساني واقتربت بهدوء يخفي عواصف نفسي، ما هذا الذي لا أعرفه؟

سأجرّ الشاعر من شعره الأشعث وأرغمه على الاقتران بندى، لا شك أنّها غيبية، تركته يودع أحشاءها نطقه ثم ينكرها، لم يعرف بعد طعنات مخاليبي وقدرتي على تقطيع أوصاله بأسناني إذا لزم الأمر. صعدت إلى حجرته، كدت أكسر الباب الخشبيّ طرّفًا وتردّدت أصداء صوتي وأنا أمره بفتح بابه دون جدوى. تبيّنت أنه خرج، لعلّه ولّى هاربًا بمجرد أن غادرته ندى باكية، خاف انكشاف أمره.

لم أنم ليلتها بانتظاره، ترصدت خطواته على الدّرج الحديديّ بانتباه ولم يعد، استقبل زوجي العيد نائحًا كنساء الجنازات البكّيات، يقلّب المحطات التلفازية بحثًا عن محطة تبث مشهد إعدام صدام حسين، ودخلت العيد وأنا أبحث بجنون عن طريقة للوصول إلى الرّجل الذي خدع ابنتي، ولم تفدني أرقام هواتفه المعروفة لدى ندى، كل الخطوط إليه مقطوعة، حتّى عندما سألت عبد الجليل عن المستأجر الهارب، أجابني بكلمات مريرة: ماذا تريد مني؟ تعرفين، لا أعرف اسمه كاملاً، لا أوقع أوراقًا مع المستأجرين ولا أطلبهم بهويّاتهم أو عناوين الأماكن التي يعملون بها، لا أعرف عنه إلا اسمه الأول.

إجابة لا تخلو من الحقارة، كأنّه يشير نحوي، يذكرني بأنه تساهل معنا فلم يطّلع على هويّاتنا ولا كتب عقدًا بيننا، يهينني رغم أنّي أمنحه جسدي، لا يعرف عبد الجليل شيئًا عن الساكنين في بيته، وإن حاول تفسير الأمر على أنه نخوة وبساطة في التعامل وثقة بالناس، إلا أنّني أعرف أنه يتهرب

من ضرائب البيوت المأجرة والتي تفوق بيوت السكن العادية، العالم على وضاعته هذه لا يستحق طفلاً جديداً، سينكل وحش العالم بابنتي بقسوة، وأنا التي شددت شعرها وصفعتها وبصقت في عينيها الباكتين، كنت الوحيدة القادرة على إنقاذها، ولكني لا أملك عصي سحرية، وقبل أن أقودها إلى عيادة الطبيب الجشع الذي اقتنصت اسمه من أحاديث الفضائح المخفية التي تديرها موظفات البنك، اقترضت من عبد الجليل للمرة الأولى منذ عرفته مبلغ ألفي دينار، كانت ثمناً لصمت الطبيب الذي لم يلح بطلب اسم البنت أو والد الجنين الذي أجهضه، عدنا إلى البيت أكثر خفة، نقصنا كائناتنا كان يتشكل خلصة في أحشائها، وأفقنا من كابوس أوشك أن يعصف بحياتنا، وما علينا إلا تسليم ذاكرتنا للنسيان يذبيها رويداً رويداً وهو يشطب ويعدل.

الفقر نفسه يستدعي النسيان ويهبه سلطة تجعله سيّداً، ينسينا خطايانا ويغفر لنا زلاتنا، ويصرفنا إلى الدفاع عن أنفسنا أمام فمه الفاجر الذي يهدد بابتلاعنا. وأنا في سنواتي الأخيرة مع عمل لا يجدي كان عليّ أن أنسى، ولكني لا أتمكن من الإشاحة بوجهي عن فقري كما تشيح الحياة بوجهها عني، تزداد نعمتي، فقد كفيت خيري شرّي، وربطت حياتي بساقية العمل التي تنزّ ماءً لا يروي من عطش، لم أسرق، لم أكذب، لم أختلس، لم أوقع حتّى على كتاب عبد الجليل الذي يطالب بمطب صناعي قبل النقطة العمياء، لم أعترض على وزارة أو ضريبة، لم أسجل اسمي مرشحة أو ناخبة في أية انتخابات هزلية، ولا تباكيت على فلسطين، ولا علقت مفاتيح دار ضاعت هناك، ولا كان يعنيني وادي عربة أو أوصلو، كنت صفراً كبيراً، عشت حياتي فارغة مشفأة تماماً من دهن الكلام ولحم الفكر، لماذا إذا تشيح عني الدنيا وتدفعني دفعاً لمغادرة الموقع الذي أستحقه بجهد وعرقي؟ لماذا ألحق سريعاً بركب الفقراء؟ يلاحقني حظ متاعيس السياسة المعارضين أو المغضوب عليهم، رغم أنّ زوجي كان جرّداً قارصاً بامتياز، هذه الدنيا حقودة تفتقر إلى العدل.

انتظار

هذه امرأة لا رجاء منها، ليس أنني أنتظر رجاءً من أيّ امرأة أخرى في الكون، فالنسوة متشابهاً، يتحوّلن إلى ذئبات ينهشن روحك ثم يرتدين فروة الحمل. تسلّم الأمّهات أنفسهنّ للموت متخلّيات عن أطفالهن لأقذار مجهولة كما فعلت أمّي، فوق هذا؛ عليّ أن أبكيها كولد بار! يمكن للمرأة أن تقوم بدور شيطان يحيل أيامي إلى عذاب وأنا ممتنّ، كما زوجة عمّي، يمكن لهن الإشادة بذكائي وعمق كلماتي والتغزل بعيني في تكاذب متفق عليه، كما فتيات المقاهي الساذجات، وسأكون وحدي الوغد الملام. تصدر الزوجات الوضيعات نحنحة ساخرة مهينة وهن يمنحن النقود، مثلما تفعل زوجتي، تلك التي تتأفف وهي تغسل قدمي ولدها، تتصايح مع ابنتها المراهقة التي لا تقل عنها وضاعة، تصير البنات دماملاً تدمي خلفيات آبائهن.

تتمتع زوجتي بغباء منقطع النظير، لم تقع عيني عليها يوماً تقرأ كتاباً، ولم تحاول لمرة معرفة موقعها من العالم، تراقب الأحداث الجسام بعقل بليد وروح ميتة، تحاول إيهامي بأن وراء إهمالها نظرة فلسفية للحياة، أو قصد لنيم لإغاطتي ومعاقبتي، لكي أعرف أنه طبع أصيل فيها، يتناسب مع مستواها الفكري والثقافي وتركيبها النفسي المتدني، تشهد عليها شفتاها المزمومتان حين تنتظر نحوي بتحد كأنها ستأكلني، رغم أنها بلاطة صماء تماماً، لا ذكاء يسوّغ لها، ولا معرفة تشفع بها، لا يمكنني مثلاً مناقشتها حول مستقبل البلاد والملك الجديد يعتلي العرش، كيف لها أن تفهم مرور العالم بمتغيرات حاسمة، وأن دنيا كاملة ارتحلت وأخرى قادمة؟ مشغولة مثل بخيل في عد النقود التي لا تملكها في بنكها الحقير الذي لم يرفع سوية حياتنا قط، هل تعرف كيف يتشقلب العالم بعد دخول الأمريكان إلى العراق؟ هل تفهم حكاية تغيير دستور سوريا ليتقيف على مقاس الولد الذي سيحكم؟ هل يمكنها استيعاب رحيل الحرس القديم في حياتنا السياسية وتغير الوجوه؟ بالطبع هذا كثير على فهمها، وليست مهمتي إزالة البهامة من ذهنها البليد، أتركها في حالها وتتركني في حالي.

يتوهم الناظر أنّ هدوءًا خادعًا يخيم على شفتينا التي لم نجدد فيها مفرشًا أو مقعدًا، منذ سنوات وأنا أرتشف القهوة المرة السوداء في فناجين مثلومة الجوانب ودون صحون ترفعها، ما ينكسر في بيتنا لا يعوّض، وما يبلى لا يجدد. لا معنى للتجديد ونحن نهرم، مع ذلك أتعامل بروح إيجابية إنسانية أكثر منها، وإن لم يبد ذلك جليًا، أتذكر على فترات متباعدة أنني أب بينما تنسى زوجتي أمومتها تمامًا. أصطحب نادر أحيانًا إلى السوبر ماركت الذي يمتلكه جاري، أملأ جيبه بالسكاكر ونحدث، ما كان أمرًا مستحيلًا بينه وبين أمه، أجيبه على أسئلته الكثيرة التي لا ينصت لها أحد ولا يسمح لها، أقود نور إلى معهدا وأتحسس معها أوراقًا نفرت فيها أحرف بريل، لا أتمكن من قراءتها ولا أفهم كيف تميز نور هذه النتوءات المتقاربة الغامضة، أحاول بين الحين والآخر التذكر بأنني أب كما أذكرهم بهذا الواقع أيضًا، ولا يحق لزوجتي مطالبتني بالمزيد لمجرد أنها تطعمنا من راتبها الهزيل، هذا أقصى ما يجب أن ينتظر مني في نطاق الحياة الزوجية والعائلية التي لم أنجح بالخلاص منها على شدة ما تمنيت، ذلك أنني لم أخلق للمهام المتدنية، ليس هذا دوري في الحياة، ستعرف قيمتي يومًا، ويتغير كل شيء.

أتأمل الزهور التي زرعوها في منتصف شارع 11 أب لتجميله بعد أن غيروا اسمه إلى «شارع الثقافة»، فصار ملتقى الفنانين وباعة الكتب. أطمئن إلى أناقته وسلامة الأرصفة فيه واستواء الإسفلت، ستصحو الشميساني المتكبرة التي لا تريد نسيان برجوازياتها يومًا وهذا الشارع يبدل اسمه في لافتة خطت بالثلث أو الديواني الجميل، بأحرف كبيرة سيكون اسمي، سيحدث هذا يومًا ولو لم تلتفت إليّ المتغيرات حتى اللحظة، ولو لم تشي حالتي بمستقبلي الذي أستحق.

يخرج رجال من السلطة ويدخل غيرهم. كل ملك يأتي برجاله، هذا أمر مفروغ منه وطبيعي، لا تقوتني طبيعة السياسة وأحاط لها كما يلزم ويجب، فقد كنت دائمًا رجلًا لهذا الوطن ولكل الملوك. يحق لي أن أمل بالتقدير وأنا أرى المفتونين بالكراسي الجلدية والجاه والمناصب يتكالبون من كل صوب وحذب؛ رجال المخابرات والسياسيين والمتقنين، أنصاف المثقفين، الشعراء، والحزبيين وأبناء العشائر من شتى المنابت والأصول، الشيوعيين والبعثيين والإخوان، الفتحاويين ورجالات الجبهة الشعبية والمعارضين السابقين ومستقلّين موهوبين مغامرين، نكرات ومشهورين، كلهم يفتسمون كعكة الوزارات والسفارات والبرلمان والمناصب العليا. ورجل مثلي ما زال ينتظر!

تفور المرارة في سقف حلقي كما رغوة في كأس البيرة وأنا أشاهد الأقزام على شاشات التلفاز أو صفحات الجرائد، في الندوات المتفرقة بين المؤسسات المتناثرة في المدينة، يخالطني أمل ويقين. أصبح شعري وأشدبه وأبتاع من قلب البلد بدلة سوداء رسمية أو كحلية داكنة أو رصاصية وربطة عنق بخطوط مائلة، تشبه ربطات جمال عبد الناصر، هي الربطات المفضلة عندي، تعلمت كيف أتأق دافئاً الولد الريفي المعدم فيّ، لا تشي أناقة ملابسي بانخفاض أسعارها، فالهبة تأتي من شخصي تحديداً، أتكلف ثمن عطر فواح من ماركة عالمية، لا أسترخص في عطوري، فالعطر الرخيص مكشوف، كما هو ياسمين نوال العطن الذي تبتاعه من العطارين الشعبيين في جبل الحسين، يتقدم أمني كلما تأخرت البيانات عن إعلان أسماء الوزراء الجدد، فأنا على الأقل قدمت خدمات جليلة خفية وحن زمن مكافأتي عليها، ينفع بالون الأمل عندما يقفون ببذلاتهم الداكنة وربطاتهم المخططة أو الحمراء القانية، مؤدّين اليمين الدستورية دوني، يحبس الغيظ أنفاسي، يخنقني، وتتعالى دقات قلبي احتجاجاً في كل تعديل وزاري، والتعديلات الوزراية متتابعة في بلدنا، كأن كثرتها وجدت لزيادة عدد بدلاتي في الخزانة، ولتعذيبي، لأدور مربوطاً في رحي الأمل واليأس إلى الأبد.

لم تكن توقعاتي مجرد افتراضات حاملة، فنحن في بلاد مسامحة تستخدم أسلوب الجزرة أكثر من رفع العصا، تُكافئ الموالين والذين يخدمون بإخلاص، تحببنا في الخدمة، فكم من المعارضين السياسيين صاروا وزراء، وكم من المخبرين وكتبة التقارير الأمنية كوفئوا على خدماتهم، ووُزّروا، أو طاروا لتمثيلنا في سفارات الخارج، فكيف وقد جمعت الجانبين بجدارة! ينتفع المستفيدون الأشرار من خدماتي وذكائي وثقافتي العالية، فأتقاضى ثلاثين ديناراً زادت مع مرور الزمن والحوافز إلى ستين ثم مائة وخمسين ديناراً، يالبخس ما يقدّرون! ينبهر المعجبون الأوغاد بكلامي لكنهم يصابون في الغالب الأعمّ بملل سريع، ينسون اسمي إذا تعلق الأمر بالغنائم، أو حتى بمجرد الاستمرار بالإعجاب بحديثي المسهب الذي أجيده وأنمقه مستعيناً بقاموس ثقافي ضخم تسنى لي عبر قراءات متفرقة إبان كنت أعمل في المكتبة.

أندم أحياناً على تسليم أوراقى بالكامل لجهات لا تقدر قيمتي، عندما قبضوا على ابن جارنا كريم نهاراً جهاراً، ظننت أنهم سيقدرّون انتباهي، هل كان واحد من أبناء الشميساني المنعنعين الغافلين سينتبه إلى عودة الولد من أفغانستان والتي صار والده يكذب بشأنها قائلاً إنّه عائد من باكستان؟ فليعد من أي مكان في العالم، لن يفوتني ارتداؤه جلباباً قصيراً كاشفاً عن كاحليه، وإطلاق

لحيته وتمتمته بالسلام مشيحًا بوجهه إذا مرّت زوجتي أو بناتي، هذه ليست إشارات عبثية، حتى تلك الطقوس التي أحيتها أمه والنسوة يضربن الدفوف متمايلات، أمر لا يمكن تمريره والسكوت عنه.

لم أسكت. في أعماقي أعرف أنّي أنتقم لنفسي بصورة ما، أرح عبد الجليل من حيث لا يعرف أنني وراء ما وقع لولده، مضت فترة من الركود لم أكتب فيها تقريرًا مميزًا نافعا ولكني فعلت حين كتبت عن تحركات الولد، كنت ذا فائدة حقيقية، وإلا ما الذي جعلهم يقتادونه من بين أحضان أمه الباكية؟ أخرجوه عنوة من البيت، رأيت المشهد من طرف الستارة العبقريّة التي ترفعها أناملتي بحذر لتكشف زيف العالم ومؤامراته. هرول عبد الجليل خلف ولده مرتبكا. للحقّ هذا الجزء هو الأجل من المشهد الدرامي في حديقة جارنا، بماذا يشعر المراهق الكهل وهم يقتادون ولده؟ هل يعترية الألم؟ هل يتذكر خطاياها؟ انقطع المشهد حين دخلت نوال البيت محدقة بي باستنكار صريح، أرخيت الستارة وعدت إلى الأريكة المبعوجة على مقاس جسدي، تمددت ورفعت الصحيفة أمام ناظري لكنّي لم أكن أقرأ، فقط أنتظر مكافأتي على تقريرتي الأخير.

تم التغافل عن إمكانيّاتي مجدداً رغم وقوع الأربعاء الأسود بعد ذلك بقليل، قدتهم إلى عناصر متطرّفة ولكنهم لم يجدوا فيما فعلت ما يستحق المكافأة المجزية، تجاهلوني كما يتجاهل المرء ذبابة.

أستخف بمحاولات زوجتي المتذاكية لقراءتي وتعرية روعي، هيهات، لا أحد يقرّأني حقًا، حين يصدر كتابي المجيد ستعرف مثل سواها قيمتي بعد فوات الأوان ولن يكون هذا نافعا، سيصحو مراد الكراهية في قلبي وأنسى أنّي سامحت وتغاضيت فيما مضى، سيكون حسابي بقدر ندمها، لقد أخطأت في حقي كثيرا.. كثيرا.

مع الكشوفات الطفيفة التي حققتها نوال بدا لها أنها على حق في التخلي عني واحتقاري، بينما تحفر كشوفاتي السرية وجداني على مهل في وجيعة صامتة، تخلت عني كأنها خير مطلق يفارق شرا، وابتلعت أسرارًا تجعل من الأجدى أن أتخلى أنا عنها وأركلها خارج حياتي، ولكني لم أستطع، حلمت بكّي تضغطان عنقها النحيلة، فأحاسب كما يحاسب الذين يرتكبون جرائم الشرف بعقوبات مخففة، فهذا شرفي المثلوم؛ لكني أصحو من كابوسي على صمت يجفّ حلقي ويخنق كلماتي. لم يكن ما بيننا التخلي المتعارف عليه في الحياة الزوجية والذي يقتضي الفراق أو الهجران، واصلنا العيش معًا ظاهريًا بين قضبان الزوجية، إلا أن الهوة صارت بحجم الجحيم؛ لو تمكّن العلم

من قياسه. المساحة التي لا تتعدى ربع حجم السرير باتت قارات تشطر روحينا وتبعد جسدنا عن التلامس، حتى لم أعد أستم رائحة عرقها أو عطرها وهي تتقلب في حيز ضيق وأنا أدير ظهري، ما عادت صورتي تلتصق في بؤبؤ عينيها إذا حكّت أو حكيت، لم يعد كلامي يعجبها، تنظر إليّ باستفزاز مقصود كأنها بنت الباشا، البريئة، الوفية، المرأة الكاملة بلا نقصان! أخت المواسرجي وشوفير التاكسي لم يعد الرجل المثقف يعجبها، هي أيضاً لم تعد تعجبني.

انكسرت روحي وامراتي تتدبّر نفقات الحياة، فتقايض إيجار المسكن بجسدها، ليس على أحد أن يدلّني على المخفيّ، أراه في نظرات اللبوة التي تعود بها من الخارج، في الخيالات وراء الستارة المنزاحة، في انقلاب شفيتها إذا جرّوت على السؤال، لكنه ليس أمراً جارحاً حتى الموت، ذلك أن الموت يزورني تدريجياً.

أتمدّد قضاء معظم أوقاتي خارج البيت، بحثاً عن الرجل الذي كنته. تضاعف وزني واندفع كرشي أمامي قليلاً، فقدت رشاقتي، صرت رجلاً مربوعاً كأن لم أكن فارغ الطول يوماً، رغم ذلك، ما زلت قادراً على العثور على فتيات بريئات ساذجات يبحثن عن مغامرة مع مثقف كبير، أظاهر أنني المنقذ، أمتعهنّ بكاسات الشاي المحلى في المقاهي الرخيصة وأغمرهنّ بالقبلات واللمسات، وقبل أن يكتشفن عجزني أظاهر بالخوف عليهنّ، أنسحب بدهاء ودون تبعات كأن نبلي ردّني وضميري أوجعني. في الماضي كان لي ضمير ينخزني بين حين وآخر. بعد أن شاب شعري شاب ضميري. صرت ذنباً ينهش الدنيا خوف أن تنهشه.

كان بإمكانني كتابة تقرير في جارنا الشاعر العازب؛ إذ أن قصائده حبلى بالمعاني الخبيثة، لا تفوتني دلالات الكلام ولا مرامي الرموز التي يبيثها بين الحروف. في قصائده عنجهية تنمادى على السلطة السياسية، يتذاكى مستخفاً بالخالق، عدا عن اللغة الفاحشة التي تصور مشاهد جنسية فاضحة، يكتمل ثالث المنع في قصائده المتواضعة، يمكنني الإشارة إلى جانب دون آخر أو جمعها كلها في تقرير مزلزل، قلت لنفسى: ماذا سأستفيد؟ لقد نقلت لهم ملخصات الكتب الملعونة وأسهبّت في وصف أجواء المحاضرات والجلسات الحميمة بين المثقفين، قدمت لهم جارنا العائد من أفغانستان على كفوف راحتي، لكنهم تجاهلونى. كنت غاضباً وأنا أقرر عقابهم بترك الشاعر يسرح ويمرح دون رقيب.

للحقّ، وجدت في نفسي حاجة للشاعر، فالجلسات في المقاهي باتت مكلفة، كما ركوب التاكسي من الشميساني إلى جبل اللويبة حيث رابطة الكتاب، أو جبل عمان حيث منتدى شومان، ناهيك عن النزول إلى رأس العين لحضور الفعاليات الثقافية في مركز الحسين، كان لا بد لي من التواجد في الفعاليات والنشاطات وأماكن التّجمع والدرشة لاستكمال تقاريري وللحفاظ على علاقتي الحيوية، إلّا أنّ عمّان صارت تفرض شروطاً برجوازيّة على الحركة، لم تعد باصات النقل العام متاحة ولا سيارات السرفيس التي يحشر فيها الركاب أجسامهم متحمّلين روائح بعضهم بعضاً، لقاء قروش قليلة يدفعونها للتنقل إلى نقاط معلومة، يقولون أن أفراد الشعب عامة اقتنوا السيارات الخاصة لكنني لم أفعل، لقد رفضت نوال بحسم تحميل راتبها عبء قرض بنكي كما يفعل الناس عادة. حدث ذلك في المرحلة التي لم تعد قدامي تطاوعانني على المشي لمسافات طويلة، وصارت نوال تترك على المنضدة الجانبية في حجرة النوم نقوداً شحيحة بالكاد تكفي.

في ظل تردّدي في مجابهة بخلها وعصبيتها، هبط الشاعر من السماء، سأتمكن من الحديث ومعرفة الأخبار العامة والخاصة للكتاب والمفكرين في منزلي ودون كلفة مالية تذكر باستثناء فنجان من القهوة، ناهيك أنه يمثل فرصة معقولة لتجاذب الحديث في منزل لا يفهمني فيه أحد، أعرض عليه بعض ما قرأت وما سمعت وأحدثه عن كتابي المنتظر ونظريتي الفذة في فهم العالم، أسعده بمناقشة قصيدته، ولا أصارحه بتواضع شاعريته ونمطية صورته وركاكة كلماته، خشية فقده. نتحدث في السياسة، وهو مستمع جيد، يجيد هزّ رأسه، ويبتسم على الدوام باحترام وتقدير. جيّد أن أجد وأنا على أريكتي مسترخياً من يعلم أهل بيتي العاقين أصول التقدير والاحترام.

يتنحى معجباً بنظريتي الداهية إلى أننا ودّعنا النضال منذ أغلقنا ملفات الشباب المتهوّرين الحالمين في السبعينات، ولكننا في الثمانينات التي اعتقدناها عقدنا الذهبي الديمقراطي، حكمنا الحكمة على الطريقة الرأسمالية، تفرغنا تدريجياً لحب العيش منسحبين من التفكير بما نسميه الوطن، هكذا وجدنا أنفسنا اليوم معدمين، الحياة الرغيدة التي ضحينا في سبيلها بالقيم والشعارات والبلاد السلبية لم تتحقق، والعيش الكريم المشتى لم يأت كما أردنا، بات مرّاً علقماً. كيف يمكن لشاعر أن لا يعجب بنظرياتي العبقرية، لن أدهش إن ألهمته قصيدة تشفيه من فقر خياله.

وافقني الشاب على احتمال أن تكون أميركا أنتجت حادث البرجين كأحد أفلام هوليوود، ولكنّي رغم قدرتي على قراءة الواقع السياسي للعالم، لم أتخيل أن تصل الأضرار إلى هذه الفداحة

المرعبة، لوهلة صدقت أن هناك مفاجآت ستزلزل العالم، قد تكشف عن قوة ساحقة ماحقة للعرب تجعل الدول الظالمة ترتعد خوفاً، افترضت أن ما يحدث هو البدايات لزوال دولة اسرائيل، سيكتب التاريخ من جديد على أيدينا، إلا أنني وجدته يكتب بالسكين على أجسادنا، شاهدت سقوط بغداد مشدوهاً حائراً راجفاً على الشاشة.

وحيداً في البيت البارد حيث تتبخر زوجتي في اختفاءات غامضة هي وابنتها، لا حسّ إلا حركة لطيفة لمرور نور في طريقها إلى المطبخ، وأنا أختنق ولا أقوى على الصياح، أين يذهب ولدي الصعلوك بعد عودته من المدرسة؟ أين الأم وابنتها؟ أين جاري الشاعر الذي يمكنني الصراخ أمامه مستذكراً التاريخ المجيد وهو يتعفر بتراب الأرض؟ يخجل الرجال من الحديث عن وحدتهم؛ لكنني وحيد وضائع.

يمضي العمر ولا شيء يتغير بالنسبة لي، تعاود الأسعار ارتفاعها وينحسر المد الديمقراطي الزائف، ويخبو أمني كلما تعقدت أحداث الحياة، وتراجع توقعاتي، أسمع ضربات الدفوف في بيت عبد الجليل احتفالاً بالإفراج عن ولده! كأني لم أكتب كلمة في ذلك التقرير، كأني لم أقرع جرس الإنذار.

أنزوي في الظل رويداً رويداً. صار لديهم أجهزة تنصّت ذكية نابت عن أمثالي، ليست أذكى مني، فأنا على الأقل أحلّل، وأربط الأمور بعضها ببعض، لكنه الاستسهال الذي طال كل شيء في الحياة. توقفت عن كتابة التقارير ولم يراجعني أحد كأن كل ما كنت أكتبه لا قيمة له، لن أهتم لخسارة المبلغ التافه الذي أتقاضاه، فالناشطون الجدد وجدوا مصادر تمويل خارجية سخية اشترت أنفاسهم وأصواتهم ومواقفهم وماء وجوههم وتركته في بحبوحة من العيش بينما مضى عمري مثل مسمار صدئ مغروس في عجلة بالكاد تدور؛ لكنّ كتابي الوحيد، كتابي القادم سيغير كل ما كانوا يعرفون.

إنها مرحلة مؤقتة، ما ينتظرني لا شك سيكون بحجم طموحي وقدراتي، صبرت مثل جمل، لكن صبري لا يعني بتاتاً قلة حيلتي، إن لم أكافأ كما أستحق سيكون هناك شأن مختلف، سأفضحهم وأعري فعلهم ما أمكنني. لم تعرفوني بعد، لحمي مرّ، وقلمي سامّ، سأكتب في كتابي القادم فصلاً خاصاً عن رجل المخابرات ومهامه، سيكون بوحاً وقحاً وكشفاً لعورات الناس، وللمستور، عليّ وعلى أعدائي، سأبدأ كتابي بمقولة لإدوارد سعيد، أنسبها إليه ولا أسرقها كما يفعلون، عبارة يستنكر

فيها علاقة المثقف بالسلطة، عند العرب كما في الغرب، فالبشر في كل زمان ومكان يفتقرون إلى ثقافة تتحدى السلطة وتسعى لتحجيمها وتقف في وجهها دون تبجيل.

سأكون أنا أول من يقف في وجه السلطة التي تجاهلتنني، سأجعلكم تعضّون أصابع الندم على إهمالي وتهميشي، سيكون كتابي تقريرًا قاتلاً عنكم، أكشفه للناس، ولطالما كتبت عن الناس لكم. عندها فقط ستننبهون لهول مروري في هذا العالم المجحف، ستنهار الجدران حولي وأمامي، ستحدّقون دهشة ورعبًا وأنا أمر كعاصفة مدمرة.

يمكن لحدث كالقبض على صدام حسين أن يمرضني، في حين أن أحدًا في هذا البيت لا ينتبه، إذا ذكرت الأمر، مرّتين، تمتمت زوجتي الجاهلة قائلة: ليس من بقايا أهلينا!

يا سلام على الفهم العميق! على الجهل الرقيق! ثمّ عن أي أهل تتحدث المصون ابنة الحسب والنسب؟ إخوتها الذين بالكاد نتواصل معهم، حثالة المجتمع الذين باتوا يقيمون أعراس أولادهم المتعلّمين في الفنادق حيث نجلس كاليثامى على مأدبة اللئام؟

بدت نوال معتوهة في تلك الفترة، لا تُبدي أيّ ردّة فعل تجاه الدمار الذي يحيق بالعالم. ما يهمهما هو دمارها الشخصي، ولو كانت تقيم وزنًا للشأن العام لفهمت سبب ارتباكها وعصبيتها التي تنفجر في كل دقيقة كديناميت، في الوقت الذي تنحدر الحياة السياسية فيه، وتحيط المخاوف بنا، لكنها امرأة شديدة الأنانية، لا بد أن ما يعذبها شأن خاص يتعلق بتحركاتها المريبة، أحيانًا يحلو لي أن أفتح قميصي عن صدري وأدعو عليها بالخراب والوجع والدمار كأني عجوز خرفة شديدة الإيمان بدعواتها ولعناتها، لكنني رجل مثقّف لا أتمكن من سلوك دروب العامة، إنه كتابي، كتابي وحده سيعلم الجميع كم أساءوا وانحرفوا ولم يقدروا ما تنعموا به.

هناك إشارات ستسبق الكتاب، كأن أشهد بأم عيني انهيار مؤسسات اقتصادية كبيرة، أراقب تفكّكها وهبوط أسهمها في السوق، توقّف مسيرتها أو إبطاء خطواتها، لا أنكر أنني فرحت حتى النخاع حين تم إغلاق المكتبة التي كنت أعمل بها، الآن يمكن فهم كيفة عمل الكرامة، كما تفعل تجازي، الذين اتهموني بسرقة الكتب وبيعها متحالفين مع غضب السلطة المؤقت عليّ، والذين دفعوا بي كأني لصّ حقير خارج مؤسستهم، وحرموني من راتبي الشحيح لأقع تحت مطرقة زوجتي صاحبة السلطة المالية في البيت. هؤلاء البرجوازيون الذين يجيدون التحدث بالإنجليزية ويرتدون

البدلات الرسمية ويدعون وصلًا بالمتقنين والمساكين والفئات المهمشة، يغلقون المكتب الذي شهد صولاتي وجولاتي، بل تتقاسم رؤوس أموال جديدة مؤسستهم. الحياة تنتقم لي قبل صدور كتابي الذي سيعصف في وجوه الجميع، لا بدّ أن عدلاً لي وحدي بانتظاري. أراه في ذرات الغبار التي تعلق البضائع ورفوف السوبر ماركت الذي يملكه عبد الجليل.

تختلط الأوراق، يحتضر الاقتصاد على مهل، وتتأجج الأزمات الاقتصادية على عجل، وتتوغل روعي بثقل موجه؛ إذ لم أبدأ في كتابة كتابي المنتظر.

يجب الاعتراف بالملل الزاحف إلى حياتي، حيث لا جديد ولا مثير، ليست فناجين القهوة المثلومة وحدها لا تتجدد ولا تتغير، ملابس كذا، وأنا صاحب عشرات البدلات الرسمية وربطات العنق الأنيقة، لم أعد أبتاع أيًا منها، كذلك قمصاني وبيجاماتي ولباسي الداخلي، كثيرًا ما أتصفح ذات الصحيفة التي تصفحتها منذ أيام. لست بانتظار أخبار سعيدة مغايرة، ويمكنني حل الكلمات المتقاطعة وإعادة التأمل فيها لأيام، والمرور على صفحات الرياضة والتسلية بذات الاهتمام الذي أقرأ فيه الصفحة الرئيسية، اهتمام يمرّ في فراغ ما في ذهني، لا تعلق المعلومات ولا تغيب، كذلك أفل مع الكتب القليلة التي أقتنيها، أظّل أعيد قراءتها في طقس دائري يمكنه الاستمرار إلى الأبد دون أن يفضي إلى فهم محدد أو معرفة معينة. تتباعد أوقات ذهابي إلى الحلاق، ويزحف صلح أمامي إلى مقدمة رأسي وتتدلّى شعرات بيض في الجانبين، وأتوقف عن شراء المزيد من زجاجات العطر الفاخرة، قد أرجئ الأمر إلى مناسبة تستحق، إلا أن كل ما يحيط بنا لا يستحق. أعترف أن الأمر ليس مجرد ملل عابر، إنه يتغلغل في عظامي وهي تضعف، يصير جزءًا أصيلًا مني، ويمتزج بالانكسار الذي لم يبارحني منذ تدلت رقبة الرئيس العراقي من حبل المشنقة ومضت الحياة كأن شيئًا لم يكن ولن يكون.

يصعب فهم ما وقع لي، فقد بدأت حياتي الحافلة بالمغامرات بالقيام بمهام سياسية سرية، لم أتردد في مراقبة الطلبة البعثيين والشيوعيين، والإسلاميين، لا شك أن الاستدعاءات التي تحيط بهم والسنوات التي مكثوها في الزنازين كانت بفعل أوراق وتقرير السرية، ولكّني اليوم حزين على ما حدث، منكسر خائف وحيد. بفضل حدسي السياسي الخاص الذي لم يفارقني رغم هزيمة روعي، يمكنني التأكد أنّ هولا ودمارًا ينتظر العالم، لن ينجو أحد. وأعرف أنّ أمرًا خطيرًا يحدث في

عائلتي، ولكني متعب لا أقوى على كشف ما يدور، ولا أريد معرفة ما يدور، بل إنني في لحظات
انسحابي أعتقد أن العالم كله يستحق التراجع على حبل المشنقة.

جسيم

كبرت العمياء لتصير بنتًا جميلة، شعرها ناعم، مرتّب في كل الأحوال، تقصه أمي كل عام ليظل ملامسًا كتفيتها، لا أتذكر أن أمي قصت شعري أو صففته في يوم من الأيام، عدا عن انتقادها المستمر لما تسميه الكُشّة، ماذا تتوقع من شعر منفوش خشن؟ ألمّه أو أنفله، يتقطع بين شد البكل المطاطية وأسنان الفرشاة الحديدية، بينما تقبع نور في مقعدها متوسّدة حجر أمي في المقعد الملاصق، تثير لحظاتها الدافئة اشمئزازي. عرض رخيص لعواطف أشكّ أنّها مرّت على قلب نوال، وإن كانت البنت التي لا ترى تظن عكس هذا، بينما لا يسهل خداعي ولا ابتزازي باللمسات والكلمات المنمقة، تتسع الهوة بيننا، بل بيني وبين الكون.

أتعمد إخبار نور أنني أقوم بطلاء أظفاري بلون بهي يميل إلى احمرار وحشي، يجف اللون سريعًا فوق أظفاري، فأكثفه بضربة ثانية من فرشاة صغيرة، وأنا أرقبها من داخل الحُجرة جالسة جلستها المفضلة في المقعد على الشرفة، يتسلل هواء بارد إلى الحجرة وتبدو شقيقتي مستمتعة بلمساته على وجنتيها، يا للمخلوق الهائم في أحلامه، السابح في عالمه، كأنها ليست جزءًا أصيلًا من بيت يفور كالمرجل دون أن يلحظ أحد عفاريت الكراهية والضجر والنفور تتعارك في أرجائه، محظوظة تلك العمياء، ومحبوبة وهي ترتدي مسوح الطيبات الناعمة. مخلوق نقي، صافٍ مثل جوهرة، شفاف كما قطع الكريستال المتألّئة وراء واجهة الجواهر هي الذي حصن محله المكتظ بالمزيف المختلط بالحقيقي بجهاز إنذار وكاميرا تمنع الأوباش مثلي من الاقتراب، وحدي من يشك بهذا الكمال، الشك يقضم اكتمال محبتي لشقيقتي العمياء.

كأنّ الشّرفة خصّصت لها، لا أحد يستخدمها سواها، لكني في بعض الليالي الربيعية الدافئة، أخرج إليها والبيت يغطّ في نوم ثقيل كالموت، أقبع في نفس الكرسي الخاص بنور، ينزلق جسدي

قليلاً حيث لن يراني الناظر إلى الشرفة، أمد رأسي بحذر إلى الشارع المارّ خلف البناية حيث تلوذ سيارات غريبة بالأشجار محتمية بعتمة الليل، كثيراً ما أرصد سيارة متوقفة، تبدو خيالات الركاب من وراء النوافذ المغلقة تتحرك، تظهر وتغيب. عاشقان يكملان لهفتهما في سيارة بعد منتصف الليل، لا يسمح لي سقف السيارة المعدني باستكمال المشهد، لكني أتخيل في مكمني ما يحدث على المقعد الجلدي في قلب قفص المعدن، أسمع أنفاسهما تتهدج بانتظام مع أنفاسي، وتهتزّ السيارة مع اهتزاز أطرافي، يمرّ عابر في الطريق فتضيء السيارة مصابيحها ويهدر محركها في سكون الليل وتقلع تاركة لي هبوطاً يأخذ أنفاسي لوهلة ويعيدها.

لا أقيم عرفاناً للأشياء الصغيرة العابرة وأنا أمارس غضبي، كأن تسعى أمي عند أحد معارفها لإيجاد عمل لي، وظيفة لا تحتاج إلى شهادات ولا كفاءات ولا ذكاء، أفسّر حراكها على أنه استصغار لشأني بعد أن عثرت لي على عمل متواضع في عيادة طبيب، لست مساعدة الطبيب ولا الممرضة، ولكنني مجرد فتاة منكوشة الرأس تردّ على المرضى وتسجل المواعيد. ذكاء أمي وحسابها الدقيق يدفعانها للحرص على أن تكون العيادة في الشميساني، فالنفود الشحيحة التي أتقاضاها لا تحتل تضيقها على ركوب التاكسي الصفراء، ورغم أن نوال بدت مزهّوة بما حقّقته لي فإني لم أكرث، لا يمكن نسيان أنها أمّ لم تمشط شعري لمرة، أم نظمت أدراج ابنتها العمياء، وتركت ثيابي متناثرة على الأرضية والمقاعد، كما حاجيات البيت مكومة في الزوايا المغبرة، والأواني مكومة في حوض المطبخ يشوبها العفن، في لحظات الغضب والصراع المتواصل يمكنني اتهامها بإيجاد عمل لي لترتاح من مصروفي الخاص فحسب.

ازدادت مرارة الصّراع بيننا منذ عرفت كامل؛ تسمّي أمي الشاعر، ويسمّي أبي المتشاعر، لا يعني هذا، بالنسبة لي كان ذراعين قادرتين على احتواء روعي الممزّقة، حضناً ألجأ إليه في وحدتي، ودليلاً ملهماً على أنّ لي قلباً يخفق وأني لا أشبه جفاف أمي ولا جفاء أبي. كان العالم الذي كسر القضبان وهي تلتف حولي ضجراً ويأساً. لم أتقن فعل ما يبعدني عن الملل، وتظاهرت بأني هكذا وجدت، بلا خيارات، خائفة من الطيران أو السباحة أو الرقص، تعمّدت أن أصير عموداً مثبّناً في وحل الضجر، أتسلى بكراهية الفراشات التي تعبر والعصافير التي ترفرف بجناحيها. كيف إذن أتجاهل الشاعر. يشعلني وهو جالس على أريكة ميتة في بيتنا الباهت؟

التقت نظرانا وتمتم بـ«شكرًا» مرتجة من شفاه تبتسم بمقدار ضئيل، أفهمه وحدي وأنا أقدم له فنجان القهوة المرة، يتناولها مرة، كذلك صار يفعل أبي منذ اكتشف أنه يعاني من ارتفاع طفيف في السكري، لكن قهوة كمال للمزاج، للإحساس الكامل بذائقة القهوة على شفتيه المكتنزتين، حين كانت أمي تنسى شراء القهوة كنت أبتاعها من مرتبي الضئيل، أريدها أن تنتهي مني إلى شفتيه. أترصد شكرًا المرتعشة لأفسرها كما يحلو لي. أعرف أنني أربكته، فعلت أمورًا لم أعتدها سابقًا من أجل جذب انتباهه، لست امرأة جميلة ولكني صبية في منتصف العشرينيات، أثير انتباه الفتيان الذين يتسكعون على أرصفة الشّميساني. لاحقني في الماضي فتى يقود المرسيدس. كلُّ ما أحتاحه فرشة رقيقة بشعري، ولون يخفف اللطخات السمراء التي تركتها الشمس على وجنتي، ومشية متأنية، لا ينثني فيها جسدي لكنه لا يستقيم، نظرة جريئة مباشرة في قلب عينيه توقظه من غفلته. سحلتني كلماته المرصوفة بوقعها الموسيقي المرتبك، نظراته المتقافزة وأبي يحدثه في أمور سخيفة، لا شكّ عندي في أنه يحتمل المحاضرات الطويلة المقدّدة من أجل مروري المتكرّر أمامه، ويلقي قصائده بين يدي أبي لي، وحدي، لا أفهم في الشعر ولكني أفهم بالشاعر، هذه الرسالة الواضحة التي طارت إليه في صالة بيتنا المتواضعة، هي التي جعلته يتلّكأ كلّما عاد من الخارج مارًا بباب بيتنا، أفتح باب الشّقة كأنني وراءه تمامًا، وألقي سلامًا بصوت خفيض يمكن تفسيره بالحَيّ أو تشجيعًا خفيًا تعمّده وأنا أتربّص به راجعًا إلى حجرته بالأعلى. رسائل نظراتي جليّة لا يمكن تفسيرها بغير دلالتها، ولا يعوزه الذكاء، أنتظر فقط دعوة مباشرة منه كي أتبعه بلا قيد أو شرط أو حذر على السلم الذي يخرج من رحم درجنا الحديدي واصلًا إلى شقّته. ظننتها سابقًا شقة متكاملة، لم تكن أكثر من حجرة متّسعة بعض الشيء كي تفي بكل احتياج ساكنها، حجرة نومه المضطّربة وخزائنه مبعثرة الثياب، وكتبه المتناثرة في أرجائها، كانت بانتظاري، وفي الزاوية فرن كهربائي صغير متّسخ وطنجرة ومقلاة، وصحون عتيقة وكاسات، تُرك في أسفلها صبغ شاي لم يُغسل. لم يبد عليه الخجل من حالة حجرته المخزية، على العكس راح يختال مثل الطاووس الذي شاهده في حديقة الطيور، يعرف أنه أوقع بأنثاه، ورغم أنني أعرف أيضًا، إلا أنني لم أكن على عجلة من أمري، لا تدلّلاً ولا خوفًا ولا تردّدًا، أردت فقط ترك بصماتي في الحجرة المضطّربة، كأنّ أغسل الصحون والكاسات؛ أصفّ الكتب على رفّ؛ أُلقي غُلب الطعام المفتوحة في كيس أربطه جيدًا قبل التخلّص منه؛ أمسّد بكفي ملاءة السرير وأقلب المخدة على وجهها الآخر، قد أبتاع ملاءة جديدة، ثم أقول: أنا لك.

أفيض بالآهات والدموع كلما ضمّني مُنهيًا سنوات من جفاف العمر، أحدثه بلوعة عن أمّ لم تمسّط شعري وأب يكذب كما يتنفّس، وأخ تائه يمارس كل موبقات الدنيا، وأخت تستعطف الدّنيا بعماها وتبدو مثل كذبة شديدة المثالية لا يمكن تصديقها. حدّثته عن الفتى الذي غدر بي وسافر إلى أميركا، عن أبناء خالي الذين صاروا رجالًا محترمين بعد أن تحرّشوا بطفولتي، ثرثرت كثيرًا وهو يركز على حوار جسدينا. لم يسبب هذا لي جرحًا فجسي مثل جسده يفتقر إلى من يحنو عليه ويمنحه لذّته، مشكلتي الوحيدة في علاقتي بكمال كانت أمّي.

في مساحة ضيقة كتلك التي تجمعني بكمال لا يمكن أن لا تكون أمّي تنبّهت منذ البداية إلى علاقتي بجاري، أفهم من نظراتها وتعبير فكّيها أنها رأنتني وأنا أصعد إلى حجرته. لم تَسعَ إلى خلخلة اكتمال العلاقة، لعلها مثل كل الأمهات تترك كوّة من نفس لابنتها كي تجد عريسًا، خاصّة إذا لم تكن جميلة كحالي، ولكنّي حقًا منذ عرفت الذوبان في أحضانه، شعرت أنني ملكة جمال الكون، امرأة حقيقية، لا أبحث عن عريس بصورة بائسة، ولكن عن حبيب، ربما كما تقول البدويّات في المسلسلات: وليف.

تصعدت حمّى العلاقة بيننا، وهي الحمّى التي استشرت في البناء القديم الميت الذي نقطنه، تسابقنا أنا وأمّي إلى البحث عن دواء لروحين مريضتين، أنا إلى الأعلى وهي إلى الأسفل، لذلك المفهوم عندي تفسير عبقرى، فعلاقتي تسمو وعلاقتها واطية، وهي السرّ الوحيد الذي لم أتبادل مع كمال، لعلّه يعرفه، ولكنّه لن يواجهني به، إلا أنّ وطأة سرها دفعتني للتّماذي في سرّي. شابت علاقتي الروحية الجسدية العظيمة أطياف من محاولة الانتقام، وفي غمرة اللهب الذي يمزّقني غفلت أو تغافلت لرغبات خفيّة في أعماقي عن النتيجة الحتمية لاتّحاد جسد الرجل والمرأة.

كان يكثر من سؤالي: هل تعدّين أيّام خصوبتك؟

وأجيب: أعدّها.

لكنّي لم أكن واثقة، أو مهتمة، وربّما كنت مهتمة بتلك الحتميّة أن تقع، لا أملك تفسيرًا لحالي، لأنّي لم أعِ حالتي تمامًا، فقد حولتني المتعة إلى مهووسة بالرّعشات واضطراب خفقان القلب وشَمّ الثّعرق الناجم عن عنف وطول لقاء. هكذا أقنعت نفسي أن شيئًا عدا تلك اللذة لا يستحق الالتفات إليه، وأن أمرًا عدا ذلك التعلّق والوجد والأشواق لا معنى له، كنت أعيش الحياة كما يجدر

بها أن تعاش، حتى مكابح السيارات الزاعقة في الشارع الذي يقبع خلفنا لم تكن تملك فكاكنا إذا التحمنا، تغلغل فيّ حتى بتّ أظننا واحدًا، تصيبني الدّهشة إذا افتككنا، علاقة أرحل عبرها إلى زمن ومكان مغاير مُدهش لا يشبه الواقع بتاتًا. لم أفايض علاقتي برضا أمي أو إمكانية الفضيحة في العمارة «المحترمة»، قرّرت أن ليس لامرئ من الخليفة أمر عليّ ولا نهى، كما لو أنّي أخلّق حيث لا طرق ولا شوارع ولا إشارات ولا عقبات، فإذا عدت لزوم الضرورة إلى بيتنا كان مزاجي رائعًا معتدلًا، يتيح لي مضاحكة شقيقتي وإغاطة شقيقي بودّ، وخدمة أبي بإخلاص، لكنها أمي التي تستبطن أن يقرع الشاعر باب بيتنا طالبًا عروسه، تتعنّت بعد أن تركت الطريق معبدًا، تتزمت بعد استهانة، لا تستطيع القبض بكفيها على جناحي طائرها الذي تمرّد وانطلق، تسوق كلّ المسوّغات التي يعرفها الناس، العيب والحرام، الصح والخطأ، ما يجوز وما لا يجوز، قسوة المجتمع ووعده جهنم للخطاة. إي والله تجرؤ أمي التي تتسلّل إلى الحديقة التّحتيّة على تهديدي بالجحيم! أليست هذه كوميديا مضحكة؟ يحقّ لي الضحك طويلاً.

زوّدتني بهاتف محمول لتتابعني، أردّ على مكالماتها عندما أرغب، أقفل خطّي إذا مللت ملاحظتها، أملك حياتي بيدي، أعيشها كما أريد، وليذهب الناس كلهم إلى الجحيم.

لكلّ منّا جحيمه الخاصّ، كما جنّته، وقد كان جنّتي دون طمع بأنهار ولا ثمار، هي فقط تلك اللحظات الدافئة التي لم يمنحني إياها عمري الذي كان طويلاً مملاً، ليس في ذهني أوهام أمي وأمانيتها ومكائدها، ولا قياسات المجتمع وأحكامه، لهذا لم أفزع حين غابت دورتي الشهرية، لا شيء يمكنه العبث بالوهج الذي دخل حياتي.

نقلت الخبر لكمال بمثل البساطة التي أحسّها، لم أكن ساذجة أبداً، فالأمر كما يريد، إذا ظنّ أنّ الزّواج ممكن لإسكات الناس فلا بأس، وإذا ظنّ أنّ الإجهاض ضرورة فإنني لا أمانع، لم تكن المجادلة في نيّتي، الأمر في غاية البساطة، نتصرّف في تلك العقبة الصغيرة ونواصل بهجتنا العارمة.

لكنّ لفظة الزّواج أشعلت الحرب كما لو أشعلنا عود ثقاب في بركة نפט ساكنة، كرّرت مرّات عديدة فكرتي: لا ألزمك ولا أرغمك هو خيارك؛ لكنّه واصل الصراخ الهستيري: ماذا تظنّين؟ لا يمكن، هل جننت؟ قلت أنّك تعدّين! هذه حيلة، تخدعيني! لا يمكنني تأسيس أسرة.

جرح قلبي اعتقاده أنني أحتال عليه، ولكنني ابتلعت الإهانة عازمة على التوضيح فزدت الطين بلة: لا أريد شيئاً، يمكننا العيش بمرتبتي هنا في هذه الحجرة دون زيادات.

دفعني بقبضته وتحول وجهه الحبيب إلى غضب شيطاني لم أعرفه فيه. علا صوته مجدداً وقفز في مكانه، لوهلة خفت أن يصاب بسكتة قاتلة، كل ما أبغيه تهدئة خاطره.

- لا تتطلي عليّ ألا عيب الحريم، فرطت بشرفك باختيارك، لم أرغمك، هل أرغمتك؟ تدبري نفسك، أنا أصلاً غير متأكد أنك حبلى مني، نعم، كيف أعرف؟ كنت سهلة هنا، ويمكنك فتح ساقيك في أي مكان آخر.

انتقل جنونه إليّ، لم أكن البتول البريئة، ولكنني لست داعرة، لم أنتظر من الذراعين الحانيتين أن تنطويا على خراب روعي كهذا. تصايحنا كمجنونين متناسيين أننا مُحاطان ببيوت وشارع، أهل وجيران. أصابني جنون مُطلق، أوشكنا على التشابك بالأيدي، ولكنه عاود دفعي فاتحاً باب حجرته، وفجأة وجدت نفسي أعلى الدرج الذي كان مقدساً وقد انغلق بابه دوني، دققت الباب بعنف وسمعت سبابه البذيء، لوهلة رأيت الحلّ النَّاجع أمامي، سأرمي بجسدي من أعلى السلم إلى أرض الحديقة، وليكن ما يكون، ردّتي الفرع عن نيتي، فاندفعت مختنقة بدموعي هابطة بيتنا، وقبل أن تمتدّ يدي لفتح بابنا كانت أمي قد فتحت من الداخل وحدّقت بي بعينين حمراوين متسعيتين ووجهه يرفج غضباً، وأظنّها تفاجأت بي إلا أنها تبعثني بحزم إلى الحجرة، لا أذكر حقاً إذا ما كانت نور في الحجرة أو خارجها، إذا ما كان أبي وأخي في البيت أم خارجه، إذا ضربتني أمي أم ربتت على رأسي الذليل، كل ما أعرفه أنني أخبرتها، لا أتذكر الكلمات، ولا أعرف حقاً هل شرحت لها بالتفصيل ما دار بيني وبين من تسميه الشاعر أم أنها اكتفت بالإيجاز الذي يعطي النتيجة، كنت ضائعة تماماً، وتركها تنفّلت من البيت كقطّة شرسة توحّشت، خرجت بحثاً عنه، ولم أفهم كيف في تلك اللحظات القصيرة تمكّن من وضع بعض ثيابه في حقيبة والخروج تاركاً خلفه كتبه التي رتبتّها على الرّفّ وأصيص أهديته له تنبت منه زهرة بيضاء، حتّى تلك اللحظة كنت أراهن على رجوعه وتراهن أمي أنّه فرّ بلا رجعة، هكذا تكون النّذالة إذن؟ لا تشبه بأيّ حال من الأحوال فرار طارق قبل سنوات، كأني استيقظت من غفلتي لأجد نفسي بين فكّي ضبع يمكنه الفتك بي، جرّبت الذعر الحقيقي، والوجع الذي يحثّ جدران القلب كحد سكين، والمقت الذي يفيض من أعماقي لأنقياً العالم كله، وللعجب فإن تلك

المسافة الشاسعة التي باعدتني عن أمي منذ طفولتي كانت جسري الوحيد لعبور الويل ولاستمرار الحياة.

بحثت نوال الشجاعة عن الهارب بجديّة ثم حين لم تعثر له على أثر انقلبت إلى نمرة مجنونة عاقلة تعرف أين تمضي، خططت بسرية كاملة وصحبتني إلى العيادة لأتخلّص من عاره، ولا أقول عاري، فقد رأيت في وضاعته ما يفوق خطيئتي وغبائي. وافق هذا اليوم عيد، الشوارع خالية إلا من سيارات قليلة وأطفال يرتدون ثيابًا جديدة، والعيادات مغلقة إلا تلك التي سترتكب جناية سرّيّة، والناس يتفرّجون في الشاشة على ما تسرب من لقطات أو تسجيلات لإعدام صدام حسين، لم يلتفت إلينا أحد وأنا أعدم روحًا في أحشائي، وأعود واهنة ذاهلة كما العائد من الموت، لم أسأل أمي كيف تدبّرت تكلفة الإجهاض وما تلاه من إخفاء آثار الاختراق لجسدي الواهن، تنبّهت إلى أننا جميعنا لم نسألها يومًا كيف كانت تقاتل وحيدة في دنيا غولة تققات منّا لولاها. عادت بي أمي التي اكتشفتها كأني لم أعرفها بتاتًا، حفظت سرّي عن أبي وأخوتي، شدّت أذني جيّدًا بلا رحمة وهي تشرح لي ضرورة موت السرّ في نفسي تمامًا، فلا أمنحه لزوج مستقبلي أو صديقة أو حبيب، بل لا أذكر به نفسي المنكسرة، وأتلم كيف أشطبه من ذاكرتي وحياتي إلى الأبد، هدّدتني بحزم أنها ستقتلني بكفّيها لو استسلمت لأحزان مائعة كذلك التي تبثّها الأغاني.

الدرس الأول الذي تعلمته من نوال، ولكنه يكفيني لأواجه به الحياة التي خذلنتني وما سلمت نفسي لخذلانها.

سوبر ماركت

فقدت زهوي بمحلي الذي ظننته كبيراً في الماضي، أخجل أن أسميه سوبر ماركت كما فعلت لسنوات طويلة، فالمساحة المحدودة التي لم يكن لها أن تتوسّع على حساب المحلات المجاورة وإن اتّسعت لمختلف البضائع المتعارف عليها، إلا أنها تضيق. هناك عشرات الشركات التي تستورد علامات تجارية لا عد لها ولا حصر، يمكنني جلب علب الفول المعدنية فإذا انتهيت من ترتيبها طالبت زبوناتي بالفول من إنتاج شركة مغايرة. سيّدات عمّان أصبحن متطلّبات، تعجبهنّ الأسماء الأجنبية، تتغير أمزجتهن ولا شك يتبع ذلك تغير بل انقلاب في طرق المعيشة في بيوتهن، لا أحتاج إلى الدخول إلى مطابخهن ومبادلتهن الزيارات الاجتماعية لأعرف أنهن لا يجهزن المائدة التقليدية، يكفيني أنهن يكثرن من طلب كريمة الطبخ وأنواع المعكرونة التي تحمل كل واحدة منها اسماً إيطالياً، عدا عن تلك المكونات التي يصنعن بها طبقاً صينيّاً، صوص الصويا وخلّ (البلسمك)، إنه سباق يقطع الأنفاس، أحياناً أشعر أنني لن أقوى على المواصلة في محلي. أحرصتني الدهشة حين دخلت المجمع التجاري الذي أقيم مقابل مجمع النقابات، كاد يغمي عليّ وأنا اكتشف ضالة محلي، خفقتني سعة الممرات في المجمع الجديد، لم تكن هناك أيّ أتربة تعلو العلب المعدنية أو الكرتونية ولا حتى الأرفف الخشبية، كل شيء لامع ومغر وجاهز للبيع، الأسعار المطبوعة على ملصقات البضائع تفوق الأسعار في محلي بالضعف أحياناً ولكن النسوة يبتعن وهن مبتسمات، وتقف العائلات في طوابير طويلة أمام صبيّة لطيفة طلّت رموشها بالأسود الكثيف. يدفعون قيمة فواتيرهم الطويلة التي يسحبها جهاز قابع أمام الفتاة، لا يجادلون ولا يطلبون تخفيضاً أو يرجئون الدفع إلى حين نزول الرواتب.

تشقلب العالم بلا شك، وبدأت أفقد قدرتي على مجازاة ما يتغير ويكون، استعنت بشابّين مصريّين يرتبان المحلّ ويتعاملان مع المشتريين، وصرت أخلد إلى مزيد من الراحة في البيت، لا

يعني هذا أنّي أهملت شؤون محلي، ولكنني لم أعد ألتزم بالأوقات التي أقضيها فيه، قد أفاجئ العاملين بزيارة صباحية، أو أقضي معهما فترة بعد الظهر حتى المساء. ساعدني هذا على ضبطهما، كانا حريصين على العمل توقّعاً لهبوطي إلى المحل في أي لحظة.

خفّف وجودي في المنزل من ممارسات لميس التي تشبه الشعوذة. بتّ رجلاً صعباً، لا أوافق على اكتظاظ بيتنا بالنسوة في جلابيهن في كل الأوقات، ولا شكّ في أنّ اعتراضي دفع زوجتي للخروج للالتحاق بصويحباتها. صارت تتردّد بانتظام على دروس دينيّة وأراها تعود بملابس الصلاة من المسجد فأتعجّب كيف سارت في الطرقات ترتدي ثياباً لا تليق إلا بالبيت، كان يمكن لهذا الموضوع أن يخلق مشكلة حقيقية بيننا، فقد عندت وهي تتشبّث بأنّ ثياباً تقابل بها الخالق لا نستحي منها من المخلوق، خاطبتني كطفل أبله قائلة: الله يهديك.

يهدينا جميعاً، لم أعُد راغباً في المناكفة فلتفعل ما يحلو لها، وأفعل ما يريح أعصابي. التّغاضي عن الخلل في البيت الكبير مفيد لحالتي، وللحقّ أنّ خروج زوجتي الدائم أتاح لي مساحة من الراحة والوحدة الرائقة. تعهّدت حديقتي بالمتابعة والرعاية، أسقي ما جفّ ترابه وأشدّب ما نمت أشواكه وحشائشه، أقلم الأغصان وأرّش الشجر، أطارد النمل في الشقوق، أسدّها كلّ حين بإسمنت وطلاء فتتجدد. في فراغي وجدت وقتاً لملاقة الشاب الذي جاء لاستئجار الحجرة في أعلى المنزل، وللذهاب أسبوعياً إلى أمانة العاصمة وتقديم الشكاوي من أجل إقامة مطب على الطريق الذي تكثر فيه الحوادث وراء بيتنا. أعجبتني تغيّر مهامّي نسبياً. لست مضطراً للوقوف وراء طاولتي بانتظار الزبائن ومندوبي الشركات، ولا لتفقد الرّفوف عن البضائع التالفة، وصلت إلى مفترق طرق في حياتي بين مرحلة العطاء والإنجاز والراحة.

قلت لمساعدتي المصريّ إنّني غير راض عن الأغبرة على الرفوف العلوية، ولعلي أفضت وأنا ألومه وأقارن بين المحلات الوضاعة ومحلي، لم يجادلني كعادته مكتفياً بسحب كرسي اعتلاه ممسكاً بفوطة متسخة ماسحاً بها الأغبرة محرّكاً علب الشاي من مكانها، لا أعرف لماذا كانت علب الشاي ذاتها أكثر أناقة وإغراء في المجمع التجاري، هل يمكن لنظرة متفحصة أن تكشف الخلل وتدلني على طريقة أعيد فيها الحياة إلى المحل الذي صار عتيقاً متعباً؟ يشبهني.

انشغلت بمراقبة مساعدتي ولم أنتبه للمدخل، لكنني شعرت بوجوده خلفي، لا أتوقّع المفاجآت في حياتي الراكدة، فالأيام تتشابه كحبّات المسبحة، التفت لأتأكد من حدسي، كان الرجل واقفاً خلفي

مرتديًا جلبابًا قصيرًا وحذاءً منزليًا، وقد غطت ملامحه لحية كثّة، لم أغفل عن الحقيبة الكبيرة التي وضعها أرضًا بارتياح، لا أعرف إذا ابتسم أو لم يفعل، لكنني احتجت دقيقتين لأتفحص الوجه الذي لم أعرفه، في أعماقي أظن أنني عرفت الرجل، ولكنني لم أترعرع، قد يشبه شخصًا أعرفه، ولكن التأكد من وجه مغطى بالشعر بهذه الكثافة لم يكن سهلاً. همس بعد الدقيقتين كما لو كان مرهقًا أو عائبًا: أبي.

تخرج الأصوات من بئر عتيقة، أسمعها متبوعة بالصدى، كما لو أن طفل الأمس البعيد المنسي ينادي مثلما في الماضي: بابا... بابا...

لا شك في أنّ في علاقتنا مساحة مهملة منسيّة يمكننا فيها أن نتنادى بابا... كرومة... ذلك الطفل الذي أيقظه النداء وجاء به من النسيان لم يكن يشبه الرجل الواقف قبالي، إلا أنّ قلبي اهتز واضطربت الأنفاس في صدري، وانفتحت ذراعي في لهفة ونحن نقترّب بتلقائية لم أظنها تحدث لي بالتحديد معه، عانقته راجفًا سعيدًا وقبّلته بحرارة وتلقّيت قبلاته كأني أعود من سفر. تلك لحظات ثمينة يمكننا فيها أن نصير أبًا وابنه.

منذ أن غادرنا كريم إلى أفغانستان وأنا أتجاهل وحدتي وشعوري باليتم، ليس أنّ الفتى كان أبًا بارًا، فقد حمّلني ما لا أطيق، ولا شك في أنّي كرهته أحيانًا، وانقطعت التّيارات التي يمكنها تشكيل عواطف عائلية طبيعيّة بيننا. حدث ذلك قبل سفره، بل إنّني أخفيت في باطني راحة غمرتني حين اختفى من حياتنا. تخلّصت من المنعصات اليوميّة والشّدّ والجذب والخيبات والخزي المتكرّر، ورغم أنّي لم أفهم ماذا يمكن لشاب ضالّ مثله أن يفعل في جبال أفغانستان، إلا أنّ هذا بدا حلًّا رحيماً بي، يكفي أن أجم عواطف زوجتي المهذرة وأمنعها من البكاء كما لو كانت ثكلى. اتهمّنتي بالقسوة إذ كلّما تذكّرت ولدها أنبتها قامعًا سيل الدموع والقلق والرجاء، لكنّه الآن وبعد غياب سنوات يعود كأنّه جاء من زمان بعيد. هيئته تساعدني على استكمال إحساسي. أدهشني أنه ظنّ عودته المباشرة إلى البيت ستكون مفاجأة عواقبها وخيمة، صحيح أنّ قلبي اهتزّ لدقائق وذراعي انطبقتا حول جسده النحيل بلهفة؛ لكنّ الأمر لن يزيد عن ذلك سواء كنّا في المحل أو البيت، ربما يتعلق ظنه بأمه وحدها، قد لا تحتمل ظهوره المفاجيء من العدم.

مهّدت لها الخبر في اتّصال هاتفيّ، منحتها ولدها بالتفسيط، نقلت سمّاعة الهاتف من يدي إلى يده، ها هو صوته أوّلًا يتيح لها فرصة استيعاب عودته والتّهيؤ للقائه. سمعت نشيجها وصياحها عبر

الهاتف، وعاد إليّ هدوئي، أغلقنا الهاتف، وهالني أن دموعاً انهمرت من عينيه تخللت شعر لحيته المشعثة. وحدي من برّدت مباحجه سريعاً وبدأ يتساءل.

لست قاسياً كما تتّهمني لميس، ولكنّي لم أستبدل ولدي الذي أعرفه بهذا الذي عاد، والذي أشك بكل كلمة يقولها. لن أهاجمه بالأسئلة الشائكة التي اقتاتت منا على مدى سنوات، ماذا كان يفعل في أفغانستان؟ لا تستقيم فكرة الجهاد بعقلي العملي؛ ولكنّها لا تستقيم بتأتاً مع شخصية كريم، فالرجل الذي انحنى يقبل كفيّ أمه يثير شكّي وفزعي في آن، ثمّ، ماذا علينا أن نقول حول هيئته المنبعثة من عصور غابرة؟ وكيف نتعامل مع ولد جديد صالح؟ أرادت لميس أن تحتفل. تغيب عنها أشياء دقيقة، مثل خضوع العائدين من الجهاد إلى مراقبة أمنية، والحديث عنهم كعناصر مشبوهة لا يمكن التنبؤ بما يكون منهم في مجتمع نسيجه مهترئ مثقل بالثغرات. واضعاً كل تلك النقاط أمام زوجتي. منعته من الاحتفال بعودة ولدها شيخاً وقوراً وقد ودّع جهالته وبات داعية، لكنها لم تمتثل لمنعي.

اطمأنّت لميس وسعدت، وازدادت من علم ولدها، بات شيخها المفضل ومرجعها في الحلال والحرام، كأن ما يفعله ويقول ويفكر به يطردنا من حياتنا التي عهدنا ويضعنا على أبواب الفردوس، كأن كل ما يحيط بنا مجرد خطايا وآثام علينا التوبة عنها، تستجيب زوجتي برضا وفرح، وأتحصن بالصمت والحياد والرصد، لا تغرّني حكايات الهداية التي تقع من السماء على رؤوس العصاة والمارقين فيتحولون إلى بشر أسوياء أو ملائكة، كل آثامه ما زالت ماثلة في ذاكرتي تستدعيها كلماته عن الصلاح وإصلاح الناس والعالم بالكلمة أو السيف أو اليد، أعرف الكون كرة زجاجية إذا كسرت لن يجدي تلصيق نتفها، وكرتنا التي نعيشها مهشمة رغم تعهدي ورد الحديقة بالسقاية وامتناعي عن الغش في المحل منذ زمن، هو الزمن الذي فارقت فيه شيطان ابني، رغم صلوات زوجتي وحلقات الذكر التي تقيمها في البيت، والهناء الظاهري، فان الكرة تبدو لي مرممة بلا حذر ولا دقة ولا دراية، يمكن أن تتفتت في أية لحظة غير متوقعة.

بكت لميس بحرقة حين قرّر ابنها السكن مع صاحب له جوار مسجد في ضاحية بعيدة، ولم أتدخل، فقد عاد رجلاً لا حاجة له بالإقامة في بيت أبيه. ابتعاده النسيبي يخفف عني، ويقلل من إمكانيات وقوفنا وجهاً لوجه في تحدٍ مكشوف، فالولد لم يتردد بعد وصوله بأسابيع من طرح فكرة بيع السوبر ماركت الذي استهلك عمري كله بحجة التفرغ للعبادة، وتمكينه من رأس مال يدير فيه مشروعاً لإعداد الأجيال القادمة.

ما لي ولهذه الأجيال؟ ألسنت أطعمها في مشروعي؟ لماذا عليّ المساهمة في الدخول إلى العقول وتوجيه الخيارات؟ لم يكن هذا من شأني واهتمامي ولن يكون، ثم ماذا سيكون من أمر أجيال يقودها ولدي الذي جعل من حياتنا جحيماً في الماضي؟ وها هو ينوع في تصوراتهِ حول جحيم جديد يصادر كل ما لي في الحياة لصالح أفكاره التي أشك فيها، مع ذلك لم أجادل، اكتفيت بالتجاهل والصمت الذي يفقده وقاره المصطنع ليقترّب من الغضب، أرمقه بنظرات عميقة باردة تقول كل ما في نفسي، فينسحب عائداً بسرعة إلى دور الداعية الصبور.

تتباهى لميس بولدها وتفخر، وأترقب بيقين غريب متوقفاً جره إلى المعتقل يوماً. كان الشيخ كريم محظوظاً حقاً، فقد غُض الجيران والمعارف أبصارهم عنه، نسوا أيامه الأفغانية، كما تناسوا انحرافاتهِ المتفرقة قبلها، وترددت النسوة على بيتنا يستفتينه في أمور حياتهن وعلاقاتهن وفروضهن الدينية وعباداتهن، عندما سكن بعيداً رحن يقطعن المسافات إليه، والذين لم ينقادوا لدعوته تركوه لصالحه ودعوته التي لم تحرك قلبي.

تصلني أخباره متفرقة، تثرثر زوجتي في كل الأوقات، الشيخ كريم قال، والشيخ كريم فعل. يزورنا بانتظام كل يوم سبت كأن واجباً يحتم عليه المحافظة على الصورة البهية التي تربطه بوالديه، يدخل إلينا بهدوء عالم، لحيته تلامس ياقة جلبابه القصير، يغمر وجهه نور رحماني كأنه ولي صالح، صار صوته خفيضاً كأنه الفحيح، عيناه مسبلتان كعاشق، يبر أمه ويحضني على ترك البيع والالتحاق بالصلاة، يجادلني بالتي هي أحسن، ولا أجادله. أنسلّ خارجاً من قلبي مثل خيط يسحب من نسيج، فارقتني محبة الابن تماماً.

أحكم عقلي، لذا لم يكن لي تصديق توبته وأوبته، ولست الذي يثق بالمعممين وحفظه الكلام والذين يهزون رؤوسهم أسفاً على مصيري وأنا أتأرجح على الصراط في طريقي إلى الجحيم، أنا تاجر تدربت على تقليب نوايا الناس جيداً، لا تغرني الكلمات ولا المظاهر، أشكك بالأفعال وإن بدت مفسرة واضحة للآخرين، لا بد أنني نقلت روح التاجر إلى ولدي الذي يحاول بيعي هويته الجديدة، لا ينطلي عليّ المشهد وأقدر أنه يختار بضائعه بما يتناسب مع مكتسبات ومنافع ينتظرها، لا أتحامل عليه لتدينه الذي يقابله تقصيري كما تظن زوجتي، الدين بذاته ليس مشكلتي، لميس نموذج للتدين مثلاً ولكنها لا تستفزني، ليس لديها ما تخفيه عما كانت تفعله في جبال بعيدة، ألا تدور الشكوك بكل

من كانوا هناك على أنهم إرهابيو المرحلة وإن سمّوا أنفسهم بالجهاديين؟ ألم يصلوا أبراج أميركا العالية فاخترقوها ودكوها بالأرض؟

تدعو لي زوجتي المؤمنة بالهداية سرًا وجهراً، تترصد وجهي الممتقع عند زيارة الولد لنا كأنها تخاف. أتحوّل إلى كتلة من جليد حتى لا أفسد فرحتها بابنها، ولا أنكر في نفسي القلق وأنا أتأمل هيئته الغريبة، غالباً ما يرتدي قميصاً طويلاً بلون رمادي داكن مستبدلاً البنطال بسرّوأل عريض كأنه باكستاني أصيل، أحياناً ثوباً قصيراً ينحسر عن صندل جلدي، لا تلفت هيئته انتباه أمه وهي تطعمه بنفسها مثل طفل مدلل حتى لو ارتطمت الملعقة بلحيته الشعثاء، يثير مظهرهما غضبي وحنقي ولكني أواصل مراقبتهما من مكاني على المائدة مغلقاً شفتي متذرعاً بالصبر منتظراً انتهاء زيارة البر والرحمة التي يمن علينا بها.

فجعت رغم غضبي وشكي ونفوري حين طرق رجال الأمن بابنا طالبين منه مرافقتهم في سيارتهم المغلقة. منطقياً انتظرت أن يحدث هذا ولكنه سقط مثل مفاجأة، تصرفت لحظتها كما يجدر بأب يعتقلون ولده، سألت في أي مركز للشرطة أتبع ولدي، كنت هادئاً حكيماً، ساخراً في أعماقي، فطالما اقتاده رجال الشرطة في الماضي لسرقة أو اعتداء على الآخرين أو تعاطي المخدرات. يتكرر ذات المشهد، ما أشبه اليوم بالبارحة؛ لكنه يخرج هذه المرة مُبتسماً وهادئاً ومُستسلماً، لا يقاوم ولا يشتم ولا يعترض، كأنه يستمتع بدور البطل، أرى في عينيه خبئاً وهو يراقب صياح أمه ونواحها كأنه يستزيدها، أهدئ من روعها وأسحبها داخل المنزل تاركاً الفتى يقاد إلى مصيره.

لم تفض التحقيقات معه إلى نتيجة، فتركوه على أن يثبت مكان سكنه وأوقع بنفسه على ضمانته، تبادلت والمحقق نظرات مضطربة. ترددي يكشف مخاوفي وشكوكي، لكننا لم نتبادل المعلومات ولا الحديث أساساً، تركت توقيعي على تعهد ضمان الولد يشهد على أبوتي، ومضيت إلى زوجتي أنبّه وأهدد مجدداً مانعاً أيّ ممارسات تثير الانتباه في بيتنا. انصاعت فزعة. في تدينها نعمة حقيقة لي، فأنا الزوج الذي لا تجوز مخالفته.

تقتات ماكينة الحياة الشرهة بأولادنا، وكلّما تقلّب الزمن منح للأشياء معاني مغايرة، هناك مناضلون في كل زمان ومكان يتصدون لغول يبتلعنا، سنسمي مقاومتنا أفكاراً تقديمية أو نظاماً عالمياً متوحشاً، أو ديمقراطية، قد نسميها هوية. قد تتضخم حتى تصير ديناً، لا فرق، يخيفني كل ما يدور حولي، وأظل أبحث في عيني ولدي عن أجوبة لا يبوّح بها. حين وقعت الانفجارات الإرهابية

في الفنادق الثلاثة في قلب عمان ومات عشرات الضحايا، ظننت نفسي مسؤولاً بصورة خفية، لكنني سرعان ما نبذت تلك الفكرة المدمرة، ما لي وما حدث؟ حتى لو كان ولدي ومن يشبهه وراء ذلك، ما أنا إلا برغيّ يدور في أحد مفاصل الماكينة العملاقة، لا أقوى على الاحتجاج ولا أملك خيار التغيير، فقط أتماهى مع دوري، أدور وأدور، أصدأ في مكاني ولا أراوحي، أفهم دوري المحدود وأمضي فيه فلا أحيّد عن دربي ولا أتوه، أدبّر شؤون بيتي مسيطراً عليه تماماً، فقط كنت أحتاج لابتعاد ابني مسافة كافية حيث لا أزعج لهزيمته ولا أفرح لانتصاره، لا يهديني اعتقاله ولا يبهجني الإفراج عنه، لا تضعفني الأبوة ولا تحملني ما لا طاقة لي به، منصرف عن العالم وما فيه كلياً، ففي الأزمات أتأكد من لمستى السحرية السطحية على عائلتي، ثم أدير ظهري لها متفرّغاً لوحش خفيّ آخر، للسوق الذي يتحرّك مثل أخطبوط عملاق.

يجلّدي السوق لأتوسع في حيز لا يتسع، أنحني وأنا أحاول نسيان الهالات الداكنة التي أراها تموج حول ولدي رغم مظهره النوراني الجديد. أتوسع لأنسى وقد أنسى حقاً ويدهمني الرضا والقنوت في فترات متباعدة فيكبلان مسيرتي ويقلان من صفاتي كتاجر حذق؛ لكنني أنتفض مُزيلاً عني تلك الطبقة الدبقة من الاستكانة، أعيد في كل مرة اكتشاف مخالبي في عالم التجارة، أتقدم وتأخر كأنني في حرب يدفعني الكرّ ويردني الفرّ.

كانت الحياة تعاندني على هذا النحو وتقنّني بأن معركتي الحقيقية لن تكون إلا في ساحة وغي التجارة، حتى وقع لي انقلاب خطير بكل المعايير غير نظرتي للعالم ونفسي والمعارك التي يتوجب عليّ خوضها. تقمّصت في الماضي دور الدونجوان ملاحقاً جارتني ولم أكن أخطط لزمن أبدي يجعلني أسيراً لتلك المرأة الغولة التي سكنت بيتي، لا أنكر أنني عشقتها زمناً فأطارت لبّي وأربكت حياتي، لكنها لم تمهّني في متعتي إلا قليلاً، تركتني معلقاً أهوي من مرتفع عال، أطاحت بي بقسوة أفرغتني، ولم أكرهها حينها، ولم أنتقم من هجرانها وقد كنت قادراً على ذلك، ولم أسامحها أيضاً على خذلاني؛ لكنني تركتها بنبل أو مرغماً لأوجاع حياتها الخاصة، وانكفأت جريحاً، بل الأصح، كلباً ذليلاً ثنى ذيله بين ساقيه وطأطأ رأسه ومضى، مرت سنوات كفيفة بنسيان المغامرة التي كانت تقترب من حمى اللذة ولا تغزوها، نسيت جهالتني تلك رغم أنني أرى جارتني بصورة شبه يومية، ولكن المسافة بعدت وغامت، حتى أنكرت أمام نفسي أن ما وقع في الماضي قد وقع حقاً، لهذا كله لم أصدق الزلزال الذي أطاح بي على حين غرة.

داهمتني نوال في شيخوختي بلا مقدّمات، انقضّت على خوفي وجسدي المفزوع وكأن يدها غاصت في صدري مستخرجة فؤادي لتضمه مثل تفاحة، لم أكن لائقًا تمامًا للحب والجنس والمغامرات المجنونة، رغم أنّ روعي تفرّج ذبيحة توفًا إلى المتع التي يفجرها الجسد، تركتها تقودني في حقل أشواك إلى حيث تريد، مقتنصًا منها متعًا جديدة حرمت منها في علاقتنا الأولى قبل سنوات طويلة إبان كنت الصيّاد وكانت الطريدة. تسبّدت جارتني الساحرة جنوننا الجديد، تقود العلاقة المتفجرة كيف شاءت، تحدد زمن الهجوم وكيفيته، تداهمني بوحشيّة فينشب العراك بين الجسدين، كأني فاقد الإرادة مفعولًا به، تنتزع أنيني وشخيري، وتتركني مختلّ التوازن كمن ضرب على رأسه.

توبّخني إذا ما جنّتها تحت السلم المعدني بقصد أن أكون البادئ، الفاعل والمُراوغ والراغب، تمنعني من اقتناصها وتختار دون حصافة أوقانًا غريبة لا أتوقّعها. في الصباح الباكر قبل الخروج إلى عملها وقبل حلاقة ذقني؛ عصرًا بمجرّد ذهاب لميس إلى الدرس الديني وقبل أن تستر العنمة أجواء الجريمة التي بدأت عند باب البيت وانتهت في حجرة النوم؛ ليلاً على أريكة الصالون وصوت شخير لميس يتردّد برتابة. تغتال جرأتها توقّعاتي بأنّة الدّعر واللّذة في حياتي، أخنق أنين الضمير وأنا أرتكب الخطيئة تحت سقف بيتي وفي سرير زوجتي، أستبعد كل ما من شأنه حرمانني من متعة الخطر المميت، أستمّد صبري على ملل الحياة من الجنون خارج التوقعات وأولد من جديد، أصير رجلين، أحدهما خفي ماجن والآخر وقور هادئ يشبه الرجل القابع وراء ماكينة الحساب في متجره الذي علا الغبار بضاعته.

لم يعد يهمّني ماذا يحدث حولي، الحروب وهي تستعر، الاقتصاد وهو يدخل في بيات طويل، من يموت ومن يعيش، السيارات التي تتعالق عند النقطة العمياء حين يدخل الحديد في الحديد، أفراح الناس أو مآسيهم التراجمية العتيقة والجديدة. كل الكون إلى غياب وأنا أحظى بجحيمي المنبثق من نعيم الجسد وجنونه، لم أعُدّ تاجرًا ولا زوجًا ولا أبًا ولا كهلاً ولا وقورًا، أنا مجرّد أداة مُتعة، آخذُ أكثر مما أعطي، حتى لو منحت خليلتي نقودًا فإنني لا أسألها لأيّ غرض تريدها، رغم أنني أستطيع تخيّل الأسباب. تكفيني تلك العلاقة الخرافيّة، فما يصيبني من نشوة الرّاضخ لا غتصاب جسده يمتّعني، ويكفيني حتى تغلق عيناها جفنيهما في هجعة الموت الأخيرة.

الفصل الثالث

تقاعد

أقام أخي سرداقًا واسعًا في المساحة الفارغة وراء بيته، وقف وأبناؤه يستقبلون المعزّين في أبي وقد ارتدّوا بدلات العرس السوداء، بينما جلست على الأريكة الوثيرة في صالون بيته الفاره، حزينة مكسورة خاطر كما يجدر بامرأة مات والدها، هو عام كئيب على أكثر من صعيد، تدفقت نسوة كثر لا أعرفهن، وأخريات تخنفي وراء تجاعيد العمر على وجوههنّ ملامح شابات كنت أعرفهنّ، يذكرّني مثل أطياف بعيدة في زمن خرافي بحياة عشتها مرة، يثرثرن، يتبادلن أخبار الأقارب والجيران، الأموات والمواليد، يعددنّ حالات الأعراس والطلاق، يقرأن مقاطع من مصاحف صغيرة وزّعت على الحضور بقصد ختم قراءة القرآن صدقة لروح الفقيد، يتناولن الأرز واللحم واللبن المطبوخ بشهية، ويتبعنها بشرب القهوة وحبّات مكتنزة من التمر الحلو المرشوش بمسحوق الهيل. اصطحبت ندى معي في اليوم الأول لتشارك في مأتم جدّها الذي بالكاد تعرفه، ثم نور في اليوم الثاني، وأكملت مراسيم العزاء وحيدة في اليوم الثالث، أنظر بغباء وسلبية في وجه امرأة تسيدت الجلسة وهي تحكي عن عذاب القبر وضياح النفس الخاطئة في برزخ يطول زمانه قبل الوصول إلى عتبة الحساب والعقاب والثواب.

غريبة في مأتم أبي، في تلك الفترة وقبلها بسنوات مضلّلة لا أتمكّن من رصدها أو عدّها، كنت أطعمت قلبي لاكتئاب رتيب مكرر، تجلت آثاره اليوم في ملامحي، فبدوت للناظرات ذاهلة حزينة مكلومة، وعلى سبيل الخجل، اعتصرت ذاكرتي بحثًا عن الودّ الذي جمعني بأبي، على أمل أن تستيقظ فيّ عواطف آتية من الجينات؛ فأبي اصطحبني لمرات إلى محل البوظة، ونصرني بحكمة حين سخر أخي من اقتراني برجل يمتنّ مهنة تليق بالبنات؛ أعجبته نظافة أصابع ربحي، وعالمه الفريد الذي لا يشبه عالمنا البسيط؛ افتخر بابنته الذكية الحاصلة على شهادة جامعية وعريس

مثقّف، وكم كان مخطئاً في تقديراته رحمة الله عليه. لا ذاكرة واضحة سوى ذلك المشهد العابر يجمعني بأبي كأني لم أعش في بيته عقدين من الزمان تزيد بقليل، انفرطت كعقد لُظِم بحبل واهن حين فضل شقيقي الأصغر علينا جميعاً، مع ذلك عرف الحزن طريقه إلى قلبي، والدمع سبيله إلى عيني، لأسباب كثيرة غير الفقد. كأن أنتبه أنني لم أقم بواجب أبوته في شيخوخته، منشغلة بلطومات الحياة المريرة تأتيني من كل الاتجاهات. جاءت زميلات المكتب إلى بيتي المتواضع متجاهلات أيام العزاء الرسمية في بيت أخي ومذكرة الشكر التي تفيد بانتهاء خدماتي وزمالتنا، ربما غلبهن الفضول لرؤية بيتي، فأجلن مجاملتهن. لا يهمني لو اكتشفن وضاعة حجرة الجلوس ومفارشي العتيقة وفناجين القهوة مختلفة النقشات وقد ضاعت شببهاتها وصحونها الصغيرة، إذ فقدت حساسيتي تجاه تلك الصغائر منذ زمن.

للحق تأثرت بزيارة سجلتها أم كريم، زوجة عشيق، أخلتني مجاملة المرأة الاجتماعية الطيبة رغم أنني بدأت أعاف علاقتي السرية بجاري. هأنذا أدخل خمسينيات العمر عاطلة عن العمل، «التقاعد تعبير مهذب»؛ ولكني لست حزينة لفقدان وظيفة لم تضيف إلى حياتي إلا نقوداً قليلة، فوراء أبواب البنوك الموصدة المحروسة لا يتسنى لي النمو أو اكتساب معرفة جديدة، يجلدني الوقت وتحنطني الحركة الميكانيكية، باستثناء النميمة التافهة التي أسمعها عرضاً بين الفتيات الصغيرات فأنا لا أعرف ما يدور في الحياة، لا حالة الطقس ولا أخبار السياسة ولا ترهات المفكرين، عشت في قوقعة زجاجية معزولة خارج العالم، وتحولت إلى آلة تشبه الآلات التي يتركونها على قارعة الطريق لسحب النقود وتخفيف أعداد الداخلين إلى مبنى البنك.

أتنفس أنفاساً متقطعة من صدر متعب يرقب أوراق الحياة اليابسة تتبعثر في عاصفة شعواء. بعيدة بسنوات ضوئية عن الحب، لم أعرفه حين كانت بنات جيلي يسفن دموعهن ويذبن على رجع أغنيات عبد الحليم حافظ، يطبعن آثار شفاههن على أطراف الرسائل المبللة بالدموع والآهات، ولم أعرف الحب حين تزوجت ولا حين مارست جنوني في علاقة محرمة، خلطت بين الحب والانكسار والشهوة المريضة والانتقام من الحياة، ظلت حياتي مسطحة لا لون لها ولا طعم فيها رغم مغامرتي السرية، عشت محرومة من الصداقات رغم مرور الكثيرات والكثيرين أمام الفاصل الزجاجي الذي يحدد علاقتي الباردة بالعالم، فقدت الإيمان بالمشاعر التي تتغنى بها القصائد، ولا يمكنني قياس البشر وفق نموذج مثالي، فلم ألتق بمن تنطبق عليه صفة المثالية، كما أن الأبطال في الكتب المدرسية مرسومون بدقة تثير الشكوك. لم أركن يوماً للنخبة الذين يزينون صفحات الجرائد بكل

أشكالهم وألوانهم، رؤساء وملوك ومديرين وإعلاميين وشعراء وحكائيين وفلاسفة، ولا أخذت العامة بفقرهم وضعفهم ودورانهم في ساقية الحياة المريرة على محمل الجد، لم أتعاطف معهم، جفت عواطفى حتى تلك التي تربط الأمهات بأبنائهن، أستثني الشفقة الضئيلة تجاه ابنة عمياء، ناهيك عن تصديق الكلام المكتوب في الصحف أو الصادر في الأثير، لم أعجب في طفولتي وصباي بالهالات الوهمية حول أبطال ومنقذين يملكون قوى خارقة، ولن أعجب اليوم بالملهمين المنقذين الفاتحين الواعدين، أشك بالطيبين والمساكين وكل الابتسامات المجانية، والكلمات المنمقة والنظرات الجارحة، أشك بادعاءات أصحاب العمائم ويقين حاسري الرؤوس، أشك بغاياتي، أشبه ندفة عفن تلتصق بصخرة، مسلحة بشكي وقد نمت مخالبه وخشنت بتقدم العمر.

تعلمتُ، كي أحياء العيشَ خارج المكان، برعتُ في فن التجاهل والتناسي، لا أخبار ولا معرفة أو اهتمام بالسيل الذي يفيض تحتي، لا أهتز لزلزال يهد جدران غيري.

استعرتُ وسائل الإعلام بصورة التونسي الذي أحرق جسده احتجاجًا على لحظة إهانة وعمر شحيح. لو سلمت ذهني لصورته المخيفة للحقت به، لكنني عزلت نفسي تمامًا، لا أتابع من راح ومن جاء، من خان من، ومن قتل من، من افتقر ومن اغتنى، ولا أسماء الراقصين على الحبال، أو السائرين لصيقين بالجدران، ولا يعنيني تمييز القادة ومعرفة مهامهم الجلييلة وإنجازاتهم، لا أعرف، حقًا لا أعرف، ومن يهتم؟ إنهم يتغيرون مثل ورق الشجر في المواسم، يتبدلون مثل جلود السحالي والثعابين، لا شيء يهتم، ترتخي حبال الحياة وتلنف حبال الموت حول أعناقنا.

انسحبت حياتي ورائي كماءٍ انسكب في صحراء، شربته رمالها فلم ترتو وبخّرتة شمسها ولم يرجع إليّ مطرًا. داريت الخوف الذي انتصب أمامي في حياة لا شك في أنها ستكون صعبة وقد بلغ الغلاء حدًا لا يحتمل، بالمقابل هناك ما يهدد قلبي مثل طفل ينام. لم تعد مسؤولياتي جسيمة، ندى تغطي مصروفاتها براتبها الشحيح، وربحي لم يعد متطلبًا، لم يقتن ثيابًا جديدة منذ سنوات، وما عاد يهدر العطور الفاخرة على رقبته وباطن كفيه، توقف عن التدخين بشراهة، كأنه رجل جديد زاهد! ونور تتدرب على جهاز البدالة في محاولة لإيجاد عمل يقيها حاجة السؤال! وعبد الجليل ما يزال يتصرف بنصف نبالة، يتساهل في إيجار بيته عندما تكثر متطلبات فصل الشتاء، يخط التواريخ ليتيح لي دفع إيجار شهر وتضييع آخر. ونادر يغيب أيامًا وقد التحق بعمل على تكسي لشقيقي الأصغر الذي تمكّن من بناء أسطول سيارات للأجرة، كان للحياة أن تمضي ببسر في ظروف

الجديدة، فقط أدعو الله أن لا يمتحننا بالمرض الذي يتوجب مصاريف باهظة للعلاج، وأسخر من نفسي إذ صرت أدعو الله كلما خاتلني الخوف من هجوم الغد. نتغير بمرور عجلة الزمان الثقيلة على صباننا، نتواضع لله ونعترف بالضعف، حتى ربحي راقته له الصلاة في المسجد بعد أن لم يكن يركع أو يسجد عمره كله، هل تبدل حقاً؟ أم كلنا نتبدل حين ننحني بمقدار ويشيب الرأس؟ وماذا عن ذيل الكلب الأعوج الذي لا يمكن تعديله؟ أشك ساخرة أنه يفتح ملفات أمنية للمصلين، فئة من الناس لم يتعامل معهم في السابق، ترى ماذا يكتب حولهم؟ هل يستمتع بطعم جديد من الخيانات؟

هذا أمان خادع لا يدوم طويلاً، طوال حياتي العملية والتي لم تكن سهلة ولا ممتعة لم أجرب الدّلة التي رافقت خطواتي وأنا أسعى لإنهاء إجراءاتي في البنك ومؤسسة الضمان الاجتماعي ودائرة الضريبة، عاملوني كأني مواطنة مشكوك في ذمتها، توهّمت وأنا أقبل على التقاعد أن زمن الراحة قد حل. لم أقدر أنّ عليّ المرور بعقاب يجلدني منقّباً في كل قرش حصلت عليه وفي كل حق لي يمكن منعه عني أو تأخيرته أو تقييله. استعنت بالتكاسي الصفراء متنقلة بين مؤسسة وأخرى، ضاعت نهارات طويلة في أنظمة الكترونية لا يجيد الموظفون العمل عليها بعد، يطرقون أزرارها بعصبية، ويفقدون رزانتهم حين تطير الملفات إلى غير رجعة. أخضعت لجدل عقيم حول المكافآت التي نلتها والضرائب التي دفعتها طوال خدمتي المقيمة، بل إنهم دفعوني للبحث كالمجانين عن فواتير علاج ابنتي على أمل الحصول على رديّات بسيطة من دائرة الضرائب. لأول مرة أطلب من عبد الجليل أوراقاً موقّعة عن الإيجارات التي دفعتها له، ربما كان بإمكانه كتابتها مؤرخة بأعوام سابقة على أوراق صفراء. فزع وتردّد وسوف عارضاً تعويضي عن المبلغ المستحق بشرط تجاوز فكرة كشف استفادته من إيجار بيته، صارت بيننا شروط! نصف نبالة لا يقدر على اكتمالها. وافقته بهدوء.

رفعت الصّفقة بيننا جداراً إسمنتيّاً بارداً، كان خائفاً من انكشاف تهريبه الضريبي. نفحني بمبلغ قدرّ وحده أنه المستحق لي في ذمة مؤسسة الضرائب، قال: انسي ما لك في طرفهم وأنا أعوضك. أعرف أننا نحتال، هو يتهرب وأنا أستفيد بأسهل الطرق. لم أبتهج بحلّه العبقري، ولم أسعد بنقوده المنقوصة، عملقت الجدار الذي باعدنا قبل الصّفقة بزمان، واستعنت به لأكتب نهاية حاسمة للعلاقة الشائنة للمرة الثانية في عمري الخالي من الفرح. كنت قد فقدت رغبتي في مضاجعة الكهل الذي يداري انطفاء حماسه ويزداد إهماله لجسده ونظافته الشخصية كأنه يطردني عنه، لم يعد قاموسه اللغويّ مشحوناً بالكلمات التي توجب اشتعالي ولا تلك التي تحمل الكذب وتفيض عشفاً

رقيقًا، لا شك في أننا لم نعد نحن، وتقطعت بيننا دروب واهنة، خطونا فوقها خلسة، انتهت حكاية لا نأسف عليها.

يفزعني ما في بيتي ونفسي، أرجع من مهامى المكوكية المهيبة فى الدوائر الرسمية، ناسية أن لى أبناء حقًا، لا أمل بثقل الحياة على العمياء المنشغلة بيمامة تعودت إطعامها على الشرفة، ولا تستجيب ندى لنداءاتى وهى تغالب اكتئابها اليومى، ولم أشعر يومًا أن لى ابنًا ذكرًا أستند إلى ساعده. اكتملت خسارات الحياة، حتى إن الولد ينظر إليّ شزرًا إذا صادفت عودتى وجوده فى المنزل، يتفحص ثيابى مستهجنًا تنورتى الرمادية التى تطول لتغطى الركبتين، أو بنطالى الأسود الواسع وقميصى الأبيض بأزراره المغلقة وأكمامه الطويلة، يتوقّف عند شعري الباهت المشدود إلى الخلف بكماشة بلاستيكية رخيصة. يتغافل عن بنوته التى تستوجب عليه مساعدتى فى مهامى، كعرض توصيلى بسيارة الأجرة التى يقودها مثلاً، يتناسى عرقى ولهائى، ويطلب منى بصلف تغطية عورتى، عورتى يا ابن الكلب! وكلكم عورات.

يتظاهر ربحى أنه لم ينتبه إلى وقاحة ابنه، يبدو ناسيًا معظم الوقت، يسألنى عن موعد الغداء وقد تناوله قبل نصف ساعة فقط. أصبّ غضبى عليه، ما يزال أنصاف الرجال هؤلاء ينتظرون منى إعداد الطعام! أترجع عن سخطى وسبابى إذ يشي زهول عينيه أنه ينسى حقًا، أراقبه يتأمل الوجوه والجدران حوله كأنه يتعرّف إليها من جديد، هناك خلل لا أسميه يتسارع إلى عقله.

تقاعدت أخيرًا وانتهيت من جولاتى لترتيب وضعى الجديد مستنزفة تمامًا. تجلّى لى بوضوح أنّى بتّ أنتمى إلى طبقة الفقراء، وداعًا للأحلام والأمنيات المتخيلة للمتعلّمين العاملين فى مكاتب أنيقة لا تجرؤ ذرّات الغبار على الاستراحة فوق طاولاتها ومقاعدّها الجلديّة الوثيرة، نعم كان مقعدي وثيرًا دوارًا. صارت جدران مكاتبى زجاجية نظيفة لامعة وأنا أرتقى فى وظيفتى مراعاة لهيبة البنك، والآن هذا ما تبقى لى: راتب تقاعدي هزيل، وغلاء متوحّش، وحياة تخلو من الفرح والدّعة، كأن العالم تم تفصيله وخياطته على مقاس الذين يملكون بطاقات السحب من الصّراف الآليّ بينما جيوبهم متورّمة بأوراق البنكنوت. منحني البنك إبان كنت واحدة من العاملين فيه بطاقة انتمائية نامت فى قعر حقيبتي مطوّلًا. لم أجرؤ على استخدامها بتاتًا، أنا وأمثالى خارج اللعبة منذ البداية. تقتضى اللعبة الجري بسرعة مستهلكة طاقتى، تتقطع أوصالى ولا أصل، لم أملك يومًا ترف التمرد على اللعبة أو الانسحاب منها. جلّ ما استطعته التسلى وأنا أعبر الطريق، تسلّيت بعدّ أعمدة الكهرباء

وتتميط الأرقام على لوحات السيارات العابرة، تسليت بالخطايا ومرارة الغضب وكراهية الذين يملكون. لمت نفسي أيضًا، كيف وأنا المسؤولة عن معيشة الأسرة أشعر بالدونية والصغار؟ بينما زوجي المتخلى المنصرف لأفكاره الحمقاء دون مواجهة الحياة مزهو كطاووس؟

يقال إن الرجال المحترمين العاديين، حين تحرمهم الدنيا من أفراح الحب ومتع الحياة العائلية الموصوفة في الحكايات ينصرفون إلى أعمالهم، يذمنون مكاتبهم وأشغالهم، فإذا ضاق عيشهم وفشلوا في وظائفهم ومشاكلهم انتقموا من أولادهم بالضرب المبرح، وإذا تعذر هذا وذاك لعبوا الطاولة في المقاهي، أو سكروا في البارات، في ظروف أخرى يهجرون العالم إلى المساجد مقيمين الصلوات الخمس حاضرة، وقد يفتعلون المشاكل مع جيرانهم لأسباب واهية كالقاء القمامة قريبًا من الأبواب أو لعب الأطفال بالكرة تحت النوافذ أو تربية الكلاب. أما النساء الفاضلات فإنهن يتسامحن مع الحياة إذا حرمتهم متعة الحب، وفرضت عليهن أزواجًا وضيعين، ينصرفن إلى كبس المخللات وإعداد المربي والحلويات وحشو الخضروات وتسبيكها وفلفة الأرز وتلميع زجاج البيت وشطف الأرضيات، أو يبذلن طاقتهن الدفينة في تربية أبنائهن وتعليمهم وتحريضهم على أن لا يتشبهوا بأبائهم، يعرجن على الجارات للثرثرة والتبكي والتشكي، أو يجدن ملاذًا في الانضمام إلى المنظمات النسوية والوقوف على منابرها مدافعات عن حقوق المرأة، وقد يتطوعن في أعمال الخير وزيارة الأسر المستورة محملات بطرود المؤن، وإذا توفرت النقود بين أيديهن بددنها على صالونات التجميل وتصفيف الشعر وشراء الحقائب والأحذية والأزياء الحديثة والسفر. هناك آلاف الطرق للتسلي في الحياة المتجهمة، ومئات البدائل التي تجعل الطريق ممهدًا لعيش حياة عادية.

لكننا أنا وزوجي لم نكن من هؤلاء المحترمين العاديين أبدًا؛ تجاهلنا كل الخيارات الطبيعية، اختار هو لعب دور جرد مخبر مثقف يشي بأصحابه ويلوث روحه كل يوم بتقاريره الأمنية، وتحولت إلى امرأة مهملة عصبية خائنة تنتقم من روحها وجسدها في لعبة لا طائل تحتها.

مات البوعزيزي التونسي متأثرًا بحروق جسده، وتحرك مار د غضب بين الناس في أكثر من مدينة كأنه أول من يحترق! أنا منشغلة بالحرائق التي تنشب في زوايا حياتي منذ زمن، ماذا أفعل بإرث الماضي الصاخب الملوث ولو خففت الوطاء وسرت برزانة على مهلي؟ تأخر الوقت لاستعادة دور الأمومة، حتى حين فرضته الظروف القاسية علي وأنا أعيد ابنتي ندى إلى درب الحياة الروتينية المملة. لم يكن دورًا كاملاً قط، أغار وأنا ألمحها تتهاشم بودّ مع لميس في الحديقة،

وهي تبتسم في وقفها المهدّبة كأنّها بتول خجلى! لم أناكفها حين رفضت إخباري بفحوى الحديث المفاجئ بينها وبين زوجة عبد الجليل؛ ولكنني لم أتمكّن من التجاهل وأنا ألمح فرحة نور المفاجئة باتصال يأتيها من أستاذها أيسر، لم أصدّق أن فرحها يتعلق بالخبر الذي نقله لها، كان قد وجد لها عملاً في مؤسسة لم تزل تستخدم الجهود البشرية في إدارة مقسم الهواتف الخاص بها، ورغم تقديرني بأنه سيكون عملاً مؤقتاً؛ إذ سرعان ما ستتمكن كل المؤسسات من ربط مقسمها عبر نظام آليّ دقيق، إلّا أنّني فرحت لابنتي، فرحاً خالطه خوف مفاجئ، ما بال خديّها تورّدا وارتعشت أناملها وهي تحتضن الهاتف الصغير وصوت الرّجل يداعب سمعها المرهف؟ استيقظت مخاوفي، إلّا نور، الوضأة التي لن تحتمل خدشاً في روحها الناصعة. هذه القصص تنتهي غالباً بجراح دمداة. أقفلت الباب علينا وواجهت وجهها وقد فاض سعادة.

تفاجأت بلهجتي الجاقّة: تعرفين أنّ الأستاذ أيسر هذا متزوّج؟ تعرفين؟

كأنّي طعنت قلبي بخنجري، رأيت في العينين الكيفيتين دموعاً لا تسقط ولا تغادر موقعها، تترجرج مرتعشة ويغيم في الوجه حزن عميق، همست نور بعد صمت كأنّه انقطاع الهواء: أعرف، لم أنس ذلك يوماً.

مثل آلة مبرمجة سخيفة، حدّثتها عن عطاء الحياة الذي ينتظرها في المستقبل، وعن قلبها الذي سيجد ضالّته يوماً في رجل يقدرها ويفهم حالتها الخاصة ويحترمها ويحبها وتحبه، ويكون مناسباً. لست متأكّدة أنّ مثل هذا الرجل موجود حقّاً ولكنّي لعبت الدور في وقار أم طبيعية، ولم أطمئن رغم ابتسامتها الحزينة الشفيفة، وكلماتها أنها تفهم الأمر ولا داعي لقلقي، فكل ما يربطها بأستاذها احترام لا يتعدى الأصول.

الأصول التي لم أعرفها يوماً، الأصول التي تجاوزتها عمري كله بحثاً عن متع عابرة، أو انتقامات سخيفة، أيّ أم لك يا فتاتي؟ ليتني تمكنت من أن أقول لها بجرأة: اذهبي واعرفي الحب عندما ينبض فؤادك وحيث تجدينه، لا تنتظري من الحياة أن تعطيك، انتزعي ما ترغبين به بأظافرك.

لم أتمكن من نقل جنون روحي إلى روحها الطيبة، وواصلت دور الأم الأنموذجي.

حين فرّ الرئيس التونسي من غضبة شعبه في منتصف الشهر الأول من عام 2011 صاح رجل: لقد هرمنّا بانتظار هذه اللحظة. منذ زمن بعيد لم أسمع تعبير هرمنّا بمثل تلك البساطة، كنت أشعره في ذوائب شعري، في وهن العظام، في أنفاسي التي تنقطع وأنا أصعد الدرج المعدني، في الأطعمة التي صارت كلها بلا طعم ولا مذاق، في المشاعر المتبلدة التي أبطأت خطواتي وخفضت صوتي.

جرّنتني ندى مجدّداً إلى الدّور الذي لا أُجيدُه. اتخذت صورة الأم الوقورة وجلست هادئة متأفّة ليلة جاءت لميس لزيارتنا، قطعاً هناك مؤامرة تدور حولي، بعد ما يقارب ثلاثين عاماً من السكن في بيتنا زارتنا جارتنا حاملة قالباً من الكيك المزيّن بشوكولاتة غامقة، أعوام طويلة متقطعة يا جارة وأنا أتسلل إلى أريكتك ومخدعك وذراعي زوجك، ولم تشرفينا بزيارة! ماذا يحدث لتتسقلب حال الدنيا؟ دق ناقوس الخطر في قلبي وفزعت حين بدأت تتحدث بإعجاب مادحة ندى البنت الحلوة المؤدبة الرزينة! العروس! ماذا يحدث؟ هل ترمي إلى تزويج ابنتي بولدها الدّاعية الذي يرتدي زياً باكستانياً؟ هل يعرف عبد الجليل أنها جاءت لطلب ابنة عشيقته السابقة زوجة لابنه؟ قبل أن يحدث هذا، سأدفع ابنتي من أعلى جسر عبدون لتقع جثة هامدة وقد ألحق بها.

سيطرت على جلستنا المفتعلة في صالوني المتواضع لحظات من الرهبة، كنت مشوشة للغاية بالكاد أسمع ما تنفوه به المرأة، ولكنني تمكنت في النهاية من إدراك أنها تتحدث عن عريس آخر، تنفست أغالب ما تبعثر من أعصابي، تماسكت مجدّداً وأنا أراقب ردّة فعل ابنتي، هو شيء متفق عليه على ما يبدو! كان مجمل الحال مقبولاً لديها صادمًا لي، في الثامنة والعشرين من عمرها، وجارتنا تقدّم لها عريساً أرمل في الخمسين من عمره يعيش في دبي! هناك مفاهيم غريبة تسيطر على المعقول والمرفوض، لمعة عينيّ ندى تخبرني أنها نسيت كما أوصيتها كل ما مضى من حماقاتها، أو لعلها لم تنسها بناتاً وها هي تلقي بنفسها إلى مصير مخيف مجهول في محاولة بائسة يائسة لإنقاذ نفسها من شبح العنوسة المتوقع، تنازلت ندى عن آمال الحب، ولم تتمسك برداء شباب تحسه يرحل عنها خلصة، بدت ممتنّة لوعود الحالة المادية المريحة، في هذه لا أستطيع لومها، بل إنني لم أتمكن من لومها في كل ما ذهبت إليه، هكذا سمحت لمظاهر الفرح أن تدخل بيتنا.

لم يكن زواج ابنتي على ما تمّنت، ولا على ما أرادت هي تمامًا، ظننت أن عرساً متواضعاً سيفرح قلوبنا، لكن الرجل الخمسيني الذي لم يكلف نفسه صبغ شبيهه في فوديه وارتداء بدلة لائقة، لم

يكن يريد إقامة عرس؛ تقديرًا لمشاعر ولده الذي ينهي دراسته الجامعية، قال بكل صفاقة مازحًا:
تزوجت وأنا شاب، ولا أتخيل نفسي في زفة عرس، يكفيني عرس واحد.

طأطأت ندى رأسها موافقة، البنات الملعونة متعجلة للخلاص منا! ألم أتعجل الخلاص من بيت أبي ولم يكن على هذا الجفاف؟ لكنني حينها كنت واقعة تحت وهم افتتاحي بالرجل الخدعة، بينما تبدو هي مدركة لشناعة ما تقدم عليه، لم يعلق ربحي ولم يقم بدور ما، بدا مشتتًا محترًا، حتى إنني تمنيت عودة الرجل الكذاب المتغطرس الذي كانه، كم هي جاحدة هذه البنات، كأي لست أمها، ألم أمنع عنها هجوم أخيها ولكماته عبر حياتها كلها، ألم أوار خطيئتها بحنكتي وصمتي؟ ولكنني أيضًا أم بشعة، لقد نسيت البنات ما كان، فلماذا لا أنسى؟ لأرتضي أن ابنتي تمضي بعيدًا وليس في خاطرها امتنان تجاه أحدنا، لتذهب إلى مصيرها وتتقلب على جمر حياتها التي اختارت.

توافق نادر والعريس الأشيب الجلف وولده الجامعي الرقيق كأنهم ثلة أصدقاء قدم، تحولوا في جلسات قليلة إلى منظرين في فقه أبي حنيفة والشافعي وخبراء في الثورات العربية، وجاء إخوتي وزوجاتهم مرتديات كل ما يملكن من مصاعن ذهبية تخلو من الذوق، وصعد عبد الجليل ولميس إلى بيتنا لقراءة الفاتحة، فالعريس ابن عمه جارتنا، هكذا ارتبطنا بتلك العائلة إلى الأبد، بالسخرية الأقدار!

لم تفلت ندى فرصتها الأخيرة في المشاجرة معي، ترتاد الأسواق في المولات الحديثة وتبتاع ثيابًا جديدة وحقائب للسفر بحماسة عالية، لمحت بين الثياب جلابيب وحجابات، أدركت أن ندى في طريقها للتشبه بطريقة ارتداء لميس، لم تفارق نظراتي الثياب الجديدة وأنا أعاتبها: تحتاجين إلى ثياب أجمل، من الغريب أنك لم تطالبي بعرس صغير، أو سهرة للعائلة أو عشاء!

نظرت نحوي وقد استيقظت الشريرة التي عرفتني زمناً، وهمست باستخفاف: أنتِ السبب. هاجمتني ابنتي وشقيقها كوحشين، فعريس الغفلة المتصابي لا يحبز إقامة عرس تحضره أم العروس كاشفة شعرها، يا لشعري المشعث المقصف الذي بات فضيحتي، عورتي، عاري الذي انتزع الرحمة من قلب ولدي وهما يتحدثان بوجوب ارتداء الحجاب.

لم تكن عائلتنا يوماً متماسكة. بخار يموج ولا يتخذ له شكلاً، ننشأ مخالبنًا في بعضنا بعضاً، كطيور جارحة، نقطع حبال الوصل ونرتقها، لكن شرخاً حديثاً يشقنا اليوم بقسوة، شرخاً أنا فيه الفنة

الضالة التي يجب إعادتها إلى الدرب القويم، كانت الحياة قد هزمتني فلم أتمكن من رسم ابتسامة وأنا أودع ابنتي الذاهبة عروسًا إلى دبي، بكيت ليلتها، وتبادلنا الأماكن أنا ونور، نهضت من حضني وأخذتني بين ذراعيها فارتيمت أبلل حضنها بدموعي. دائمًا أبكي لأسباب غير تلك التي تبدو للعيان.

لم أبك كالأمهات شفقة على ابنتي الذاهبة إلى المجهول، ولا لفرط عاطفة فاجأتني، وإن كان هذا ما توهمه الجميع؛ ولكنني كنت متعبة وقد تراكت على روي رزايا السنين الطويلة التي عشتها بلا فرح عميق، وكما يليق بامرأة جبّارة مثلي، غسلت هزائمي بدمع رخيص وعدت إلى حالتي الأصلية الأصيلة، شرسة، ثابتة الوقفة والخطى، أتفادى الصراخ والسباب والمشاعر الشائكة مع زوجي، لا لضعف طال مخالبي، ولكن لعله أنشبت أظفارها فيه، يزداد ذهولًا ونسيانًا، ويحدث نفسه كاشفًا بعض ما خطه قلمه عندما كان فأرًا ثم يسألني جادًا: أين ندى؟ لماذا لا تتناول طعامها معنا؟

لو كان مازحًا، وليس بيننا مزاح، لقلت له: أنها تتناول الجمبري على شاطئ الخليج؛ ولكنه جادٌ إلى حدّ الفزع، كأنه لم يدرك أن ابنته تزوّجت وغادرت البيت، وأني وإياه وحدنا نحدّق بحياذية في الشاشة التي تعكّرت بالصور والمسابقات الفنية وسباقات الأصوات الجميلة والمواهب المميزة والبليدة، بينما نورنا الصغيرة تقبع في حجرة زجاجية على الأغلب في إحدى زوايا الشركة التي تعمل بها، تجيب على مكالمات المتصلين وتحوّل الخطوط ببراعة المبصرين، ونادر يقود سيارة الأجرة التي يعمل عليها بجنون وتهور على طريق عمان- الزرقاء، لا أعرف إذا كان ربحي يعني ما يدور حوله، لا يبدو مهتمًا بالمظاهرات على دوار الداخلية أو في قلب المدينة جوار الجامع الحسيني، لا يلحق بهم لتسجيل أسماء الهاتفين بسقوط اتفاقية وادي عربة أو المنادين بإصلاح النظام، ولا يقدر الهول على الشاشة، فالرؤساء يرحلون والشعوب تسقط أنظمة، والأنظمة تهرس شعوبًا، والعالم يتشقلب. وربحي يشاهد صامتًا، لا تعابير على وجهه ولا دهشة في عينيه.

يحدث أمر جديد في الفيلا التي نعتليها، بات الزمن مفتوحًا على مصراعيه للأحزان. تصرخ لميس بحرقة وتلطم خديها وهي تفتح البوابة لولدها في جلبابه القصير، يهرعان إلى الداخل ثم في ثوان تظهر عربة الإسعاف، يحتم الواجب الأخلاقي علي الوقوف إلى جوارهما، فقد بتنا أنسباء، وعشنا عمرنا كلّ في بيتهم، ندفع الإيجار مرّة ويتعاضون مرّة، تركت نور واجمة في أعلى الدرج المعدني، وطوّقت بذراعي كتف لميس التي فقدت أثرائها بينما جسد عبد الجليل يخرج محمولًا على

حمالة المسعفين، لم يكن هو ذات الرجل الذي عرفته، ليس الجسد الذي لاحقني ولاحقته فشفي غليلي من موات الروح وشفيت غليله من هروب الشباب، تذوي صباباتي وحماقاتى وأسراى وهو أمامى قطعة مهلهة من اللحم البشرى، والولد الداعية يزجر أمه مهُوًّا ما حدث: مجرد جلطة، لا تفصحينا.

تبتلع المرأة المفجوعة صوتها ويختفي الرجال الذاهبون إلى المشفى، وفي أعماقى عويل من نوع مختلف، يدور فى صدرى مثل زوبعة صامتة غامضة، بعض منى انجلط ولا أحد يدرك.

لا يعنى هذا التّفجّع العاطفى أنّى صرت امرأة مختلفة. حين عادوا به إلى المنزل، مُصابًا بشلل نصفى، واصلت القيام بالواجب الرّسمى الجافّ، اتصلت بلميس هاتفياً يومياً لمدة وجيزة، وقرعت الباب مستفسرة عن أحوالها مرّات متباعدة. كلما مضى الزمن تراجعّت مجاملاتى حتى أوشكت على الانقطاع، بتّ أفكر فى حياتى المقبلة كثيراً، وأنا على دراية بأنها حتماً ستكون أقصر ممّا مضى.

أخرج لأتنفّس الأكسجين، فقد خلا بيتى منه، لعلّه لم يكن متوفّراً يوماً، يطول شجر الشوارع ويتمدّد ويتهدّل ظللاً، تغطّي جذوعه كتل خشبية جافة جارحة متشقّقة، يتعرّى، يموت، ثم يكتسى، وينبعث، وتينع فى أغصانه أعواداً خضراء نضرة، يزهر ويثمر، يتجدّد فى دوران أبدى، لماذا وحدنا نحن البشر، ينفّرط شبابنا ونذبل، وينقطع نسلنا وصبرنا وأملنا؟ لا أصدّق أنّنا نعود يوماً على هيئة مغايرة أكثر شباباً وحظاً. كلّ ما أشعره إشفاق على جنسنا الواهن المغرور. على نفسى تحديداً. ليس لأننى أخجل مما فعله جسدى فى أتون مغامراته، بل لأننى غاضبة من عمر يباب لم تظّلّه غمامة ولا هطل الحبّ ليحيى ترابه القاحل بمائه المقدّس، حين لا يجيء الحبّ أبداً، لن يكون هناك شيء مقدّس على الإطلاق.

لم يمض وقت قصير حتى تحوّلت المرأة الطيبة الساذجة لميس إلى أفعى، تتصرّف كأنّها قدّمت لى خدمة جليلة حين شحنت ابنتى الشابة مع زوج كهل وحقيقية محشّوة بالثياب الداكنة وقمصان النّوم والعطور إلى مدن الصّحراء الفارغة، والآن تعرض علىّ الاهتمام بدفاتر حسابات السوبر ماركت الذى باتت تديره. لو أن عبد الجليل عرض مثل هذا العرض إبان كنا مقربين أو حتى فى أزمنة البرود والجفوة لن أتردّد بالقبول؛ ولكننى وهو مُلقى على سريرى أو جالس على كرسيه المتحرّك لا أطمح أن أرثه على هذا النحو، يثير اعتذارى دهشتها، ألم أقاعد؟ ألا أحتاج إلى دخل إضافى؟ نعم، لكن ليس هكذا. يبدو أنّى لم أكن مقنعة وأنا أتعلّل بصعوبة الخروج اليومى نظراً

لحاجة زوجي الماسة إلى خدماتي، كشفت جارتني عن شبهها بزوجه، نصف نبالة ونصف ندالة، أرادت منحي راتبًا تقبضه بيدها الأخرى إيجارًا، تستوقفني كلما خرجت لقضاء حاجة وتخلط بالكلام، تبطن في جمل عابرة تهديدات ناعمة ودودة، كأن تقول إنها باعت بعض الأثاث ولو أن الشقة التي نشغلها فارغة لخزنت الأثاث لولدها، فهو سيسكن فيها عاجلاً أو آجلاً. اللعينة لو تعرف أن السرير الذي تخلت عنه يحمل رائحة عرقي، انقلبت الضحية أفعى ملساء، تُرجع كل ضعة تأتيها إلى أنها اقتراحات ولدها الداعية: الشيخ كريم يرجوكم الانتظام في دفع الإيجار، ويرى أن نرفع قيمته، فلا يعقل أن تسكنوا في فيلاً في الشميساني كما لو أنكم في شقة في حيّ شعبيّ.

دفعتني تلميحاتها وتصريحاتها إلى التفكير بالرحيل، يكفي هذه الشقة ما أكلت من أعمارنا، فجأة أكتشف كم هي عمان ضيقة.

كانت الزميلات القديمات في البنك يتحدثن عن رحلات يقمن بها إلى شاطئ البحر الميت، أو رحلات إلى العقبة والبتراء، يصفن غابات عجلون ومطاعم جرش ومنتجعات أم الرّمان، المتواضعات منهنّ يركبن مع أسرهنّ سيارتهنّ المكركبة ويفترشن ظلال الأشجار بطناجر الطيخ أو أسياخ اللحم المشويّ، وقد تَبَرُّغُ المقتدرات بتوصيف رحلاتهن بالطائرات إلى تركيا وبيروت وباريس وماليزيا البعيدة، أما أنا فلم أخرج من الشميساني إلا إلى جبل الحسين وبالعكس. اكتشفت خوفي من المكان وأنا أتنقل لإنهاء معاملات تقاعدي، أفزعتني امتدادات المدينة التي لا أعرفها. لم أخرج يوماً في رحلات بعيدة ولا قريبة، حديقة عبد الجليل عندما تزهو وتطرح ثمرها هي أقصى ربيع وقعت عليه عيناوي، مع مقاطع من مشاهد لاحت في حدائق البيوت في الشميساني حين تطل الياسمينه عبر السور وتفوح الكالونيا الحريفة أو يلفت انتباهي تعدد اللون في أشجار الورد، المكان ضيق للغاية بالكاد يتسع لقاطنيه، والعالم ليس رحباً ولا ودوداً.

زرت أخي أستفسر عن مكان يناسب قدرتي المالية في جبل الحسين، قهقه كأنني أمارحه قائلاً: لن تجدي خشة في جبل الحسين للسكن، حتى لو ذهبت إلى آخره لن تتمكني من السكن حتى في المخيم، ارفعي المبلغ لصاحبة البيت قليلاً ولا تتركي مكانك، الإيجارات نار.

ليس مهمّاً ماذا سأفعل في يومي الحالي، قد أجد فسحة لعائلتي المهشمة في الجانب الفقير من عمان، لكنني فزعت وأنا أتخيل ما سيحل بنور عندما أرحل يوماً عن الدنيا براتبي التقاعدي الضئيل الذي لا يحق لها أن ترثه! لا خشة لنا تظلل رؤوسنا، ولا بحر ولا نهر يشق حجر المدينة البيضاء،

لو كان هناك سيل كما يقولون في الأساطير فإني بحاجة إلى خوض مائه البارد وتبليل قدمي والبكاء حتى تختلط دموع خوفي بدموعه.

أمشي ذاهلة، ثم أنتبه إلى طريقي، ويقفز في رأسي سؤال حائر، هل سيكون لي في مستقبل الأيام حفيد أو حفيدة تربط شعرها بشريطة بيضاء تمشي في ذات الشوارع التي لن تكون نفسها؟ ما هي اللغة التي سيتحدث بها أحفادي، وأيُّ هُويّة سيحملون؟ وهل ستكون البقعة العمياء بلا أهمية أو تأثير لأن السيارات تطير في فضاء مفتوح بلا عقبات؟ إلا إذا تعالت الأبراج السكنية وحجبت بعضها البعض! أيُّ صور طفوليّة تترأى لي وتجتاح مخيلتي؟ هل يستحقّ الخوف من مغادرة الشميساني كل هذه الهلوسات؟ لماذا يبدو أمر مغادرة المكان صعباً؟ فالطريق لن تكثر لخطواتي التي أذابت أحذية كثيرة عليها وأنا أتنقل من بيتي إلى عملي وبالعكس، هل يعني هذا أنني أحب المكان؟ تبدو تلك الفكرة مضحكة، فأنا لا أتذكر أنني تمتعت بالروائح أو ألفت الأصوات، بل إنّ التّعود حوّل المكان إلى كتلة حجريّة من الضجر، لا معنى للاتصاق بالأماكن، أصغرها وأكبرها، لم أفكر يوماً بمفهوم الوطن، ولا أظن أنني ملزمة بالامتنان حتى للكرة الأرضية التي أتحرج على ظهرها ككرة ضلّت طريقها، ربما تنتظرني نقلة غرائبية إلى دنيا مغايرة، قفزة إلى الجحيم مثلاً أو سقوط في ثقب أسود مجهول، أقبل أي تحول درامي كبير يشطب الحياة التي لم تمنحني الرضا يوماً.

أجلت جارتي الحديث عن مغادرة الشقّة بعد اعتقال ولدها، الذي بات يعتقل مرات قصيرة متتابة، أجهشت في صدري وكأننا صديقتين، ندبت حظها الذي جعلها تقف وحيدة في مهبّ الريح، وبدءاء امرأة تكتسب قوة وقسوة جديدة لم تجربها. أمهلنتي ريثما أجد حلاً لزوجي الذي هاجم صورته في المرأة وجرح كفه، صارت الفيلا الرّاقية منحوسة حقاً، يقفز إليها رجال الإسعاف في كل حين، ضمّدوا جراح زوجي، وهمس الطبيب: ارفعي المرايا من البيت.

تخلّصت من كلّ المرايا، أساساً لا حاجة لنا برؤية وجوهنا الكئيبة، رفعت الزجاج الفضي الصقيل من داخل خزانة الملابس، ومن فوق المغسلة في الحمام، من طاولة ندى العتيقة في حجرة البنات، لم يعد في البيت مرايا يظهر عبرها الرجل الذي يفرع ربحي، ليس الأمر رافة به، فلطالما فكرت بطرائق شيطانية تقتل الرجل في الماضي؛ لكنّي لا أرغب بسيل من دم ينثره المضروب بالزهايمر، ثم ما فائدة الانتقام من رجل نسي كيف حوّل الحياة جحيماً في يوم بعيد؟ بتّ أتوتّر كلّما خرج إلى المسجد وأعادته الرجال وقد أضاع درب البيت.

لماذا غاب نادر عن البيت كل هذه المدة؟ سؤال بريء تفوهت به نور وصوتها يرتجف كما لو كانت خائفة من شيء ما. اعتاد نادر أن يغيب أيامًا متتالية، أن يهمل مكالماتنا، ثم يظهر بغتة، يمضي إلى حجرته كأنه لم يغب، لا يبرّر لنا ولا نسأله، أتفاداه رحمة بأعصابي، لم أكن على استعداد للدخول في مهاترات الكلام الذي يرمي به كيفما اتفق. لقد ابتعدت بكري وراء بلاد وبلاد كي أستريح، لا لأصنع لي مناكفًا جديدًا؛ لكنني حقًا غضبت هذه المرة، فالفتى الذي يظن نفسه صار رجلًا لم يكلف نفسه السؤال عن والده وهاتفه يعطي رنة عالية ممطوطة كما لو كان مفصولًا، مما فرض عليّ الاتصال بأخي محمود: نادر! ماذا تقولين؟ أنا لم ألتق به منذ ترك العمل معي، لقد مضى على ذلك وقت طويل، شهر تقريبًا.

هل أنا غائبة أو غيبّة إلى هذا الحدّ؟ لماذا لم يخبرني الولد أنه فقد عمله؟ أين هو إذن؟

يختبرني أبنائي في استحقاقي لأموستي تبعًا، ها أنا أخرج قلقة في سيارة لأخي تقودني إلى رجل كان يلتقيه، نظر نحوي السائق مصلح بتعجب، كأنه لا يصدّق أنني أصلح أمّا للفتى المؤمن نادر، همس بقلة ذوق متناهية: لا حول ولا قوة إلا بالله.

كلّ تعابير الاحتقار على ملامحك الخشنة لا تهمني، أريد فقط أن أعرف أين ولدي، قال بيشرني: نادر لحق بالمجاهدين، إنه في مكان ما في سوريا.

لا تحتاج الحياة إلى معول تطيح رأسي به، هي كلمات قليلة وحياة طويلة تضع أوزارها. لماذا رحل الولد دون أن يسمعني مُسوّغاته؟ وهل يمكن أن تكون له مُسوّغات منطقية؟ وهل بقيت بيننا مساحة تحفل بالمنطق؟ هل تهمني المُسوّغات حقًا أم أنني مجرد أم تذكرت أمومتها فجأة وقررت إنقاذ ولدها؟ مثلما أحرص على ترتيب أدراج نور لمساعدتها على الحياة، هل ساعدت أحدًا سواها؟ أهو الطعام الذي أعدته أم الثياب التي ابتعتها أم السقف الذي ضمنا زمنًا ولم يفلح بخلق تعاطف بيننا؟ أين أخطأت؟ ما هي النقطة العمياء التي غامت الرؤية عندها؟ هل ذهب ولدي إلى الموت ماشيًا جذلًا أم خائفًا مترددًا؟ هل لعب جارنا الداعية أو سواه بعقله فصور له الجنان على فوهات البنادق؟ هل اشترى أمراء الحرب فقره بمبلغ ماليّ مغر؟ هل هرب مني ومن أجواء البيت الكئيبة؟ كان يمكن أن يموت كبقية الخلق في حادث سيارة أو جلطة مبكرة أو شيخوخة مباركة، ربما لو وجد نفودًا كافية اشترى موته منتشيًا بحبة مخدرة وجرعة زائدة، لماذا اختار الموت بعيدًا عني كأن حضني لم يتسع له؟

جرّني ولدي من ربطة شعري الملبّدة بالغبار والإهمال، قال لي في غيابه اللئيم: لقد تظاهرت مطوّلاً بحكمة القروء، لا ترين ولا تسمعين ولا تتكلمين، لا تهتمين! قفي اليوم في زاوية الحساب العسير، عليك الآن أن تختاري، أن تقرّري أين تقفين؛ تختارين خندقك حيث لا يسمح بالحياد البليد، هل أنت مع الدواعش أم مع الأنظمة التي أطبقت على أعناق الشعوب عقوداً؟ لا بين بين، اختاري. لا أريد، لا يعجبني الوقوف هنا أو الركوع هناك، يفزعني الاختبار القبيح وعجزي عن الوقوف في الوسط، أزداد ضياعاً وحيرة، أنسلخ عن العالم تماماً وينسلخ عني.

الأجواء خانقة، مدينة بلا نسيم ولا ضوء شفاف يخترق فضاءها ويجلجلبوتها الحجرية البيضاء، بلا التماعات خضرة الشجر وحفيف أوراقه، بلا رجع بهيج، ولا نغم حزين لموسيقى تعبر في مذياع سيارة مازّة مسرعة؟ بلا حبّ؟ هي إذن المدينة القفص، بقضبان متباعدة خادعة، وأنا في المنتصف أقفز في مكاني ولا أصل إلى قمة عالية، ولا أزحف لصيقة بالأرض، لا أخرج ولا أدخل، لو أنني سحلية ملونة لتملص جسدي اللزج من بين القضبان، لتزحلق مثل بزاقة تمخر تراب القاع، وهربت، لكنني كائن هائل رغم نحول جسدي، لا تفسح القضبان على اتساعها لمروري عبرها، تطبق بوحشية وغلّ على أنفاسي حتى أختنق.

ربما، عندما تنقضي هذه الحياة بمرها وبلادتها وسقمها، وهي حتماً ستنتقضي؛ إذ هكذا يحدث مع كل البشر، عندما تضع حياتي أوزارها ويستريح قلبي من وجعته ونقمته، من أحبّ أن أرافق؟ ستهرع نور نحوي فرحة فاتحة ذراعيها لاحتضاني، تنظر في عيني كأنها ترى، فذاك الزمن الفارّ من الحياة الرابضة على صدورنا لن يكون فيه عميان، كلنا سنرى بوضوح ألواناً بهيجة لم نعرفها من قبل، عندها أحب لقاء ندى أيضاً. فرحة أمومتي في البدايات، سأحتضنها معوّضة عمّات وما انكسر على الطريق، وسيأتي نادر ابن قلبي ناصعاً محبباً. أبي أيضاً سيكون في الهناك، يناولني قمع (أيس كريم) حلو، بينما تربت أمي كتفي بحنان، حتى ربحي، سيجيء فاتناً كما كان أوّل مرّة، وسيكون عبد الجليل لطيفاً، عاشقاً محبباً، أكمل نبلاً. ستكون أزمنة مائعة يرتع فيها قلبي، وأني لأتذوق حلاوتها قبل أن تحتضنني بقسوة الموت.

عروس

أنا العروس، يتمدد خيط رفيع من جلد متجدد تحت جفني، مثله في الجفن الآخر، كما تبرز من غصن الشجرة فروع رفيعة، تفرعت من الخط المفاجيء تجاعيد بالكاد ترى، كأنها ضربات خفيفة لسكين الزمن. ما يزال الوقت مبكرًا على تجاعيد الشيخوخة؛ ولكن هزالي الذي ورثته عن أمي يدب في وجنتي ويرخيهما، يحيط بلمي خطان منحنيان إلى الأسفل إذا ابتسمت، ونادرًا ما أبتسم، لكنهما يظهران أيضًا إذا قطبت، وكثيرًا ما افترس الغيظ والغضب أو الحزن ملامحي، لم تعد مرآتي تصدق رنوش المكياج التي أحاول بها إخفاء تواضع الجمال في وجهي، يكشفني زجاجها الصقيل حتى أتمنى العمى. أحسد شقيقتي التي لا ترى انعكاس وجهها الجميل في الفضية الفاضحة، تقزعني الاكتشافات المريرة ويستوقفني تغصن ظهر كفي وأنا أرفع سماعة الهاتف في عيادة الطبيب، أرتبك ثم أتمالك نفسي طالبة من المتحدث إعادة جملته الأخيرة كأنني لم أسمعها.

ما زلت شابة في الثامنة والعشرين، كيف إذاً يشيخ جسدي أمامي؟

أستخدم أصنافاً رخيصة من المطريات التي تعالج جفاف البشرة، ولكنها لا تسعفني كما أشتهي، تتمشى التجاعيد في وجهي وظهر كفي بزيادة مطردة حتى فاقت تجاعيد أمي، أو هكذا خيل إليّ، يضطرب وهمي بين التكذيب والتصديق حين يغمز لي أحد المرضى الذين ينتظرون في القاعة الصغيرة التي أجلس في طرفها وراء مكتب متواضع، أتجاهل النظرات المغرضة، وقد أكثر عن أنيابي إذا تجرأ أحدهم على دعوتي لفنجان قهوة.

نعم يا أستاذ؟ هذا ما ينقصني، حكاية جديدة بأئسة مع شخص التقيته في مرضه، لو كانت ثيابي البسيطة ووجهي الحزين يشيان أني لقمة سائغة للجائعين، فإنهم مخطئون، درّبتني الدنيا

ودرمتني كما تشدّ ظفراً مكسوراً، لا مجال لمثل هذه الأخطاء القاتلة أبداً. مع ذلك فإني خائفة على شبابي وهو يذبل.

بشاعة الفقر لا تعالج بالرضا. أقف وشمس الشميساني تلعب بمؤخرة رأسي وعيناوي تحدّقان خلف الواجهاة الزجاجية، لم يعد في الشارع إلا محلات محدودة للملابس الفاخرة، وبعضها للمجوهرات أو النظارات ومستلزمات الهواتف الخلوية، ومحلات العطور والهدايا وصالونات التجميل، وكثير من مطاعم السندويشات السريعة والدجاج المقلي ومقاهي تدخين الأرجيلة. لو رضخت لنتف عابرة من المغريات لطار مرتبي بلا أجنحة.

أمنح الطبيب ثماني ساعات كاملة من وقتي بلا استراحة، أجيب على مكالمات مرضاه الغاضبين أو الشّاكين، أسجّل مواعيده، وأنظّم دخولهم إليه، أكذب من أجله مدّعية أنه في مهمة طارئة في المستشفى، أعدّ قهوته، وأمّسح الغبار عن مكتبه قبل وصوله، أغيّر الشراشف القديمة التي يمدّد عليها المرضى، أحملها إلى المغسلة وأعيدها، أتفقد الصابون والورق الصّحيّ في الحّمّام الملحق بالعيادة وقد أتورّط بتنظيفه، ثم لا يتورّع الطّبيب عن قرص فحذي إذا مرّ قريباً مني، يتغاضى عن صبيانتيه ويواصل أوامره كأنّ لم يفعل شيئاً. هو رجل كثير الشكوى، يلعن الزّمان الذي لا يتيح له الثّراء المستحقّ، له حسابات عويصة لا يمكن فهمها عن إيجار العيادة وتكاليف الأجهزة وما تقتطعه الدّولة ومصاريف بيته المتراكمة. فهمنا يا سيّدي الطّبيب الألمعيّ، لن أطالبك بزيادة راتبي المحنّط عند الحدّ الأدنى من الأجور، أنا أدبّر نفسي بالقليل الذي تعودته في حياتي، فيما تدبّر أمي تكلفة السّقف الذي يظّلني واللّقمة التي تقيم أودي. وإذا ما شلعت عينيّ أسورة في واجهة زجاجية فإنّي أبصق على رغباتي الحبيسة، وأصرف نظري عنها إلى التّفرّج على شحّادة تعبر الطريق، أو فتاة سوء تمكّنت من التّغلب على فقرها وتحقيق رغباتها ببيع الجسد، يحفل الشارع بهذه النماذج وغيرها من النسوة الراكضات إلى مكاتبهنّ والأمهات المرتبكات في قطع الطريق وهنّ ممسكات بأيدي أطفالهنّ، أنا أقف في الوسط، أتأرجح كبندول ساعة خرب. يروق لي أن أدرك أنّي أفضل من هذه الفئات المطحونة.

هذا مجتمع منافق ونافق في الوقت ذاته، يتظاهر الكبار بأنّهم عفيفو الخواطر والرّغبات، لا تسترعيهم التماعات الدّهب والماس وراء الواجهاة الرّجّاجيّة، ولا يفرقون بين أنواع السيارات على الطريق، الفارهة منها والمركبة، أسمع الفاضلين والفاضلات الجالسين في حجرة الانتظار في

العبادة يطلبون العفو والعافية، يتغزلون بأزمة الفقر، لاعنين الزّمن الرّاهن الصّعب، يذكرون باحترام وإعجاب قدرة الأجداد على العيش في أحوال اقتصادية متواضعة، يقولون إنها كانت متواضعة من باب الخجل والحرص على التستر على فقر أهليهم الذين تعالجوا بالشّيح والقيصوم، لا أعرف ما هو هذا الشّيح وهذا القيصوم. يبدو معظم المرضى وهم يمدّون أرجلهم مسترخين بلداء مجلّين برضى كاذب، لا تستوقفهم الحياة بصخبها وألوانها البهيجة، يتمنون رفع الألم المؤقت الذي أحدثه مرض طارئ، يسامحون الدّنيا على فائض متعتها، متأقلمين وفقدهم وحرمانهم وموقعهم الهامشي في حاشية الكون، منتهى الرضا والقناعة. في محاولة لطلب راحة وهمية، أتمنّى بهم وأتبع خطواتهم ظاهرياً، لكنني في أعماقي السّحيقة، جائعة مثل ذئب البراري، جائعة إلى كلّ شيء، كلّ شيء.

لا يتناسب رصيدي من الخسائر والهزائم مع سني عمري الشّابّ الذي يبدو دهرًا. مهمشة ضعيفة أدعي القوّة، أتمنّى كي لا تفترسني ضباع البشر على الطريق. لست ملزمة باحترام أحد أبدًا، لم أرتطم في حياتي بمن يستحق الاحترام، لكنني تعلّمت التّعايش المرّ بكل أشكاله، في عملي التّافه، مع جيراننا الذين كانوا وظلّوا جيراننا منذ وعت عيني على الحياة، لهذا أبتسم للمرأة ذات الوجه الطّيب المغرق في النور ككذبة مفضوحة، أحبيها بأدب مفتعل، ولا تملك الجارة الساذجة البلهاء مجسات عائلتي الشّيطانيّة لكشف افتعالي اللطف والأدب الجمّ، تنطلي عليها حيلتي، فتقع في فخّي، أو أنني وقعت في فخّها، سيّان، النتيجة أنّها تقرّبت منّي واستطلعت أحوالي، قدمت لها بننًا تخطو برصانة نحو ثلاثينيّات العمر، مهذّبة مستورة، أخفيت جوعي الأبديّ ومغامراتي والأحوال التي غاصت فيها قدمي، لقد جفّت تلك الأحوال تاركة ثغرة كبيرة في القلب.

لعبت بمهارة دور عانس لطيفة تصلح عروسًا، ترتضي بفرصة للأوممة مع أرمل يتقدّمه كرشه، لم أكن قد رأيته بعد؛ إلّا أنّ حدسي يصوّره بكرش ورأس أصلع ومنتف شعر جانبيّة بيضاء، خمسينيّ يقارب أبي في عمره، ما الفرق؟ ترتضي العانس ببيت في بلاد بعيدة تتوفر فيها التّلاجة والتّلفاز والسّرير.

عرضت عليّ أم كريم زوجًا، فرصة أخيرة لا يمكن رفضها، أرمل يعيش حيث يبقبّق الدّهب الأسود تحت عقب الباب، طبعا ليس هناك نفط يتدفّق تحت الأبواب أو عبر النوافذ، هو تصوّر مريض للجوع أمثالي، لكنني أتفهّم منطقيًا أنّ أيّ رفاهيّة حقّقها ذلك الرّجل أو سواه كان لها ثمن

مفجع من الوقت والمهارات والعدو السريع. قدّرت أنّ الفرصة مناسبة، ماذا تريد البنت أكثر من هذا؟ رجل ميسور يدّلّها، ليس عليّ تصور كيف يكون اليسر أو الدلال، سأذهب إليه بقدمي ثم أحكم كيف يكون، حلّوا أم مرّاً، لامعاً مشرقاً أم باهتاً، سأبحث عن مكان بعيد عن بيتنا، أرسم حياة مختلفة، قد أضيع! ولكن ذلك ليس غريباً، قد لا يكون السرير والثّلاجة ومكيّف الهواء والسيّارة على مقاسي، ولكن ذلك أمر ثانوي، فأنا لم أعرف شيئاً على مقاسي أبداً، وإذا انقلبت حياتي إلى الأسوأ، وهذا وارد، فصورته تبرز عينين حادثتين، لا بأس، ألا يقفز البعض في الفراغ بحثاً عن الموت، أو ما بعد الموت؟ ألا يسعى النّاس في مطارحهم الساكنة إلى الضيّاع؟ على أيّة حال، كلّنا سنضيع، فليكن.

تريدني أمّي أن أتريث وأتأكّد، تغار من أمّ كريم التي نجحت في ترويضني لأصبح بين يديها عجيبة لفتاة رقيقة مهذّبة أسبل جفنيّ بخفر، حين جاءت أمّ كريم لزيارتنا لم تكفّ أمّي عن البهلولة بي كأنّها لا تصدّق أنّي ندى ابنتها التي تعرف، ولكنّها تماسكت كما يجب، وانفجرت في اللحظة التي غادرت فيها المرأة شفتنا. أرادت الاطّلاع على تفاصيل الحكاية، هل أعرف الرّجل؟ هل التقينّه؟ لماذا لم تعرف إلّا الآن؟ لا حكاية ولا رواية يا أمّي، هي فرصة لمعت في فضائي المعتم، ولا أعرف إذا كانت أنارت طرفاً فيه أم لا، وإذا كانت ستنتطفئ أسرع ممّا مضت، كما أنّ قلبي المثلوم لا يتّسع للحكايات، لكنّي لن أحكم على فرصتي بالفشل قبل تجربتها، حتّى لو تجرّعت مرارة فشلي. لا ترى أمّي في الفرصة الماثلة أملاً في سعادة مقبلة، لا تتعجل في تسميتي بالعانس، ولا تقنط من فرص أكثر ملائمة قد تطلّ برؤوسها. تنبّهني إلى فارق العمر بيني وبين العريس، لا أجيبها ولكنّي أفهقه ملء صدري، فارق العمر يا أمّي؟ ألم تزحفي إلى جارنا العجوز؟ ولكنّي أتعامى وأتغاضى، لنترك هذه التّرهات جانباً، فأنا آخر من تخدعين.

تُحدّرني من إغراء المال، ليت المال أغراني حقّاً لأبتاع هناء وهميّاً مؤقتاً، وأشتري وقتاً وأشياء تافهة أبدّدها لأتسلّى. هل يتوجّب عليّ انتظار الحبّ أو الثّراء أو الطّمانينة والفرح وقد زحف عمري إلى الثلاثينات مثل لصّ؟ لو أنّي عرفت الحبّ في مستقبل الحياة ربما كنت آمنت به، لو أنّ الفتى الذي بهرني بسيارة المرسيدس احتضنني وقال: تعالي معي نهرب إلى أمريكا، لفعلت. لو أنّه عاد للبحث عني، فأنا لم أغيّر عنوان سكني، يمكن لمن يبحث عني العثور عليّ مكومة منسيّة في مكاني، لكنه لم يعد، كان ما بيننا طيش مراهقة سخيّف. وحين أغواني الشاعر بفحولته وكلماته الغامضة تمنيت أن يطير فرحاً بحبلي فينظم القصائد في تمجيد طفله القادم، لو لم يهرب مثل رجال

العصابات لمجرّد مطالبته بالوقوف إلى جانبي، لكنّك آمنت بالحبّ أو التّعاطف والشفقة. لست متوهّمة ولا حالمة، وأعرف أنّ قلبي ميّت غير قادر على استقبال الحبّ الذي لا يأتي أبدًا!

لم يقع شيء من ترّهات الحبّ ولن يقع، يحدث هذا في الأفلام الهنديّة والعربيّة، لا في مدينة الحجر.

لماذا إذن عليّ أن أفكّر وأتريث وأنا أرمي شبابي فوق كرش عريس كهل؟ كان له كرش وصلعة أماميّة وخصل رماديّة في فوديه تمامًا كما تصوّرت، صدق حدسي، وهذا أمر يبعث على البهجة بحدّ ذاته.

نوال لا تفهم، ولعلّها تفهم وتنكر، لعلّها عجزت في صباها عن الحصول على رجل حقيقيّ يحبّها، أو يهتمّ بها ويرغب في قضاء الحياة إلى جوارها وتأمين حياتها الاقتصادية ومنحها الأطفال، عدا عن القبول بها لتكون أمّ أطفاله، فأورثها الأمر مرارة لا تفارق حلّقها، طبعًا لا يمكن أن أحسب عليها أبي رجلًا حقيقيًّا، فأنا رغم غضبي أعرف أين ظلمت أمي بالتّحديد. لهذا لا تقولي لي: انتظري رجلًا مناسبًا. الرّجال الحقيقيّون الذين يبنون العائلة ويقدّسون الحياة الرّوجيّة لهم مواصفاتهم، يبحثون عن نساء طويلات البال، جميلات، مقلّمات الأطافر، خفيضات الصّوت، شعورهن ممشّطة، رقيقات كزهرات، وصلبات كحجارة صوانيّة، خادما وعشيقات ومدبّرات حياة زوجيّة مديدة، ثلاثة في واحد، هذا لا ينطبق عليّ بتاتًا، سأفشل حتمًا في واحدة من هذه المتطلبات الإعجازيّة. إذا كانت أمي تخدع نفسها أو تحاول خداعي، فإنّي أواجه الأمر بشجاعة، بل بامتنان كبير لجارتنا التي قدّرت أنّي سأرتضي بفرصتها الدّهبيّة، وقد ارتضيت. ثم إنّ أمي مراوغة كعادتها، تنصّحني كما تفعل الأمّهات وتتحرّس على شبابي المهدور وهي تتلّهّف على مغادرتي البيت ولو إلى الجحيم، لست بحاجة لمن يخبرني بمشاعرها الدّفينّة فأنا أرى بوضوح خديّها يختلجان فرحًا، لقد حيّدت نصائحها الغالية جانبًا على عجل، لم تضغط كما يجب، لم ترتمي مدّعية الإصابة بنوبة قلبيّة كما أمّهات السّينما، ولا كلّفت نفسها الادّعاء بارتفاع معدّل السّكّريّ بسبب عنادي، استسلمت سريعًا كأنّها تحمد الله أنّي سأطير من البيت مصطحبةً مزاجي الحادّ وسوء خلقي إلى غير رجعة.

انتفخت محفظتي بمبلغ لم يسبق لي اقتناؤه، هل أفرحني ذلك؟ لا أظنّ، فعريس الصّدفة يملّي شروطًا بدت في الأيام الأولى رغبات ذكوريّة لرجل محافظ، ماذا أرتدي، وكيف أتصرّف، ثم انجلت أوامر وتعليمات نفّذتها بحذافيرها، مخاطبة نفسي بالخداع المعهود، هو رجل متديّن محافظ

يغار على امرأته، يرضيني أن يقدّر أحدهم بأن أنوثتي تستحق الاحتكار، سأغيّر من أجله نمط ثيابي وهذا يسير. أنا لم أبذل تضحية في سبيل إنسان من قبل، حتّى الوقت الزهيد الذي أمنحه لشقيقتي أتمنّن عليها به، ولكنّي أتصرّف إزاء زوجي بتخطيط شيطانيّ كما لو أنّني خبرت الاحتيال عمري كله، سأرتدي ما يريد، بعض الجلايب وأغطية الرأس، وكثيراً من ثياب النوم الخليعة، إذ قدّم لي غاياته بصراحة متناهية: ذكر يشتري أنثى. هذا لا يهم، يمكننا الاتفاق على أن بي ما به، ثم في مخطط جهنمي سأحكم قبضتي على كرشه بصباي، وأتمكّن منه فأفقد حياتي الجديدة بنفسني، إذا كانت أُمّي تظن أنني الضحية في زوجي، فعليها الإشفاق على الرجل الذي سيكون ضحيتي، لأنني لن أسمح لنفسني أبداً الوقوع في مطرح الضحية مجدداً.

اقتنيت لشقيقتي ثوباً زاهياً حتّى لو لم تكن تراه، فإن بهجة ألوانه تمنحني الرضا، كانت نور في تلك الآونة شديدة الانشغال بالدورات التأهيلية، تتدرب على الرد على الهواتف، كما تخطّط لتصبح معلمة تؤهل صغار المكفوفين للتأقلم مع أماكنهم. في الساعات القليلة التي تقضيها في البيت اتّخذت لها أختاً سواي، يمامة بنّية اللون حطّت على أرض الشرفة، أسفت من قسوتي حين قلت لنور أنّ لونها لا هو بنّي ولا أخضر، لون خرائي. لماذا ينشب الشيطان مخالفه في لساني؟ هي لم تكن تعرف البنّي ولا الأخضر ولا اللون الخرائي، ولكنّها تحسّ بسخريتي اللاذعة المحمولة على كراهية العواطف المائعة التي تجمع بنّاً ويمامة، لدهشتي تطير اليمامة إذا اقتربت خطواتي من الشرفة، ولكنها تحط آمنة على طرف كفّ نور تتناول الأرز المبلّل من راحتها بكلّ دعة. إنّها يمامة حقيرة تستشعر روح الشيطان فيّ، وتأنس للملاك في نور.

لم أصدّق حكاية الملاك هذه يوماً، فقدان البصر ليس سبباً كافياً لولادة ملاك، إذا لم يكن مُسوِّغاً معقولاً لتخليق جنس شيطاني يتخفّى وراء قناع بريء. هي الأضعف التي تحتاج إلى ذراع تستند إليها، هي الوداعة التي تتحرك بعد أن يتمّ إخلاء الطريق أمامها وترتيب حاجياتها بصورة نمطية، وهي الطفلة التي ستظل بحاجة لمن يقرأ لها القصص حتّى بعد أن تعلّمت القراءة بتحسّس الحروف النافرة تحت أناملها، وهي الجميلة التي لا تتمكّن من معرفة تورّد خديّها في المرأة، هي من يقطعون الطّعام إلى لقم صغيرة في صحنها، تبتسم بدعة وغباء تام إذا داعب نسيم الشّرفة خصلة انفلتت من شعرها الملموم، لكلّ تلك الأسباب السالفة أحب شقيقتي، ولنفس الأسباب أكرهها، ولكني الآن أداري كراهيتي بلطف، بثوب قشيب وحذاء جديد، فأنا على وشك الطيران إلى دنيا جديدة لا أخوات فيها، وقد أبدو كتلة من النّذالة إذا صارحت نفسي أنني أغار من عماها وأحسدها عليه.

مع اقتراب موعد سفري وفي وقت قصير للغاية نجحت في ترميم علاقتي بكل أفراد عائلتي، غطّيت براكين قلبي بسقف شفاف واهن، حتى أمي التي تصايحت وإيّاها حول الزّفاف وخروجها إلى خطيبي بشعر مكشوف، جرحتها ثم رمّت الجرح بإهدائها شالاً مطرّزاً. هدأنا كما لو أننا قطّان ملّتا العراق والخريشة والعضّ، فاستكانتا. تلطّفت مع نور وضحكنا سوياً على أشياء بسيطة وظنّنت في أعماقي أنني حقاً سأفتقدها. تقاربت بعض الشيء وشقيقي نادر الذي يستمتع بلعب دور الرجل أمام الخطيب فيتحاوران بشؤون الناس، في أعماقي أضحكني أن نادر كبير فجأة وصار رجلاً يحكي في أمور الدّين ويسمع باهتمام لزوجي المستقبلي، أراحني أنه غطّى جزئياً الغياب المعنوي الذي أحدثته حالة أبي الغريبة المخرجة، حدّثت خطيبي عن أيام أبي المجيدة حين كان مرجعاً في السّياسة والفلسفة، لا يترك نشاطاً ثقافياً لا يرتاده، ولم يبدُ أنّ هذه السيرة مبهرة في عينيه، فكففت، ومنحت وقتي كلّهُ لاستيفاء احتياجاتي واستخراج جواز السّفر بصورتي وقد أخفيت شعري وراء حجاب أنيق، سأفر مثل دجاجة تذبح عندما أضع قدمي على سلّم الطّائرة منفلتة صوب الخليج العربي حيث سأمحو حياة كاملة من ذاكرتي.. وباي باي الشّميسانيّ.

اليمامة

ينقلب البيت في الأزمان إلى سجن خانق، هو سجن على أي حال، ولكني لا أتصرف كما السجينة، أبدو مطمئنة هائلة، هذا ما يحدث دائماً، أظن أن ذبذبات صوتي وربما ملامح وجهي احتفظت بهدونها ودعتها، حتى لو اشتد بؤسي وإحساسي بالعمى، ولو تضافر حزني بالغضب والرفض والعجز الفادح. وجيعتي أنني عمياء مدللة تحت اسم الشفقة، في معظم الأحيان أفلت من قبضة اليأس إلى آفاق منيرة جميلة، لكن عائلتي التي تختلف حول ما إذا كنت ملاكاً كفيفاً أم معاقة ثقيلة لا يمكن الفكك منها، تحرمني من التحليق في تصوراتي الخاصة وتعيدني إلى زاوية اليأس مرغمة. أسبابهم بعيدة عني، تتعلق بأمزجتهم الصعبة والعوائق التي يتعثرون بها كلما اقتربوا من بعضهم البعض، يمزقون ستر بعضهم بلا حرج وينفثون خلاقاتهم في الهواء لتزداد الحجرات ضيقاً وظلمة، فأتوق للابتعاد عن كل هذا الضجيج المزعج الذي ينخر رأسي وبدني كما الإبر الحادة. أصم أدني عن صياحهم وتناولهم وحمى الشتائم، لا أرغب في الجلوس تحت فيء أشجارهم الشوكية ولا وثير أرائكهم المبعوجة، أتمنى الفرار وأوشك على تحقيق رغبتني وأنا أترجع إلى كهف روحي وحيدة، كأنما بكبسة زر أعطل حواسي لتنضم إلى فراغ العينين المعطلتين أساساً، أنكفي على ذاتي، أتحرج بعيداً، أو أنطلق سهماً شريداً يخترق فضاءهم البليد فاراً إلى آخر العالم، سهماً أعمى يقف عند حافة هاوية تفتح شذقيها تحتي ملهوفة على ابتلاعي، قد تزل قدمي وأهوي إلى قرار صلب أنهشم فوق صوانه المدبب، وقد أطيرو.

لو ألقيت جسدي أو حلقته به، فإنهم لن يتمكنوا من اللحاق بي، لو طرت، ولا بد سأفعل، فإنهم لن يمدوا أيديهم المتعاطفة لجذبي وإنقاذي وإرجاعي إلى عوالمهم المسعورة اللزجة المثقلة بالأنين والجراح، لن ينتشوا أطراف ثوبي لأقع على ركبتني متوسلة عطفهم، ولن ينالوا فرحة دموعي ولا بهجة انتصارهم، لن يتسنى لهم سماع صوتي يسبح بأسمائهم ممتناً. حين تجتاحني هذه

المشاعر الملتبسة أطمئن أنني لست ذاك الملاك الذي يتحدثون عنه، ما أنا إلا فتاة عمياء تعالج أوجاعها بالوهم حيناً والصبر حيناً، وفي فلتات متباعدة تسمح للغضب أن ينال قلبها مثل شرارة تحرق أطرافه ثم تنطفئ.

أمران حدثا في حياتي أشبه ما يكونا بتلك الومضات الخفية التي تعبر عمتي بين الحين والآخر، أيسر واليامة، غريب أن يقارب المرء بين رجل وطائر، ولكني أفعل، أنا لست ملزمة بمقياس للرجل، فلم أجرؤ طوال معرفتي بأستاذي وصديقي ونبض قلبي أيسر على تحسس وجهه، كل ما كان لي منه أنامل دافئة تمسك أناملي المرتجفة الواجفة بقوة تخلو من القسوة، تعلمني معنى النقاط النافرة على الورق المقوى، عبرها أقرأ نتفاً من العالم، وبين الجلد والجلد في النقاط التي حدث فيها العناق والتلامس متعة تسيح فؤادي وتصطحبني نهارات كاملة، يحدث هذا التلامس بين كفي وجسد الحمامة بوبرها الناعم وريشها الراعش الذي ينقل نبضات قلبها إلى بطن راحتي. قد أثير استنكار عائلتي لو صرحت بتلك العلاقة الوشيجة بين رجل وليمامة، لم يلتقيا ولا يربطهما إلا قدرتهما الفذة على جعل نبضي يرقص في صدري بدقات وإيقاعات سريعة. لكن شغفي سر أحتفظ به ولو أن أُمي تمكنت من النقاط إشارة حول علاقتي بأيسر.

بدأت العلاقة منذ الطفولة، كنت صغيرة وكان رجلاً، كنت عمياء وكان مبصراً، لكني حدثت أنه يبتسم بود، رصدت انتظام أنفاسه الصبورة العطرة وأنا أحكي عن أحلامي وأفكاري التي لا أبوح بها لسواه.

قال لي: لا تخافي، حتى الذين يبصرون يحلمون، أثناء النوم أو في اليقظة، يرون ما يتمنون أو يخافون، يرون ما لا تراه العيون. العالم ليس كما نراه حقاً، تحسسي الأشياء، تعرّفي على الكون من خطوط الخرائط البارزة، أو حروف بريل النائنة، اعرفيه من تكور التفاحة الملساء، من نعومة وبر القطة الأليفة، عالج الكون المصغر بين أناملك، لاحظي تعرجاته وانثناءه وخطوطه المستقيمة، هكذا يبدو الفيل كما تلمسين مجسمه البلاستيكي، لكنه أكبر بجلد مجعد وعينين حلوتين، وهذه هي السيارة، صماء خطوطها مستقيمة تحوى من أسرار العقل البشري ما يجعلها تسير على الطرقات، اتركي جذع الشجرة الخشبي يخبرك سرّاً قديماً حين يخرش باطن كفك الناعمة، فهو ليس جذعاً ميتاً. إنّه مخلوق يحس بك وإن لم يرك، العالم ليس ما تصوره العيون أو يوصف لنا ولا حتى ما نتخيله، وراء عقولنا التي تعقل الأشياء تغيب أشياء، كون لا نعيه كأننا لسنا فيه، من يعلم؟ فالعلم

يقفز مثل مجنون مطلق السراح، صحيح أننا ما نزال في طور الطفولة، ولو اخترقنا السحب إلى المجرة العالية، ولامسنا القمر بخطى ثقيلة لا يشعر مجنح، حولنا الأسلاك الكهربائية وتيارات المغناطيس إلى قلوب تنبض وذكاء يعجزنا، وبنادق قد تغتالنا، ليس ما نعرفه هو الحقيقة كاملة.

لعل عالمي يا أستاذي الحبيب أكثر بهجة وتعدداً من عالمكم، فأنتم ملتزمون بما تراه أعينكم، بينما يفتح الخيال لي أبوابه مساحات واسعة تلعب في فضائها ألوان لم تقع عليها عين ولا خطرت في بال، آفاق تنبض إذا لامستها، تفوح بالعبير إذا شممتها، تتحوّل حين ترتبك المسميات حولي، تتخذ أشكالاً فريدة لا يعرفها المبصرون. لعل الواقع الملموس الوحيد الذي تاقت نفسي إليه ولم أجروّ على البوح هو وجهك، لو مرت أناملني فوق أنفك وانحدرت إلى وجنتيك قد نندمج معاً في لحظة عبقرية من لحظات ولادة العالم، ولكن هذا لم يحدث، ظلت أتساءل عن مدى وسامتك رغم فيض الجمال الذي ينحدر مع شلالات صوتك، الحنان الخافت في النبرات والدفء الرطب في لمسة الأنامل.

منذ الطفولة وأنا أقف في قلب السؤال عن ملامحك، تخيلت كثيراً ومنحتك تضاريس قوية؛ لكنّها باسمه، هكذا يجدر برجل أعشقه، وهل ما بي هو العشق؟ لن أرهق عقلي وقلبي بالإجابة على السؤال المحير، ولن أتنبع مساقط الأشواق حين تغيبني عطلة طويلة عنه، ولا حمم الغيرة والحسد حين يتحدث عن زوجته وأولاده، ولا شلالات البهجة وهو يعتني بأموري ويتابع إنجازي، ولم يكن إنجازاً مرموقاً، فلم أجد أكثر من القراءة والتدرب على نظام الرد الهاتفي، حاول أيسر مرة إقناعي بدروس الموسيقى، ولأنّ روحي نزفت وأنا أسمع النغم الذي يحدثه احتكاك الوتر بالوتر في آلة الكمان التي تعزف عليها زميلة كفيفة، فإني تراجعت، كأنّ الموسيقى اختبار لنيم لأحزاني لا درباً للفرح، كنت أعرف أنه لن يتخلّى عني حتى يجد لي مصدر رزق أعتاش منه، مما أخافني من اجتهادات تجعل مني عازفة بارعة أو طالبة جامعية، كلما سرت خطوة للأمام سيرتد أيسر خطوة بعيداً عني، وكنت أحتاجه، لن أقوى على الصمود إذا خسرت في حياتي، ليس أنّي أحتاجه ليقودني في الطرق التي لا أعرفها، ولا ليساعدني في ترتيبات حياتي التي بتّ أمارسها بآلية تامة ناسية تماماً أنّي عمياء، لكنّي معلقة في ثنايا الصوت والعطر، ولا أسمى مشاعري حباً.

لا أريد لنفسي من الحياة أكثر من وجوده فيها، مثلما هي أُمي مخلوق حقيقي موجود في حياتي دون التباس ولا أسئلة، وإن سألت هي نفسها السؤال حافرة في بئر مرير هاتفني يزف

لي نبأ قبولي موظفة على الهاتف في شركة كبيرة، لم أع أن نبرات صوتي فضحتني، فلم يكن لأحد من عائلتي تلك الحساسية في فهم الصوت كما أفعل، ولم يكن بإمكانني رؤية اللون يتقلب في وجنتي وإن شعرت برجفتها وصوته يصب في أذني عبر جسد الهاتف البارد. اجتاحت الحرارة رأسي ولا أعرف إذا كانت هذه الحالة تلون الوجه، التقطتني أمي ببراعة وأغلقت الباب بين الحجرة والصالة لتستفسر عن علاقتي بأيسر، لتنبهني بأني هشة إلى حد أن أكون ضحية لرجل ما يتجول في الأرجاء كالذئب بانتظار الفريسة. لم يكن أيسر ذنبًا، ولا رجلًا. إنه عالم من الخير لا يعرفونه، كثيرًا ما أردت دعوته إلى بيتنا، فقد ينتشر عبيره في حقولنا الذابلة، لكني لم أفعل، العميان أيضًا يعرفون الحرج.

فقات أمي جرحًا منسيًا، ذكّرني بأنه رجل متزوّج، لم أنسَ يومًا، ولم أكن أحتاج لمن ينبّه ويذكر؛ فعلاقتنا تمضي في مدار لا يتقاطع مع المدارات المرتبكة ولا تلك النمطية، أنا وأيسر شيء آخر وإن لم ألمس وجنتيه، وإن تعرقت خجلًا حين أستيقظ وقد حلمت به أحلامًا جسورة، نحن حالة مغايرة. ذلك لا يعني أنني لا أفهم الحب والكراهية، العشق والرغبات، لكني أحمل المسميات كثيرًا على جناح التأويل، وأظن أن الحب والصدقة وشتى العواطف التي تندلق دافئة أو تنحسر باردة، قد تكون وهمًا، مسيرة مدارين تقاطعا في لحظة زمنية ثم استكملا دورتهما وتباعدا، زحفا متفارقين أو انفصلا بسرعة لا يمكن رصدها.

هل كنت أرى أكثر مما يرون؟ أعرف ما ينتظرنا على الأقل، قد أبدو مجنونة كاذبة لو تحدّثت عن اللحظات السّحرية التي كنت أظن فيها أنني أرى، مثل أن أسير في الشارع أتسلّى بركل الحصى الذي أمامي، سأبدو لهم كأني أرتطم بالحصى وأتعثّر بالحجارة، لكني في الواقع كنت أعرف أن أمامي في التّوّ حصاة صغيرة أو حجرًا كبيرًا، أرجع بكعب قدمي مقدار نصف خطوة، ثم أركله بمقدمة حذائي، أسمع رجع صوت انفلاته عن الطريق وطيرانه المنخفض، أمارس لعبتي على الطريق، وفي أمور أكثر أهمية، لم أكن أحتاج تبين أمر علاقتي الشائكة بأيسر، لقد رأيت الحصاة أمامي مباشرة، وكنت عازمة على الرجوع نصف خطوة وركل مشاعري ثم سماعها تئن وتتهشّم، وهي تطير ثم تقع.

بح.. بح.. هكذا كانوا يقولون لي في الصغر وهم يصفقون أكفهم في صوت أشبه بتلاطم الأصابع التي ترثي الرّحيل. لو أن الأجسام الكونية للعواطف مستديرة حقًا كما هو الكون، فإنّ

المدارين الحائرين قد يقعا في مسار بعضهما بعضًا مجددًا، لكنّ الذي تبدّد مثل غبار كونيّ لا يتجمع على ذات التّجسّد، سيختلف كل شيء، قد يتّقد وقد يخبو... لكنّه ليس هو.. ما يموت يموت.

هكذا أفهم صعود وهبوط علاقتي بشقيقتي ندى، محبتي لأمي وأبي، انتباهي إلى مرور شقيقي نادر في مداري، غيابهم وحضورهم، ولكني لا أريد الاعتراف بأنّ ذلك المقياس الذي أستعين به لفهم العالم واحتماله قد ينطبق على أيسر، أصرّ على أننا حالة فريدة، وكفى.

أمّي كائن ثابت في حياتي، أستند إلى ذراعها دون تردد، أعرف أن كل ما يحيط بي من تنظيم يناسب حالتي هو جهد خاص منها، وأدرك أنها لا تمنح هذا الاهتمام لسواي، فخرائن ندى ليست مرتبة بالقدر المعقول، وطعامها ليس جاهزًا في معظم الأحيان، ونادر يحتاج إلى أسابيع يشكو فيها من قطع في مقدمة حدائه قبل أن تتذكر أمي شراء حذاء جديد، وأبي ليس معنيًا بهذه التفاصيل، سواء تلك التي تخص البيت وتنظيمه أو الأبناء واحتياجاتهم، هذه تضحيات تقدمها أمي دون أن يقابلها شكر وعرفان، فجميعنا نمتلك الشك الكافي الذي يرجح لدينا أن نوال تحرص على قبض زمام الأمور بنفسها لتظل المسيطرة، ربّان سفيتنا المخلخلة الهائمة في لجة الضيّاع. أعتذر أمام نفسي من أفكار الشريعة، لقد وضحت منذ البدء، لست ملاكًا كما يظنون.

لعلّ ندى بما تنطوي عليه روحها من خلل قادرة على نزع صفة الملاك عني، لا أحتاج إلى رؤية الشك في نظراتها، ولا يلزمني رؤية الغضب في وجهها، تكفيني النبرات الحادة والضحكات الساخرة وراء الكلمات، تلك التي تحاصرني بها كأني سبب مباشر لتعاستها، كلما وقعت في محنة صبت غضبها عليّ، ولأكون منصفة، ليس عليّ وحدي، كانت ندى تهشم الأطباق إذا غضبت، تضرب رأسها في الحائط إذا طال عراكها مع أمي، تنبش أدراجي المرتبة وتبعثر حاجياتي أرضًا علامة على احتجاجها، تبكي بحرقة ممزّقة الوسادة ليلاً، متوهّمة أنّي نائمة لا أسمع نشيجها ما دمت أحبس أنفاسي مرتعدة في سريري، لكنّ كلّ تلك الثّوبات الجنونيّة التي تعترني شقيقتي أخذت بالانحسار وقد كبرنا وزهدنا بالعنف في مجابهة الدّنيا، كانت تكبرني بعشرة أعوام مما يعني أنها أنضج وأكثر قدرة على كبت غضبها وتعاستها، وقد نجحت تمامًا في اجتياز أزمات عمرها الواحدة تلو الأخرى، وبدت مخلوقًا رائعًا ودودًا وهي تتأهب للزواج، كأنها في هدنة مع الحياة، صارت تدلّني أمام خطيبها الذي يشفط الهواء من المكان، لم أحبه، ولكني البنت الطيبة، الملاك التي لا يجدر بها إظهار مشاعر عدوانية تجاه رجل دخل البيت لإسعاد شقيقتي التي لا يسعدها شيء.

ولأنني مرتبكة وأنا أتعامل مع أبي كأنه رجل جديد تمامًا، ولم أعود فتح جبهات للصراع مع ندى حتى في أوج أيام غضبها، فقد هادنت بلطف واكتفيت بالتواجد بالاسم اللطيف، سعيدة بهدايا أختي البسيطة، وأكثر حبورًا باليَمامة التي وقعت في شرفتنا ولم تتمكن من الطيران لأيام قبل أن أداوي التواء في جناحها.

صباح عمّانيّ عابق بالأكسجين، محمّل نسيمه بروائح رطوبة شذية تصعد من حدائق البيوت المحيطة بالشرفة، لكنّي ما إن دخلت إلى مقعدي الأثير حتى شعرت بوجود كائن أسير، كانت اليمامة تضرب جناحيها مذعورة في بلاط الشرفة، اخترقت رائحة الريش الجريح شمّي بقسوة، وانكسر قلبي وأنا أنزل إليها أرضًا أبحث عن الجسد الصغير المذعور، وحين أطلت أمّي مندهشةً لركوعي أرضًا، كنت قد أمسكت جسدها الراجف أمسده في محاولة لبعث الطمأنينة حول نواياي اتجاه الكائن الذي لم أعرف ما هو حقًا، إذ لم أكن قد لمست جسد طائر مسبقًا إلا في مجسمات ميتة لا نبض ولا حرارة فيها، استمر هديلها الخائف وخرير صوتها المضطرب وأمّي تشرح لي أنني أمسكت بيمامة جريحة، كيف تكون اليمامة؟ وما الذي جاء بها إلى شرفتي؟

بات عندي هناك مخلوق عاجز يحتاج رعايتي، بلّت أمّي الأرض أول مرّة ساخرة، ولكني واصلت تطيبب الجسد العليل بالتمسيد والشراب والطعام، وقطّبت جبیني حين لونت ندى اليمامة بسخريتها القاسية لونًا قبيحًا، صرت أقضي وقتًا أطول في الشرفة، ثم في صباح آخر اختفت اليمامة من الشرفة ففزعت وأثرت ضجة حول مصيرها، بحثت أمّي في الحديقة أسفل الشرفة وعادت تطمئنني بأن يمامتي شفيت ولعلّها حلّقت، احترق قلبي، لن يكون هناك ذلك الوبر الناعم الدافئ الحي لينبض على لحمي، لن أشعر بمتعة النفقات الودودة ومنقار اليمامة يتناول الحب المبلل في كفي، ليس هنا قلب أستطيع ملاحقة نبضاته وتنغيمها مع نغمات قلبي، ولم أكن طفلة لأبكي وأحدث ضجيجًا حول يمامة طارت، بل بدا أن عليّ التظاهر بالفرح لأن جريحتي شفيت، انكفأت على نفسي متألّمة، لكن اليمامة الحبيبة لم تتركني لوجعي مطوّلًا. عادت عصر أحد الأيام، رقت بهوادة على إفريز الشرفة وانتظرت خطواتي الحذرة وأنا أقدم منها مستهدية بخيرها الناعم ورائحتها الدافئة، مددت يدي متأنية صوب النقطة التي توقعت أنها فيها، استشعرت رجفة خفيفة في ريشها وأنا ألمسها ثم استكانت، وصمتنا أنا وهي منتظرتين برهبة الخطوة التالية، لم تهجرني يمامتي وظلت تعود في أوقات منتظمة، تنقر الحب من راحتي، وتشرب من الكأس التي علقتها متأرجحة في سقف الشرفة، وتنفر مرفرفة بريشها مبتعدة إذا خرجت إلينا في الشرفة أمّي أو ندى اللتان تضحكان على تلك

العلاقة العجائبيّة التي قامت بين فتاة ويمامة، لكنهن لا يعرفنّ أني وطيرتي الغريبة حالة خاصة جدًّا أيضًا.

ازدحمت الحجرة بالحقائب التي ابتاعتها ندى استعدادًا للسفر ولم أكن مستثناة من بهجتها المصطنعة، إذ تعود وقد ابتاعت لي ثوبًا أو حذاءً أو عطرًا ناعمًا، ويحدث وهي ترصّ مشترياتها في حقائبها أن تداعب رأسي قائلة: سأشتاق لك يا ملعونة.

ينفطر قلبي لمثل هذه الكلمات، فلم أكن أحلم أن تشتاق لي شقيقتي. لكنّ كلّ ما يحدث في بيتنا صار مهيجًا للعواطف، ندى التي ستبتعد إلى بلاد حارّة، والحجرة التي ستصير بهوًا واسعًا إذا خلت من أشياءها، والبيت الذي سيصمت إذا غاب صوتها، وأمي الحزينة، وأبي الذي لم يعد يعرفنا، وصار بحاجة إلى من يعيده إلى البيت إذا خرج كأنه أعمى، هل يفقد الناسي ما كانت تدركه حواسه، هل تلتهم في ذاكرته ومضات عابرة كتلك التي تتراءى لعيني؟ ثم نادر وهو يحاول فرض سلطة جديدة له في البيت، رغم غيابه الطويل، كل ما حولي يثير فزعي رغم وجود أيسر واليمامة في حياتي.

تتأرجح حياتي بثبات محمولة على أطراف واهية ولكنها كافية لبعث الإحساس بالسكينة والرضا، كانت ندى تسمّي سكينيّتي المصطنعة بلادة، كيف إذن إذا شهدت سكينيّتي الحقيقة، حيث البيت هادئ والحجرة واسعة صامتة لا يلعب في فضاءها إلا الهواء ودف الضياء المتسلل من الشرفة، ووشيش خافت للتلفاز المفتوح في الصالة، حيث تجلس أُمّي على أريكتها صامتة، يصلني صوت تنفّسها، وهي تسمع نشرات الأخبار وتصايح الشعوب التي تهتف بسقوط الأنظمة، بينما أُمّي رفيق شاشة الأخبار القديم هائم على وجهه في أحد شوارع الحيّ، قد يصل إلى المسجد ويعود، تجلسه أُمّي في أريكته وتأتي له بالشاي، تدلّله كما لم تفعل في حياتها، قد تغالي وهي تطلب أن أناولها الغطاء الوبري الناعم المطوي عند ذراع الأريكة، أتحمسه وأحمله لها وأعود إلى مقعدي منتبهة إلى رفيف الغطاء يرتفع في الهواء وينفرش فوق جسد والدي الساكن. أرجح أنه نام على الأريكة، ثم تصلني خنشرة متتابعة لشخير مؤكدة حدسي، وما يزال معلّق نشرات الأخبار يبدون إعجابهم بالمليونيات التي سدت ميادين القاهرة وطرابلس وتونس وصنعاء، وقد هرب من هرب وقبض على من أمسكوا به، خوزقوا أحدهم وحرّقوا آخر. لا تقول أُمّي الشيء الكثير عن الربيع العربي، ولا أظنّها تدقق كثيرًا في المسميات والتحليل الرسمي أو المعارض، لا تفرق بين قناة

وأخرى، ولا بين خبر محلي وآخر دولي، كأن تعدد العالم لا يعنيه، لست أنتقدتها لمجرد قدرتي على اكتشاف القناة الفضائية بمجرد سماع صوت المذيع أو المذيعة، فقد حكمت عليّ حالتي أن ألزم مقعدي مطولاً إلى جوار والدي، بت خبيرة بمواعيد البرامج والأخبار التي كان أبي يعشقها ويفرضها على المستمعين القلائل في الصالة الذين لا يتجاوزون أنا وهو في معظم الأحيان؛ لكننا مؤخرًا نجلس أنا وأمي وقد تقطعت أنفاسنا وسافرت كل واحدة منا إلى دنيا خيالاتها الخاصة بينما يجتهد المذيع في الوصف بحماسة عالية لا تحدث ردة فعل حقيقية في الصالة الرطبة مغلقة النوافذ. ندى في بيتها على شاطئ الخليج ربما تحرق بالبحر أو تقلي السمك لوجبة العشاء إرضاءً لكرش زوجها، أبي تائه في مكان ما، سيعيده بعض المارة إلى البيت وقد يصعدون به السلم فلم يعد جارنا يستطيع مساعدته في هذا الشأن وقد انتهى مقعدًا، والمقعد مثلي يفتقر إلى مهارة ما أو حاسة تجعل الحياة تستقيم، ولا بد أن نادرًا يقود سيارة خالي المستهلكة الآن على طريق الموت بين عمان والزرقاء، هو حال جدير بالتأمل، لكني أتلهى بخيالاتي وبأسئلة حارقة عن الحب أو إيقاع الحياة في بيت رجل متزوج من امرأة لا يحبها، يغادر سكنه فجأة للبحث عن حبيبة تشعر به وتتوه فيه حتى لو تكن تراه.

أعرف متى يصبح لازمًا الانسحاب من الحكاية الخيالية، أزجر ذهني من أن يتمطى أكثر مما يسمح به الواقع الجاف جفاف الجدران الملبسة بالجبص. أعود إلى مقعدي قبل السقوط من علياء تحليقي الخفي، أرصد أنفاس أمي حولي وأطمئن.

لا تبالي أمي بتفاصيل كثيرة؛ إلا أنها قادرة أيضًا على صناعة الاضطراب حولها، تصرفت كأن مصيبة وقعت عندما امتنع أخي عن الرد على مكالماتها الهاتفية وأطال غيبته، رغم أن ذلك حال طبيعي للغاية ومتكرر، لعبت دور الأم القلقة وحين فجعها خالي بأنه لم ير نادر منذ شهر دمدمت بكلام كثير، شتمت حظها وزوجها وولدها، وعرجت على الأنبياء واليوم الذي ولدت فيه، ثرثرت مطولاً وهي ترتدي ثيابها استعدادًا للخروج في رحلة بحث عن الولد النذل الذي أثار رعبها، توقفت قبل الباب بخطوة صارخة بحسم: «إذا جاء أبوك أجلسه في مقعده وأغلق الباب، ضعي المفتاح في جيبك، لا تسمح له بالخروج مجددًا، لا ينقصني البحث عن المجانين أيضًا».

لم تعرف أمي أنني بكيت حين غادرت، ليس أنني لم أعتد صراخها وسبابها، ولا لخوف استبدّ بي كما طالها، ولكنني شعرت بالاختناق، كان لا بد من تدفق دموعي لتفسيح مساحة ضيقة لنفس

يدخل إلى صدري، أفتح فمي وأغلقه ثم أجهش بالبكاء على مجمل الحياة منذ اللحظة الأولى التي انطفأ فيها ضوء العالم وغرقت في العتمة، بكيت بحرقه ذلك أنني وحدي في البيت، حين أكون وحدي يتسع البيت لأحزاني الخفية.

لم يهمس حدسي في أذني سرًا يفضح ما حدث مع نادر، لا بد أن حدسي يخونني، لم أفهم حجم الكارثة إلا وأنا أسمع أمي تحدث جارتنا بلهجة مريرة عن نادر الذي طفش إلى سوريا، كانت تحقق مع زوجة عبد الجليل عن علاقة ولدها الداعية بالأمر، وتلقّت منها ردودًا خشنة وتهديدات مبطّنة، لم تعد المرأتان قادرتين على هذا الجوار المنزل، توشكان على إعلان حربهما الخفية، وكأنّ كثيرًا من الدم سيكون.

تفتتت سكينتي تمامًا رغم أيسر واليماة اللذين يمرّان وهمين حلوين في خيالي. حطم أبي مرآة حجرة النوم أيضًا فتفتت كأعصابي حين أرغم على المكوث في البيت، في الواقع لا أعرف السبب الذي يدعو المبصرين إلى نصب المرآة في حجرة النوم، كانت ندى تستخدمها لتزيين وجهها بالصبغ التي تقفل المسام، ولكن ماذا يريد منها والداي في حجرتهما؟ هل من الضروري رؤية تعبهما فوق الجباه وعمرهما ينقص؟ هل يرتاح أحدهما وجسد الآخر يمر وراءه في المرآة؟ ألا تكفي مرآة الحمام التي يتأكدان في زجاجها أنهما قد غسلا وجهيهما جيدًا؟ للمبصرين حالات عجائبية حقًا، ضرب أبي المرآة بقبضة كفه مرات متتالية وصرخت أمي كما لو فقدت عقلها تمامًا، تعاركا وهي تحاول لجم نوبة الجنون التي جعلته يلاكم غريمه في المرآة. مرت لحظات مفزعة وقد فتحت الباب للجارة وابنها ليتقدّما، مساعدان أمي على التّحكّم بجسد أبي التّائر وصياحه المخيف. تتمم الشّيخ الدّاعية كريم بآيات قرآنية على عجل حتّى أنّي لم أتبيّن الكلمات بوضوح، ثم جاءت سيارة الإسعاف، سمعت صفارتها قبل أن تتوقف بباب المنزل الخارجي وتنحيت جانبًا للمسعفين الذين أحدثوا جلبة عند دخولهم، ثم في دقائق قليلة همد كل شيء، توقفت الحركة وتراجعت ثائرة أبي وقد حقنه المسعفون بإبرة مهدئة. أمسكت أمي نحيبها وشتائمها، وتوقف الداعية عن قراءة القرآن فوق رأس أبي، بينما رجحت أن أم كريم تقف ذاهلة وقد وضعت كفّها على فمها، إذ كان شهيقها يجتاز أنفها، ثم لا أسمع رجعا لزيورها. هدا كلّ شيء، فانخرطت بالبكاء.

لا أحبّ نفسي الجديدة التي تنهي كل إثارة في حياتها بمقطع باك. أزجر نفسي وأنهاها، لكني أفضل عندما يكون الحدث جلّا، أعني أن الحياة حولنا تتهاوى ويصر مذيّعو نشرات الأخبار على

تنغيص حياتنا المشوهة أساسًا بمزيد من الأوجاع وانطفاء الحماسة وضياع الأحلام، أخي في مكان مجهول يقاتل في سبيل عقيدة لا يفقه فيها، أراهن أنه لا يدرك الأسباب التي قادتته إلى طريق الهرب، ثم يهشم أبي المرأة موقعًا في كفه جروحًا خطيرة استلزمت جراحة في طوارئ المشفى، ولا مكان يمكنه تضميد الفجوات التي شتتت ذاكرته. أليس هذا أمرًا جليلاً؟ يهون إذن أمر ارتباك أمي التي صارت تنسى ترتيب حاجياتي كي أهتدي إليها بسهولة، أندرب وحدي على تفاصيل صغيرة، كأني عميت مجددًا في بيت كنت أظن أنني أعرفه.

تخالط الكوابيس أحلامي، العميان أيضًا يحلمون، في منطقة الحلم البعيدة السريّة أرى الحياة التي أتصوّر، لكنني لم أعتقد لوهلة أن رؤيا شيطانية ستشق عتمتي لأرى ما رأيت. رأيت بيتنا، عمارتنا، شارعنا، شميساننا، عمّاننا، مربعة متساوية الأضلاع، مثل علبة كبريت صغيرة، مزدحمة بأعواد قابلة للاشتعال، لكنها في سلامها المخايل باردة. رأيت السماء تنفتح فوقها، وطير أبابيل تصول وتجول، وجمًا من نار تهطل بغزارة فيشبّ اللهب في الأخضر واليابس، سمعت أنين الحرقى وجعير الرجال وصرخات الولدان، والنساء يجأرن في مرثيتهن الأخيرة، ثم ركع الرماد منا في توسله الخاشع يستجدي عفو الإله دون جدوى.

لا يمكنني حدس الموسم الذي نحن فيه، أكان صيفًا أم شتاءً ولكنني دفعت باب الشرفة، واستنشقت الهواء، بعمق كأني طالعة من الغرق، لم تكن اليمامة هناك، ليس موعدها على أيّ حال، مرّ الضوء العابر مسرعًا وجرح عينيّ ثم اختفى، ظل منه وهج يشوشني صاعدًا في جمجمتي، يغشاني يقين: لا بدّ أن الكون كرويّ شفاف، الخارج يكشف الداخل والعكس صحيح، لوهلة ساورني خوف ظننت معه أن الروائح التي أعرفها تلاشت، والأصوات التي ألتقطها اختفت تمامًا، وقدرت أنني لو مددت كفي في محاولة للمس الأشياء فإن الهباء سيكون نصيبي، كنت واقفة هناك لا أرى.

نادتني ندهة خفيّة غامضة، وشعرت أنّ اليمامة تحلّق قبالي، عرفت طريقي إلى إفريز الشرفة دون تعثر، مططّ ذراعيّ على آخرهما، فنبتت أرياش قوية ناعمة ممتدة كالأجنحة، ارتكزت بطرف أصابع قدمي رافعة كعبي عن بلاط الإفريز. دارت الريح حولي تلاعبني، صفرت وغازلت أطرافي ترفعها طاردة توجسًا خفيًا، التفتّ النسائم حولي تراقصني، اهتزرت نشوة ثم طرت.

شئل

أفتح جفنيّ كلّ صباح على عيون زائغة، يقع بصري على ذات المشهد الذي تبدّلت فيه حياتي إلى الأبد. كنت واقفاً أمام مرآة الحمام أبلل فرشاتي بالماء وصابون الحلاقة، فأنا لا أستخدم التقنيات الجديدة في حلاقة ذقني وشاربي اللذين صاروا بلون الفضة، أفضل الفرشاة المدببة الصغيرة التي تفور الرغوة فوق وجهي بلطف، لحظتها شعرت بأنّي أميل قليلاً، وأن جسدي يتحرك مثل بندول الساعة العتيقة، ولأنّ عينيّ لم تعكسا هذا الحال في المرآة فقد أدركت أنّ الارتباك الذي حلّ بجسدي وهمي، وضعت الفرشاة على طرف المغسلة السيراميكية، لكنها لم تثبت في مكانها، انزلقت من يدي، مُحدثةً طرقتين خفيفتين على الأرض، ثم لحق بها جسدي، لا أعرف إذا كان انهبد بطريقة عالية الصوت، ولكن لميس قفزت من الحجرة مرتدية قميص نومها القطني المطبوع بزهور صغيرة باردة، وأظنها شهقت أو صاحت، هذا آخر ما أتذكره عن هذه اللحظة قبل أن تقطع من حياتي لحظات أو ساعات أو أيام لا يمكنني التأكد من مساحتها الزمنية، كنت فيها غائباً عن الوعي. صحت على سرير المشفى وحجرته البيضاء المفزعة. ظننتُ حينها أنّي متٌ وأن هذا هو الصراط المستقيم، ولكنني عاجز عن السير فيه لعله أصابت جسدي، أو لعنة أصابني فيها ولدي الشيخ، كان يمكنني الحديث بكلمات تندلق من طرف شفتي متداخلة الحروف ركيكة، أمسكت عن الكلام الأعوج وحدثت في ما حدث لي وأنا أسمع بوضوح غير مائل ولا مضطرب الطبيب وهو يحدث زوجتي وولدي عن إصابتي بجلطة تعافيت منها بحمد الله.

من هذا الذي تعافى يا عرصات؟ أطرافي لا تسمع نداءاتي، وهيكلي العجوز غير قادر على النزول عن فراشي البارد كأنني في بقعتي نصف رجل، أحرك أنامل يدي اليسرى بصعوبة فتهرع امرأة غريبة ترتدي طربوشاً كأنّها المهرج، تتناول كوباً من الماء وتسند بكفّها رأسي وهي تحاول باستماتة صبّ السائل في فمي الذي نسي كيف يبلع ما يرطب الحلق، يهدر أكثر من نصف الكأس

فوق مريول المشفى السقيم الذي أرتديه، من جرؤ على إلباسي هذا الرداء الهزلي؟ أريد بيجامتي، تمتمت بلا أمل أن تفهمني لميس التي تتحرك في الحجرة وهي تلقي تعاويذها كأنها ترجو شفائي، بينما كريم منشغل بقراءة القرآن، أريد بيجامتي، أو بنطالي وقميصي، أريد مغادرة هذا الكفن الأبيض الذي يسمونه مستشفى، ولا يروقني الطبيب ولا الممرضة بطربوشها الذي يشبه طربوش الطهاة، كأنها ستطبخني لوجبة اليوم، أخرجوني.

لم يستجيبوا لتوسلاتي رغم أنني جازفت بإسماعهم صوتي وأحرفي المتداخلة المائلة، لكنهم حين أخرجوني فعلوا ذلك، وقد ملؤوا مني وأيقنوا أن حالتي ثبتت عند هذا الحدّ اللعين، شلل نصفي رحيم لا يمكن علاجه، يدار ببعض جلسات العلاج الطبيعي التي تضمن عدم ضمور الأعضاء، ماذا يفيدني اكتناز أعضاء لا تحس ولا تسمع ولا تتحرك؟ كان العالم كله يضمّر أمامي.

عدت إلى البيت ذاهلاً عمّا حولي، أساساً لا أملك إلاّ ذهولي. لم يلغِ الشلل الخواطر التي تمرّ في الذّهن مثل شريط سينمائيّ قاسٍ لا يمكن إيقافه، أشاهده وحدي بينما لا تشي ملامح وجهي ولا خلجات أطرافي بأن تلك الفظائع تعرض لي، لي وحدي، أرى الموت يتمشّي أمام عينيّ كأنّه يقاهرني، يبدّل في أرديته ويتعجّج في خطواته، ينفخ في وجهي ساخرًا ويبتعد، ثم يقترب كأنّه يراودني، يبسط أمامي مقدّمات الفصل الأخير من حياتي، يعدني بخبت، ويهددني أن ينزل فجأة كبرق الصاعقة خاطفًا روحي.

تصاحب الشريط الجهنميّ موسيقى صاخبة تضجّ في ذهني أو تنساب كأنّها حيّة تسعى، تبدأ بدنونة أقرب إلى النغم الممطوط ثم تتسارع وتعلو وتتدفق الصّور، خارجةً من جيب سحري للعالم. بلاد ضاعت منذ زمن وقدمان هزيلتان تقطعان النهر المقدس، وحكايات تضغط القلب حتى تفقعه، وأحلام تفارق الذين اختاروا حلم الكفاح المسلّح. تسلّحت بأرفف المكان ودفتر الديون، وأسميت كفاحي دكّانًا، كان العالم يتصارع حولي بأفكار وأسلحة ومصالح، وكنت أبلل رأس القلم بلساني وأسجل دخول البضائع وخروجها من دكاني، وأتزوج، أفترش المرأة للولد، وأسلب الشهوات على جارة شابة، وأقف وراء طاولة دكّاني محايدًا، مستورًا كامرأة عفيفة، لا أخربش وجه الحياة بأمنيات وأحلام قادمة، لا أحتفظ بمفاتيح بيوت ضاعت ونُهبَت، لكنّي أمسح الغبار عن مفتاح بيتي الجديد في بقعته الأنيقة العمانية، أغشّ في فواتيري وأسعاري قليلًا، وأسابق الانهيار الاقتصادي ليصير دكّاني سوبر ماركت، وأغضب لمائي الذي لم يمنحني إلاّ ولدًا وحيدًا، لم أحبه كما يكون الحب بين الأصل

والفرع، ولد تلهيت عنه بتلك الغولة التي طلعت من مغامرات قديمة وبعد أن كانت طريدتي، بثُّ وجبتها اليومية، تقّات بي. الحبّ! هل أحببت يوماً؟ أم اقتادني الجسد في عبوديته إلى متع طيارة؟ وهل طار حقاً كل ما مرّ بي؟ أكانت الحياة طائرًا مراوغًا يخلق بعيدًا ويأبى تركي لأرتاح؟ أنجبت ولدي للموت والأسرار، يرتدي جلاباب الملائكة ويمتشق سيف الشياطين، أكان لا بد أن أمنح جسدي للشلل حتى يعفو العالم عني ويتركني قاعدًا وحيدًا هائنًا على كرسيّ المدولب؟ حتى هذا لا ينجح تمامًا، يختلط أمني وسلامي بشريط الذكريات ومنابع الخوف، يجف لساني في فمي، وتتشقق حنجرتي ولا أقوى على البوح، جثتتي المتروكة على كرسي الحديد صامتة باردة.

أخرج من لعبة الحياة متخذًا دور المتفرّج، ولا شيء كثير لأتفرّج عليه في عزلتي الإجبارية تلك عدا خيالاتي أو الكائنات التي تتحرك حولي كأنها ما تزال فاعلة في الحياة، لميس المسطحة كعجينة فسدت في فرن، انتفخت ثم هبطت ملتصقة بعجينها، أفرج عليها تنشط، تتابع أعمال محلي بهمة معتقدة أنها تتمتع بمهارات جديدة ضربتها مثل سحر فجائي، من المؤكد أنها ستدمر ما أمضيت عمري أبنيه، ستقضي على ما شيّدته بسذاجتها وتخبّطها وجهلها بجهلها. لم يعد كل ما بذلته من جهد ينقذني أو ينقذ تجارتي التي لن تربح ما دامت تلك البلهاء تنوّلاها. خسارة الليالي التي سهرتها أجمع وأطرح، يا ضيعة الجهد الذي حملني منذ فجر الصباحات الطويلة للالتحاق بعلمي، ويا لبؤس سباق المسافات الطويلة الذي طاردت فيه حيطان السوق وأنا أنواع وأعدل في مساري حتى لا أتخلف وراءهم، كل ذاك ينتهي اليوم محمولًا على عجلات كرسي للمعاقين، غضبي لا يفيد، حين لا أتمكن من النطق ولا تشي ملامح وجهي باعتراض، حين لا أملك إلا هزّات خفية في رأس يبدو مفصولًا عن عنقي، ستحدق في وجهي كأنها فهمت، وتبدأ بنقيق غبيّ يدمّر أعصابي: هل تريد الدخول إلى الحمام؟ عطشان؟ بردان؟ جائع؟ ماذا أفعل لك؟ ما هذه المصيبة يا رب؟

مصيبتها أنا، المؤمنة القانئة تعترض على ما فعله الرّبّ بي، وأتميّز غيظًا حتّى يكاد شريان قلبي ينفجر، لكنّي صامت مثل لوح، مشلول... مشلول.

استلمت لميس أعمالتي، وأحاط الولد نفسه بأعذار كثيرة، كان منصرفًا لصناعة أمة وجيل جديد من الخراف التي يرعاها ويقودها إلى حظيرة الإيمان، يقوم بأعمال جلييلة لا تسمح له بالعناية برأس مالنا، وإن لم يتورّع عن أخذ حصته كاملة من أرباح العمل الذي شقيت به. لعله ينتظر موتنا أنا وأمه بشوق ليتصرف بإرثه، أهكذا يسدل الستار على حياة أقل ما يقال فيها أنّها بلا لون ولا طعم

ولا رائحة؟ كما يصفون الماء الزلال، حياة لم تبث فيها صداقات حقيقية ولا عداوات ذات شأن، فالبيت الذي تتناثر في أرجائه قطع أثاث فاخرة متنافرة لم يكن بيتي بالمعنى الدقيق، ولو قيد اسمي على صكوك ملكيته، لم أستقبل به يوماً صديقاً زائراً، وحدها لميس كانت تجمع النسوة وتحدث صخباً بين الحين والآخر، جارتني كانت الوحيدة التي عمرت البيت تاركة فيه بعض آثار وذكريات مثيرة، جاءت نوال تعودني بعد سقوطي، كأنها امرأة أخرى، شاحبة تتلافى النظر نحوي، تجامل زوجتي بكلمات تافهة، تحني كتفيها كأنها تتكر كل ما كان بيننا، حتى لو مات الذي كان، لكنه كان، في كل زاوية من الكون الذي أعرفه تركنا رائحة وطيفاً، ما عاد هذا مجدياً، بل إنه كان ثقیلاً على الذكرى، وها هي الذكريات تخرج مُحَمَّلة على أكتاف الرجال ينقلونها إلى سيارة (الروبابيك)، تجدد لميس أثاث بيتها، تجعل المكان مناسباً لها كامرأة أعمال جديدة، تستغني عن أرائك وطاولات وأصص زرع فخارية عتيقة، تستبدل سرير الزوجية الخشبي العريض بسرير معدني يتسع لشخص واحد له مقاييسي التي تتضاءل تدريجياً، يرتفع ظهر السرير وتهبط أطرافه ويمكن تسويره بقضبان تحسباً لانقلاب الجسد المشلول صدفة في نوم! فكَّت حجرة نومي العتيقة وخرجت لتدخل حجرة عصرية بلون عاجي، ستنام لميس وحدها في الحجرة الجديدة الزاهية ويشغل سريري الطبي زاوية في الشرفة التي أحطتها بالزجاج قبل أعوام، حتى الحمام الصغير القريب من الشرفة ستتم معالجة مقعد الراحة فيه ليناسب حالتي، وإن كان الأسهل تركي أصرف فضلات جسدي في حفاضات قطنية كتلك التي يستخدمها الرضع، إلا أنها على مقاس عجيزتي، تبدل الفلبينية الحفاضة وتغسل قفائي المتقّرح، مرّت في البيت نسوة كثر قمن بتنظيفه، خادمت سمرات عفيات لا أتذكر أسماءهن، سيرلانكية وبنغالية وفلبينية، كائنات من صبر، عبرن حياتنا وتغيرن مرّات ومرّات دون أن يتركّن اسماً ولا ذكرى، كلُّهنّ تشلّقن على حديد النوافذ يغسلن زجاجها بهمة ونشاط، أخرجن أكياس القمامة وغسلن الصحون، قطّعن البصل ومرّرن المكواة فوق قمصاني يفردنها، رتبّن أدراجي ومنحني لقب «بابا». لم أجتز المسافة بيني وبينهنّ يوماً كما يفعل أرباب العمل بخادماتهنّ المنكسرات، وكان من اللائق أن لا أشغلنّ بمؤخرتي المتسخة وحمّام جسدي المتهدّل، لم يخجلني جسدي المتهالك العاري ينكشف للفلبينية وهي تمرّر إسفنجة تحت إبطي، أو تعافر وهي ترفع لباسي، لم يعد في الجسد امتياز خاص يذكر برجولة، مجرد لحم يتمّ غسله والعناية به؛ ولكنّ الذي قهرني حقاً دون أن أتمكن من الصراخ، لماذا لم يقم ولدي بتلك المهمة؟ ألم يكن قادراً على حجز

موقع رفيع على ربوة في الجنة لو أنه خدم والده بنفسه؟ ثم كيف يرتضي الشيخ المعمّم وأمه التي تتفقّه على يديه انكشاف جسدي على البنت الكافرة؟ مشهد عبثي بامتياز.

مثلما تلك الأنباء وصياح الناس في المظاهرات، أعني ما يدور لكن لميس تقلب القناة سريعاً، تقدر أنني مشلول فلا تسألني عن علاقتي بالعالم، لا مزاج لي ولا رغبات ولا تفضيل مشهد تلفازي على آخر، تمرّ بمسلسل تركي لا أطيقه، ثم تثبت عند محطة إفتاء دينية، تسترجع ما فاتها من أمور دينها بعد أن انشغلت بدنياها، ثم تقفز كأنّ مسأأ أصابها وتشتل دفتر حسابات المحل الذي أعرفه، وتبدأ في التسجيل والمحو، هذه الخرقاء ستخرب الدنيا، على كل الأحوال لقد خربت الدنيا وعليها السلام. يبدو أن أفضل ما حل بي وهذا العالم المهين يتدحرج نحو الهاوية، أني خرجت منه بأقل الخسائر، شلل نصفي لعين.

الآخر

مرّ أمامي وتوقّف هنيهة، وضع عينيه في عيني، وحدّق بوقاحة. المرأة نائمة خلفي في السرير مكورة إلى جنبها الأيسر، تشخر بانتظام، وتحرك رجلها كأنّها منزعة لا تعرف أين تضعهما وهل تتركهما منحنيّتين كما الجنين أم مفرودتين بأريحية أم متعالتين، لقد بلغت بها الجراة حدّاً لا يمكن السكوت عليه، كيف تمادت إلى حدّ جلب رجل غريب إلى حجرة نومي؟ لم تكف بلقائه في الحقائق والممرّات والحجر البعيدة، ولكنّه هنا يقف بصلف في حجرة نومي، يحدّق بي كأنّي من اقتحمت حجرته، يتربّص بي كلصّ، بالطّبع هو لصّ، ألم يسرق زوجتي التي لم تكن لي على أيّ حال؟ يقف في الجدار الفضّي اللامع، يستعير حركاتي ونظراتي، يرتدي بيجامة شبيهة ببيجامتي، بلغت منها الحقارة حدّ تركه يرتدي ثيابي الخاصة بالنوم، هل يعني هذا أنّه كان نائماً إلى جوارتي الليلة الفائتة؟ ربما، لقد وقعت في نوم ثقيل كأنه الموت، لا بد أنها سقتني ما جعلني أفقد وعيي لتأتي بالرجل الغريب، ولكنني استيقظت قبلها، ورأيتّه واقفاً في الجدار الفضّي يحدّق بي ويسخر.

لو محّصت ذاكرتي بعض الشيء قد أصل إلى نتيجة بشأن هوية هذا المتطفل الوقح، ولكن ذلك يبدو صعباً للغاية لأنّ عقلي يضجّ بأغنية قديمة سمعتها يوماً «لزرعك بستان ورود وشجرة صغيرة تفيّكي» مسخها ذلك المسخ المائل أمامي في حجرتي: «لافتحك علبة سردين، نص رغيف بكفيكي، وأعصر حبة ليمون، إن شاء الله سمّ الهاريكي».

هذا رجل مسخرة يتفنن في شقيلة الأغاني وتنقيتها فوق تفاهتها، كأنه قادم من زمن تدرجت فيه الأمور إلى التفاهة، لا يبدو غريباً تماماً عني، أكاد أعرفه، ولكنني لست متأكداً، مؤخراً لم أعد متأكداً من أشياء كثيرة. سأجاهله وقد يموت وحده.

اليقين الوحيد الذي أراه بعينين مفتوحتين هو وحشيّة العالم حولي، حتى أنني أشعر بالخجل من التحدث عن تميزي وفراستي. لم أكن أفعل أكثر من الكذبات العابرة وبيع التقارير الأمنية بثمان بخس، بينما اللعبة أظع من فعلي المتواضع، فالناس يكذبون ويتناحرون كالتبوس البرية، يسممون كؤوس بعضهم البعض، ويمدون أيديهم في جيوب الوطن المثقوبة بجرأة ويغترفون بسخاء، ولمزيد من الدقة، لم أمنح الفرصة لفعل فعلهم، وإلا كنت اغتنيت. تسممت الأرض بالمبيدات والهرمونات، ما يعني أنها ستتوقف يوماً عن إمداد الأسواق، وفي المساحات التي كانت مزارع وحدائق وحاكورات يلعب فيها الصبية ارتفعت أبنية حجرية متشابهة تخلو من الجمال، أقيمت على عجل مخلة بالمواصفات الآمنة، تناثرت بينها أبراج زجاجية لم أدخلها يوماً ولو فعلت لاختنقت. هربت المدارس وفقدت جدتها، تفكك خشب المقاعد وصفحات الكتب المجلدة دون عناية، تحولت الشوارع التي كانت تنادي هواة المشي عند العصر أتوئاً يغلي بمن دخلوا ومن خرجوا، وفي كل الزوايا الخفية تسجل عيون كاميرات التجسس أنفاس البشر، كنت محقاً بكراهية الشميساني منذ زمن، رأيت وجهها الحقيقي حتى عندما كانت تتقنع بمكياج لطيف مرفه وحضاري.

يطّلع اللاجنون من الشاشة الفضائية بنظراتهم الحزينة، لاجئون من شتى المنابت والأصول، يقصدون مضايقتي وملاحقتي، بيض البشرة في وجناتهم آثار نعمة سابقة. سود بأجساد نحيلة واهنة، تواري عوراتهم أقمشة طبعت فوقها أعلام دول غريبة أو كلمات لاتينية لا تجد من يقرأها، هاربين على متن القوارب بحثاً عن حلم خفي أو عالم جديد، يقذف الموج بعضهم على أطراف الشواطئ، ويصل آخرون إلى حدود لا تفتح ذراعيها لاستقبالهم.

الإنسانية جسد بشري يتآكل، يفقد كل يوم أطرافاً وحواساً.

شركات تخسر وشباب متعب حائر -أحيد صورة ولدي بين هؤلاء الشباب، فأنا ببساطة لا أعرف أين أضعه- عالم مجنون وعليّ ترتيبه، تحليله وتفسيره بصورة منطقية. تعجّ الحارات الرطبة المنسية في دهاليز المدن بالمتسولين، يتطوّح المعاتيه في الرياح العاصفة على الأرصفة. أتذكر مآسي البشر وأنا أرتعش برداً دون أن يعني ذلك تعاطفي معهم، التعاطف ضعف خبيث يقتل المنطق ويشكك في النضج السياسي والفكري، النضج الذي يلزمه مهارة التظاهر بالتعاطف.

يغمرنني البرد بأطيايف ذكريات ظننتها ماتت، حين أعترف لنفسي، أعرف أنني لم أعد ذلك الوسيم النّابه. مرّاتي تقهقه بلوّم وتهديني طيف الرجل الغريب، تعتري نظراتي لمحة من البلادة،

أشعر بوجنتي ترتخيان وأنا أقلب أوراق الصحيفة اليومية، يصير ما أراه غباشًا مهتزًا، ويفقد صوتي ثباته وجراته.

مات الأمل تمامًا بعد تورط ولدي مع إرهابيي داعش الذين جاءوا للعالم بداحس والغبراء جديدة، ورغم أنني فهمت ما يدور حولي ونوال تلطم خديها وتطلق شتائمها محملة أبوتي الجريحة ذنب ضياع الولد، إلا أنني تصرفت ببرود كأنني لم أفهم ولا أتذكر أن لي ابنًا.

هناك رحمة خفية توزع لي بنسيان العائلة التي لم أفلح في قوامتها، انكشيت عائلتي بزواج الابنة الكبرى وضياع الولد، عندما تزوجت ندى لم أعترض، كنت معنيًا بأن تغادرنا البنت المتوحشة التي تنذر بالوبال، أما الولد فقد كان ضائعًا منذ طفولته، منسيًا بانشغالنا بشقيقته، بتنمر أمه على العائلة كأنها لم تكن أنثى قط. أنا عن نفسي لم أستوعب بدايات الكارثة حين كان نادر يمرّ بفورة الشباب، ولم أعبا به وهو يفشل في تحصيله العلمي، لعليّ حبّذت له العمل بسرعة ليتلافى جبروت أمه وهيمنتها، رغم حالات النسيان التي تصيبني ولكني لا أعدم لحظات مضيئة أتمكن فيها من تفسير مظالم هذا الكون وفهم ما يدور حولي، تتحمل نوال مسؤولية الجنون الذي اعتري ولدي. لو أنها تركته دون ملاحقة الأمهات السخيفة الدرامية التي افتعلتها لما تعثرت خطواته، ولما وقف حسيًا لها ولي، يدعوها للرجوع عن الغي ويدعوني إلى سلوك طريق الحق، كأن الطريق من اختيارنا. في كل الأحوال كان هذا الولد غلطة في كل مراحل حياته، منذ أن حملته أمه ذات ليلة عابرة.

في المساءات التي يقات فيها البرد جسدي، أصرّ جيبني وتتغصن ملامحي في تمثيلية حزن يجدر بي كسياسي التعبير عنها، «في الواقع لم أحزن يومًا إلا على عمى ابنتي»؛ لكنني أسترجع في البرد حزن اللاجئين الذين تكتسح المياه خيامهم جارفة حاجياتهم البسيطة في قلب الشاشة الفضية ومع صوت المذيع المتأثر. أتوافق ونوال دون سبب على صبّ لعناتنا على مدينتنا عمّان، الطاردة للألفة، المنذرة بالوبال، بينما الغاز في المدفأة يوشوش مؤذّنًا بالانتهاء، سيقفز البرد مباشرة مع انطفاء النار ناشبًا مخالفه في جسدينا، حينها يقول المذيع بلهجته الرصينة الجافة: إن المنخفض الجوي قد عبر تركيا بعد أن أفرغ ثلوجه هناك وراح يكتسح شمال سوريا، وأنه يصلنا في غضون ساعات.

ينوه المذيع إلى اكتمال التجهيزات الأمنية واستعداد رجال الدفاع المدني لمواجهة العاصفة القادمة، مُحذِّراً المواطنين من مغادرة منازلهم إلا للضرورة القصوى. تدثر نوال كتفيها في الشال الصوفي العريض، تعانقه أملاً بحرارة تنتقل إليها إذا ما احتكَّ وبره بوبر سترتها، وتتمتم: نلقاها من الله وإلا من العبد؟ ملعون أبوها بلد.

يمكنني أن أخرب عيشتها جراء هذه الكلمة، فأنا من أنقل تلك الأصوات النَّشاز إلى أصحاب القرار والوسط والقضبان، يمكنني جرّها ذليلة لتقع في سجن النساء، أو تتعرض للمساءلة المريرة على يد شرطي غليظ. تقرير بسيط عن قاموس شتائمها اليومي سيعلمها أن الله حق، وأن الأوطان عليها حراسٌ يَقطون، ولكّني لا أفعل، فلم أعد أكتب التقارير، ثم إنّها زوجتي، ولن يفيد انتقامي في إبقاء البيت مفتوحاً لابنة عمياء لا مأوى لها إلا حضنين رثيين جمعهما الزواج، لن أخرب بيتي بنفسي، باتت هي بيتي وأنا بيتها وإن لم تعلم. معاً نلعن عمّان كأنها خصمنا المشترك، وكأنها المدينة الوحيدة في هجمتها السادية على الأجساد الراحفة، رغم أن العاصفة تهبط على العالم دون تمييز، فالأجواء ليست أكثر دفئاً في اسطنبول ولا هي كذلك في حلب، لا شأن لنا باسطنبول أو حلب، ما دمنا لا نقيم في قصور المدينة التركية ولا خرائب المدينة الشامية، نحن فقط نطالب بحقنا في الدفء من عمّان التي نقطنها كفأرين في مخبأ.

ترمجر الرّيح في الخارج وتتقاطع كلّ الموجات في شاشة التلفاز على مشهد بركة آسنة. هزائم وانتصارات وسط بلاد مدمرة وجثث تسد الأفق، دكتاتوريات تنهوى وأخرى تنتصب، وطنيات عنترية، شعوب مقهورة ونوايا خبيثة، يسيل دم الأطفال قرباناً لأهداف سامية! كنت أكثر رحمة بهذا العالم الخرب، فما أسلّتُ إلا حبراً قليلاً وكذباً عابراً، يتساوى اليوم الجلال والضّحية. أمر لا يحتمل حتى بالنسبة إلى رجل ناشف خلو من العواطف مثلي، تخرج الأخبار من الشاشة كما تندلق القمامة، ليصير عقلي مكب نفايات آسن لا يحتمل.

في الشّارع، تننّ مكابح سيارة صريراً ممطوطاً ثم ينقطع، لم أسمع منذ زمن ذاك الصرير الذي تليه قرقة الارتطام بين سيارة تلتفت حول الشّارع الجديد وتفشل لسرعتها في تقدير المسافة بين هيكلها وإفريز البانكيت الحجريّ، أتذكّر أنّ جارنا الذي نسيت اسمه تمكّن من إنهاء المشكلة ببلاغ للبلدية أقاموا بعده مطباً مرتفعاً قبل الالتفاف بقليل، صارت السيارات تخفض سرعتها مرغمة

قبل المطب فلم تعد تلج البقعة العمياء مثل دبّ أحرق، توقفت الحوادث وما يعقبها من حضور سيارات الإسعاف وشرطة المرور.

خرجت إلى الشارع المبتلّ مُرتدياً حذاءً منزلياً لا يتناسب مع الشتاء، الهواء في الخارج أكثر دفئاً من هواء المنزل الذي تقلبه المدفأة الغازية، جاري مدثّر بلحاف ثقيل متكّوم في كرسيّه المتحرّك تحت سقف مدخل بيته وقد أحنى رأسه، إلّا أنّ عينيه تحدّقان بي.

أمضي متجاهلاً، ماذا يقصد هذا اللئيم؟ ألم يعجبه حذائي؟ أم يظنّ بي الجنون للخروج في يوم بارد كهذا؟ هه! ماذا يفعل هو عند المدخل؟ لا بدّ أنّهم نسوه هناك، بات جاري الكريه يهزّ رأسه كلما رأيته، يظنّني لا أعرف أن ولده وراء ضياع ولدي، تركته وسرت صوب المسجد، لعلّها الطريق الوحيدة التي أتذكّرها بوضوح في غبش المغيب، تتراقص أضواء عيون السيارات على صفحة الماء المنداح فوق الأسفلت الأسود، ثم ما يلبث الماء أن يسيل في أخاديد جانبية.

تتناثر المباني بواجهات حجرية مبلّلة، لا تغشّني المدينة المغسولة بروائحها العطريّة، عمّا قريب ستشبه الشميسانيّ أسواق ضاحية المحطّة الشّعبيّة؛ سيارات تتدافع ومقاهٍ ومكاتب ودكاكين وروائح الدجاج المشوي، كثيراً ما أضيّع طريقي إلى البيت، ولأنّي لم أنس القراءة، أعرف أنّي أمر بمبنى البنك، أقرأ اللافتة باللغتين، محاولاً التذكّر، في ترجيح واحتمال وارد أظن أن زوجتي تعمل في بنك ما، أو كانت تعمل هناك، ولكني لا أعرف ماذا يعملون في البنوك، أعني ما مبرر تلك الأناقة الرسمية التي تخرج بها من البيت قاصدة عملها! هل يقطفون هناك منتجاً ما أم يصنعون عبوات بلاستيكية أم يخيطنون الملابس؟ أو لعلها تلتقي بعشاقها!

سألت إمام المسجد إذا كان قد سمع أخباراً عن ولدي، قال بحكمة: انتبهوا لأولادكم، هناك من يشوّه لهم الدّين.

لن أنتبه يا سيدي الشيخ، فالولد مشوه ضائع منذ زمن، ولا قدرة لي على استرداده، لقد نسيت اسمه، هل تساعدني في تذكّر اسمه؟ ساعدني على أقلّ تقدير لإيجاد نفسي الهائمة في تلك المتاهة الكبيرة التي اسمها دنيا.

تقول الخبيثة التي في بيتي أنّ الزّهايمر يزحف إلى ذاكرتي، والله إنّني أحبّ أن أنسى بخاطري، يعطيني ذلك من الوجد المتراكم الأغبر الذي يجتاح قلبي، يحدث أن أتذكر، أو أنسى، لست

أعرف تمامًا، لكني لا أشغل بالي بالحيرة والارتباك، أفزع أحيانًا، مثلما حدث اليوم، حين نسيت تمامًا اسم ابنتي الضريرة، لم أنس أنها ابنتي التي مزقت قلبي بمصائبها، لكني نسيت اسمها. ليس أمرًا مُسلّيًا يبعث على الضحك أيّتها الزوجة اللئيمة، ترفضين إخباري وتضحكين! فقدتُ أعصابي وطوحت بكرسي كان يلاصق المائدة فكسرت رجله الخشبية، عندها فقط تنازلت لتقول: نور.. اسمها نور.

نور الحبيبة، نعم، وهل ينسى مثل هذا الاسم الروحاني؟ لا حيلة لي في النسيان الذي يعصف بذاكرتي، أخاف أن أعجز عن إكمال كتابي، رغم أنني ولأسبابي الفكرية سأغيّر كلّ ثيمات الكتاب، لن أفصح أحدًا كما هدّدت، سيكون كتابي مرافعة ومقالة دينية تليق بتوجهي الجديد. أنا لم أتبع ولدي الذي سار وراء الإرهابين مثل أعمى، كأن العمى مكتوب على هذه العائلة، أنا كنت أنسى فقط؛ لكنّ عينيّ مفتوحتان. ذهبت إلى المسجد بعدما انفضّ حبل الوداد الذي جمع الكتاب والطلبة والمتسكعين في مقاهي الشّميسانيّ العتيقة. لم أعد قادرًا على دفع الكلفة الماليّة في المقاهي الجديدة، ليس هذا كلّ شيء، أردت مكانًا هادئًا أتذكّر فيه دون صخب بعيدًا عن وجه المرأة المترصد في بيتي، لا بدّ أن السكينة تنتظرني في زاوية من تلك الزوايا، لعلّي تعمّدت التناسي، فلا شيء يستحقّ التذكّر، لكني أوقعت نفسي في مطبات غريبة، كأنني لم أفتنع بالسكينة التي بحثت عنها ومن أجلها غيرت حياتي. كنتُ أثارُ ويتدفق غضبي إذا ما قفرت إلى ذهني معلومات قرأتها في زمن ماض والإمام يخطب خطبة الجمعة.

يترك المصلّون مكاني في الصّفّ الأوّل خاليًا؛ احترامًا لشعري الأبيض، أضحك في سرّي لتبجيلهم شخصي المسخرة. أعترف أنني مسخرة أمام نفسي، ولا يعجبني أن يذاع سرّي، فأنا على الأقلّ لست منافقًا، دخولي المسجد دون وضوء ليس أمرًا ذا بال، لن يغضب الله عليّ، باله أطول من بال البشر الكذبة، ورحمته وسعت كل شيء، لهذا أحظى بالتكريم والتقدير، أنا المستجد الذي تاب الله عليه، ينزاحون عن دربي لأمر وأقف وراء الإمام، مما يتيح لي مواجهته مباشرة، رغم أنني لا أحبّ المواجهة. حين ينتهي الإمام من الصلاة يجلس متربّعًا ووجهه إلى جموع المصلّين، ويكون غضبي قد تأجّج إلى نقطة ساخنة، فلا أطيق صبرًا.

- أنت السبب يا شيخ، راح الولد، أنت بعثت به إلى حلب.

أواجهه، وجهًا لوجه دون وجل، لا يشبه الشيخ كريم ابن الجبران الملتحي؛ لكنه يشبهه، لست متأكدًا، تغيم الرؤية أمامي.

يدّعي الشيخ إمام المسجد الورع والحلم، راسمًا فوق شفتيه ابتسامة تسامح بلهاء تفجّ من وجهه نظيف أبيض رائق، يقول إنّه لا يعرف ابني هذا، ويضيف: الله يصلحه ويعيده لك سالمًا. إذن لم يكن نادر يرتاد ذات المسجد الذي يتشرف بي! يقول الشيخ في مجاملة لزجة أنه مسرور بوجودي.

لماذا أنت مسرور؟ لقد ضاع شبابي وأنا أقرأ ماركس، وجئت أيها الشيخ لأقرأ وراءك ما تيسّر من كلام الله، وأنا كهل بالكاد أتذكر طريقي التي تحمل قدمي إليك. سرورك يا شيخنا بله صريح... ماذا ستفعل بي وأنا لم أفعل بنفسه طوال عمري ما يفيد؟ هو عمر جدير بالنسيان حقًا.

يظن الشيخ أنني مجنون، مع ذلك ألجأ إلى المسجد، يقف المصلّون في خطوط منتظمة لا أحتاج إلى فهمها وتفسيرها، يؤدون حركات منتظمة ينحنون وينزلون أرضًا ويتلفتون يمينًا ويسارًا، أفعل كما يفعلون، أتربع حين يتربعون قبال الإمام وينصتون، لعل كل المصلّين الذين أخذوا جلساتهم التربيعية الجادة وهم يسمعون الإمام يعرفون بدقة ماذا يحدث في البنوك، أنشبت زوجتي في نظرات استنكارية حين سألتها، وأجابت بحدة لا تفارق صوتها: في البنك أصنع طعامًا لمعدتك الجرباء.

- السافلة، أعتقد أنها تعمدت شتيمتي، وإلا لماذا استخدمت لفظ الجرباء؟

البنت الضريرة همست بعتاب وادع: ماما.

لم أعد أسأل عن البنك، لا يعنيني ما يحدث فيه وماذا ينتجون، ما دام الأمر لا يخصني فهو لا يهمني، ولكنّي أحبّ مناكفة سيّدي الشيخ فيما يقول، فأنا أعلم فوق علمه، أراهن أنه لم يقرأ رأس المال، ولكنه يتفلسف من عنده، نسيت ما قرأته في رأس المال، ولكني أحبّ مشاكسة الشيخ الذي يتمتم كلما اعترضت على كلماته بعبارة: لا حول ولا قوة إلا بالله.

أعرف يا سيدي أن لا حول ولا قوة إلا بالله، فلماذا تخبرني؟ أم أنك تتأفف مني ومن وجودي المنتظم؟ أنا أدعو علّ ولدي يعود، أليس هذا المكان أقرب نقطة يمكن للسماء فيها سماع صوت ضعيف مخدول؟ ما الذي يضايقك في هذا الأمر؟ إذا واصل الإمام إسكاتي واستنكار أسئلتي قد اضطر لكتابة تقرير فيه، عندها من يرحمه من غضب الله؟ إلّا أنّي أشعر بالوهن وبأنّي لم أعد قادرًا

على كتابة التقارير، ثم كأني غير قادر على تذكر كيفية توصيل تلك التقارير، هل كنت أستخدم صندوق بريد بعينه أم ألتقي شخصاً محدداً، أم أذهب بنفسني إلى مبنى الدائرة وأسلم تقاريري؟ أم أن كل تلك الوسائل انتهى أمرها إلى غير رجعة وبات عليّ تعلم مهارات تكنولوجيا جديدة؟ من الأسهل اتباع الطرق المضمونة، يمكن للدعاء هنا أن يخترق الكون ويصل مباشرة إلى السماء أو حيث هو، أسرع من الاتصالات في العالم الافتراضي المحبوس في صندوق الحاسوب، الدعاء معجزة حقيقية لا يعرف فضلها إلا المؤمن، وهو لا شك خارج عن قدرات البشر المحدودة. إيماني ويقيني يفوقان كل ما لدى المصلّين مجتمعين، مع ذلك يتململون ويستتكرون مُداخلاتي ويظنّ بعضهم أنني أفسد وقار المسجد بمماحكاتي مع الإمام الصبور مثل جمل.

ما أكثر إبلك أيتها الشّميسانيّ، أحياناً يحيط المصلون بي مدّعين التلطّف والأخوة، يمسون ذراعي برفق بينما يرغمونني على الوقوف ثم يصطحبني اثنان منهم خارج المسجد، يسيران برفقتي حتى أصل باب البيت، حيث ما يزال جاري عبد الجليل مكوّماً على كرسيّه المدولب يهزّ رأسه أكثر من مرّة وأنا أوبّخه إذ لم يذهب إلى المسجد كما هو متوقع من رجل مثله أعطاه الله مالاً وفيراً وزوجة طيبة نسيت اسمها وبيئاً وعملاً وولداً ملتحيّاً. يومئ عبد الجليل للرّجلين بنظراته وهما يصطحبانني حتّى الدرج المعدني ممسكين بذراعيّ كما لو كنت في طريقي إلى المقصلة، ثم أصدع الدّرج وحدي وأنا أصبح مخاطباً جاري أن عليه تغيير الدّرج إلى رخام فاخر، أولاً لأنه يستطيع ولكنه بخيل، ثانياً لأن الصدا أكل الحديد حاتّاً أطرافه كما لو كان خشباً نخره السوس... يهزّ جاري رأسه هزّة خفيفة لا هي بالإجابة ولا السّخرية، يتعمّد استفزازي.

تقول نوال أنّ عبد الجليل مالك البيت الذي نقطنه أصيب بالشلل، ولكني لا أثق بها، أظنّها تكذب عليّ في أشياء كثيرة غامضة وخفيّة حين يتعلق الأمر بهذا البائع الشاطر عبد الجليل، كأني رأيتهما مرات يتبادلان الأسرار قرب شجرة الخوخ ويندفعان إلى بيته يخفيان أمراً، لا أثق بها. حين يداهم ذاكرتي مشهد تبادلها الأسرار مع جارنا تفيض في معدتي حموضة تقرصها، يرتفع إلى حنجرتي بلغم مر ثقيل يسدّ أنفاسي.

كفّي تؤلمني وقد لُفّت بشاش طبي بينما اختفت المرايا من بيتنا، أظنّ أنّي تخلّصت من المرايا بكفّي، لا أتذكّر تحديداً ماذا حدث، ولكنني استرحت قليلاً، فلم يعد الرجل الغريب يمر من أمامي كلما استدرت.

أغتتم أيّ فرصة تنسى فيها المرأة مفتاح الباب في حلقه، وأخرج، أهيم في قاع المدينة، فلا الوجوه تعرفني ولا أعرفها، أدور مرات في شوارع غريبة دون تثبت، يبتعد البيت وتضيع آثار الدرب المؤدية إليه، الفضاء متّسخ، غيم كالح رمادي كبقايا السناج في مدفأة مطفأة، يلتصق الشارع بكعب حذائي بطينه المبلل، ونتف بلاطه القديم الذي تناثر على الرصيف، ترقبني عيون القطط المشردة في الزوايا ووراء أعمدة الكهرباء الخشبية. أجرّ خطواتي كأني ماضٍ إلى زمن قادم، وقد أكون راجعًا إلى الوراء، يزحف جسدي نحو شيخوخته ويثقلني، تتفادى النساء المارات الاصطدام بي، يمرقن مثل الفراشات، الغزالات الراكضات، الكلبات المتربصات بي. بعضهنّ ماء ينساب على الطريق، وبعضهنّ حجر، أدور حوله وأمضي.

في غمرة النسيان ونعمته، تطفح الذكريات مثل مصرف المجاري. أجلس على الرصيف وأبكي، يستخرج المارّة العطوفون، أو رجال الشرطة العابسون أوراق التّبوتيّة وعنواني من ورقة دستّها السّاحرة التي في بيتي في جيب معطفي، يمسكون بذراعي ويعيدونني إلى البيت.

الفصل الرابع

نادر

يرتجّ جسدي بانتظام على الطريق إلى حلب، ويتعملق الكابوس: تمر الشاحنة فوق أشلائي بلا رحمة، جيئة وذهابًا، ويفترش دمي الإسفلت. ارتطم رأسي بالأرض المتشققة ففشخ مثل بطيخة.

انتفضت مستيقظًا، وحلقي جاف مجروح، وجسدي يواصل ارتجائه بفعل صعود الشاحنة التي أركبها فوق كتل صخرية وهضاب حافلة بالحصى في طريق وعرة غير معتادة، ليست أول مرة يداهمني فيها الكابوس الثقيل، عرفته في عمري كله، كنت أرى عربة تدهسني على شوارع الشّميمسانيّ أو في الطريق بين عمّان والزّرقاء، لم ينشف الكابوس القديم ريقى إلى هذا الحد، بل اعتبرته دلالة على الرجولة، فالأحلام الناعمة أو الوردية لا تزور إلّا مخيّلات البنات التافهات، أما أنا فلن أَرْضَى بأقل من كابوس، وقد توقّعت أن يزورني على هيئة رصاصة تخترق جمجمتي، فذلك أكثر احتمالًا ما دمت ذاهبًا في رحلة الجهاد. أزعجني كابوس رأسي المفشوخة على الإسفلت وأصابني بالخرس طوال الرحلة، إذا سألني أحدهم عن اسمي أخرج عن صمتي خجلًا هامسًا. توقّعت منحي اسمًا فخماً هنا كما يجري عادة، كأن أصير أبا قتيبة أو ابن مالك، لقد أطل اسم نادر السخيف التصاقه بي، لا أعرف أي عقل لأُمّي لتطلق عليّ اسمًا رخوًا يليق بالبنات! ماذا تخسر إذا أسمتني صلاح أو طارق أو حمزة؟ أما نادر فاسمٌ أخرجني في المدرسة وجعل الأولاد يتغامزون، كان عليّ استبداله بارتداء بنطال طويل واسع، وبصوت مخشوشن. العار للأمهات اللواتي يطلقن على أبنائهن أسماءً منقوصة مثل نادر ولؤي وسمير.

في المعسكر الذي يعجّ بالغرباء اصطحبوا بعض العناصر الأجانب الذين يحاربون لمجد الخلافة إلى حجرة محايدة مغطاة بأقمشة سوداء تتوسطها راية «لا إله إلا الله، محمّد رسول الله»

مغروسة أمام الكرسي الوحيد. حين عادوا تحدّثوا عن رسائل صدروها للعالم عبر قناة تلفزيونية، لم يصبني الفضول لمعرفة أبعاد الأمر، ولكنني فوجئت بأنني استُدعيت لتصوير فيلم أتوجّه فيه بالحديث إلى العالم! يا سلام، بداية، لم أكن أظن أنني مصنّف في فئة الأجانب؛ فالأردنّ هناك على مرمى البصر من سوريا، سيظنّ بأنّي سوريّ متنكر أردنيّ، أو أردنيّ متنكر سوريّ. سأبدو سخيّاً وأنا أحدّد لإنسان، أيّ إنسان: افعل هذا ولا تفعل ذاك. كأني وحدي من يملك الحقيقة كاملة والمخوّل بنصح الغافلين كي يفيقوا ويقبلوا على الجهاد وإقامة دولة الخلافة. أملت بمنحي اسمًا لائقًا مرافقًا لهذه الخطوة الإعلامية الكبيرة، إلّا أنّ دودة الشكّ العنيدة التي تسرح في أعماقي أفضلت كل المحاولات لتسجيل حيّ لتجربتي. رحت أتلثم وأتعرق وتنفّلت حدقتا عينيّ ككرتين لا تتمكنان من الاستقرار في اتجاه، يتمّ تلقيني الكلمات وأفشل في تجميعها في اللحظة التي أواجه فيها ضوء الكاميرا، بُذلت جهود كثيرة لتدريبي دون جدوى، قيل لي من الأفضل أن أشدّ لثامًا حول ملامح وجهي الفزعة، وأركز في نظرتي كي تبدو واثقة قاسية ناقمة، لقد استغنت دولة الخلافة عن النظرات اللينة المائعة التي تظهر على وجوه الممثلين في الأفلام التّاريخيّة التي تتناول فترة ظهور الإسلام، حين كان جُفنا الممثل يرتحيان وهو يسمع الكلام المقدّس للمرة الأولى، تنهمر دموعه ويهمس مسلمًا مفارقًا جاهليّته التي كانت منذ برهة. وبغضّ النّظر عن سخريتي من المشاهد السقيمة في الأفلام العتيقة، وبمجرد تسليط الضوء الساخن الفاقع للكاميرا على وجهي فإنهم وراءها ينتظرون مني النطق دون لكلكة بنبرات فخمة وثبات بآيات قرآنية وأحاديث الجهاد، ولكن صوتي الواجب يخذلني، تهتز أطراف يدي ويميل جذعي مثل فزاعة في الريح. قال الأمير: اتركوه، لا داعي لتسجيل مرئيّ يظهر عنصرًا ضعيفًا.

أنا عنصر ضعيف بالطبع، لست أنكر، وبوضوح أعرف مصير الذين تم تصويرهم، لم يكن وجهي وصوتي إلا تذكرة المرور إلى الموت الذي يسمونه استشهادًا، سيطلب مني تحزيم خاصرتي بالديناميت، وأتحول إلى إعلان سخيّف، فتى من لحم ودم مبعثر، لا شكّ أن ارتباكي وتعرقي وفشلي في ترديد الكلام نجا بي من أن أصبح نجم نشرات الأخبار على الشاشات العربية الزاهية بالجنث.

لن يرسلوا بي في مهمّة انتحاريّة؛ يعرف الأمير أنني مسكون بالخوف ويظنّ أنه يعالج مخاوفي بصبر وحكمة، لن أطوق جسدي بمتفجرات وأتقدم كأحمق لأنال الشهادة، هناك طرق أخرى للموت، وإن كنت أخافه إلّا أنني أمضي نحوه وأعرف أنه يتربص بي في زاوية، ولعله لا يصلني فأعود يومًا إلى بلدي، لو حدث مثل هذا الأمر فإنني لا أعرف ماذا أفعل بنفسني مجددًا،

فالسائق الذي دلّني على الدرب القويم للشهادة قال لي: إن خفت من الموت فإنه سيأتي، وإن ذهبت إليه بشجاعة فإنك تناله، المهم ماذا تحقّق بموتك. كان يقصد أنني صاحب رسالة ستغير العالم وتسقط العدل على البشر، ولعلّها تقود الناس إلى الجنة بالسلاسل، وكنت أوافقه في ظاهر كلامي وفعلي، وفي الأعماق مني مطمئن على معرفتي اليقينة أن لا شيء نفعله يغير العالم ولن يسقط العدل بتاتاً، فما الذي جاء بي إلى حلب؟

لم تعد الحياة غالية، لم تكن كذلك في يوم من الأيام، أعني أنني لم أشعر بتقدير لها أو تحقير، عشتها كما اتفق ولكني لم أفكر بها كجوهرة أقتنيها، لست خائفاً من الموت وأنا أسعى إليه، تخيفني الشهرة المصاحبة له، وليس مهماً على الإطلاق أن يظل هذا الجسد السخيف متحرّكاً متواجداً يمارس الحياة التي يعرفها البعض، أو يتحلل طعاماً لدود الأرض ككل أجساد البشر، لكنني في استهانتني هذه لا أستخفّ بما يجب القيام به، القتل، عليّ في لحظة منسلخة عن الزّمان المنطقيّ أقتل أحدهم، امراً لا أعرفه، وعليه أن يقتلني دون أن يدقق في لون عيني أو بطاقة هويتي التي لا أحملها، طبعاً سأقتله قبل أن يقتلني، هذا ما أظنه، فبندقيتي لن تخونني ساعة أحتاجها، ولكني خائف وخجل قليلاً من اضطراري إلى سلب رجل حياته، ربما هو متمسك بها، يخطط لأشياء يريدّها، لعله يحب عمره الذي سينقطع برصاصتي، أو أنه ألف الحياة إلى حد التمسك بها والخوف من مفارقتها، لكني أنا الذي سأرسله إلى مصير آخر لا يريده. ليس بعد ذلك سخافة، لا أنا أريد ولا هو ولكننا سنمضي على درب واحد. ضحية وجلاد، قاتل ومقتول، أليس بين هذا وذاك بشر من نوع مختلف؟

ماذا أفعل هنا؟ هل تكفي لهفتي بالانفجار في وجه العالم لأكون هنا في هذه النقطة، في هذا الزمن بالتحديد؟ بئشك أشك بدوافعي ولا أفهم نفسي المتناقضة مع ذاتها، إذا لم أكن على استعداد لشذو حزام ناسف حول صدري وأخذ الآخرين معي في عربة الموت، إذا كنت عاجزاً عن قتل رجل وأنا أنظر في عينيّه؟ كما أن العطايا التي يعد بها الأمير، أقصد الحور العين، لا يثرن اهتمامي وشبقي، إذا لم أكن معنياً بمن يحكم دكتاتوراً كان أم عادلاً، إذا لم أتمكن من التفريق بين الجماعات التي تترصد بعضها بعضاً في الهضاب والروابي ووراء المنازل والناس الخائفين، لم أكن مهتماً بالنقود التي تتدقّق ولا بالأسلحة التي تتكدّس، ولا بصغار الفلاحين الذين يتوسلون لخلاصهم، ولم أكن أوّمن بتلك المقولات العظيمة التي تشبه القصائد وترجف القلوب الشجاعة لرفاقي في الخندق وتشعل فيها نيراناً تطفئ ميوعة التردد وظلاله، إذا لم أكن كل هذا وذاك، مجرد دودة الأرض التي لا وزن لها! فماذا أفعل هنا؟

ربّما كانت رفيقتي الجديدة هي الهدف، تهمس لي البندقية بجسدها المنقسم بين معدن وخشب بحرارة تقول: لست وحدك.

لأول مرة أشعر أنني كثير متحقق مطمئن ويدي تحتضن البندقية.

تقدمنا باتجاه منطقة خان العسل، لم نجد عسلًا، تراجعنا قوات الجيش وتم القبض على بعض فلولهم، اقتادوهم أسرى حرب أو تخلصوا منهم، لم أكن معنيًا. حافظت على صمتي الذي نشأت عليه، أراقب بعينين مذعورتين وأنّس رأسي فلا أرى، أقعي ومحبوبتي البندقية أفرك أجزائها وأزيل الغبار العالق في مفصلاتها، أسمع مرغمًا أحاديث رفاق السلاح، يبدو لي بعضهم أساطير، يعلّمون لماذا جاءت بهم الرياح إلى تلك البقعة، لديهم أحلامهم وأمانهم ومعتقداتهم، فيهم الغاضب مثل دب محاصر، والخبيث كثلعب، والشعبان الذي يبيخ سمّه في الأرجاء، وفيهم من يتقن الغناء، ومن يقرأ القرآن، ومن يكثر البكاء على أطفال تركهم في مكان آخر، عناصر من سوريين وعرب وقوميات وبلدان لم أسمع بها يومًا، وربما لم يسمع أحدهم عن الآخر، لغاتهم ولهجاتهم متنافرة، ألسنة مبلبلّة بالكاد تفهم، يقاتلون في خندق واحد لغايات متباينة.

القائد الأمير مستاء على الدّوام حتّى وهو يغنم أرضًا جديدة، ويقود الفتيات اللّحيلات الجميلات إلى مخادع الجهاديين، كلّنا مستأؤون، ولكن لا حاجة إلى التّقطية التي تنذر بالخراب، تبدو مثل حديقة حيوانات مسوّرة مضطّرة للتّعاش متشاركة في نهاية مفعجة واحدة مرتقبة، أسمع ولا أتكلّم ولو حثّوني وطالبوني بحكايتي، أكتفي بابتسامة لا تتلاءم مع الفتى الهائج المتهوّر الذي كنته.

يتحدث الرفاق في المخبأ بلهفة عن الحور العين، يتلمّظون وكأنّ تلك الجميلات سيقمن لهم على أطباق من فضة ويتركن بين أيدهم ليأكلوهن بشراهة الجائعين. أستمع صامتًا، أنا أساسًا لا أتحدث كثيرًا، كنت صامتًا في بيتنا وفي شارعنا، وهنا في المخبأ، صامت في معظم الوقت، فكيف إذا كان الحديث يدور حول الحور العين؟ ذلك أنّي لا أوّمن حقًا بمسألة الحوريّات اللواتي ينتظرن موتنا، لم تعجبني نساء الأرض يومًا ولن تعجبني نساء السّماء، لا يعني هذا أنّي معجب بالرجال أو أنني منحرف، أنا فقط لا أحب الجنس البشري ولا حتى مخلوقات الله الدنيا، كنت أتسلّى بإشعال الحرائق في أذيال القطط، وخنق الكلاب بأكياس القمامة البلاستيكية، وحين يفزّ جسدي بذكورة داهمتني رغما عني، أريح نفسي وأنا أتصور أنني أغتصب العالم، يتشكل الكون بجسد ضخم لزج لا

قوام ثابت له، أدسّ فيه غضبي وأنتحر، يبدو الكلام مجازًا ما دمت حيًا حتى اللحظة في خندق تحت الأرض في حلب.

لست شيطانًا؛ لكنّ شيئًا حدث في حياتي ولا أعرف ماهيته على التحديد ولا متى حدث، شيئًا غامضًا شيطني وبنى سدًا بيني وبين الآخرين، قطعني عنهم كما يفعل حد السكين، ولست مسرورًا بحالي ولا مزهّواً بتفردتي، أنا متعب للغاية، ربما في الجنة لن أطلب أنهارًا من العسل ولا قصورًا وعنبًا متدليًا، سأطلب بعض الراحة، ليس إلا. آه، يحدث أنني أنسى أنه لن تكون هناك جنات ولا أنهار من عسل وخمر، بالطبع لا أجروء على البوح بأفكاري، لن أخبر الأمير ولا رفاق السلاح أنني لا أنتظر عسلهم ولا حورياتهم، ولا حتى تلك الوعود بدفع ثمن أرواحنا، فأنا لا أهتم بوصول ثمن حياتي إلى أهلي لو متّ، أنا فقط بحاجة إلى السلاح، كلاشينكوف كذاك الذي حمله ثوار العالم منذ تم اختراعه إلى أن قامت حربنا، مع أنني لا أعرف لماذا عليّ أن أقاتل النظام، حتى لو كان نظامًا فاجرًا ظالمًا! ما هي مصلحتي؟ ولا أعرف أيضًا لماذا عليّ أن أقاتل من يقاتلون النظام! فلست مغرمًا بدولة إسلامية تسير فيها النساء كالشواليات، ولكني أقاتل من أجل هذه الدولة! أرغب في أن انفجر في وجه العالم... ، هكذا... «بووووم»... وينتهي كل شيء.

عالق في البرزخ، تَبَّأ، هأنذا استخدم كلمات لا أفقه معناها، هي حمولة المتحدثين حولي الذين يواصلون الحديث فيما يشبه نقيق الضفادع، ولكّني عالق بينهم، هذا كل ما هناك، لا أستطيع العودة إلى الوراء، وليس من أمام يلوح لي، الدنيا التي أعرفها لن تقبلني مجددًا وقد كانت أساسًا لا ترتاح لي، ولن أقبلها فلم أكن أجد لنفسني القليلة التائهة مطرًا أتكى عليه، الجحر الذي يضمّني الآن ضيق مقيت، والغد، ليس هناك غد لأمثالي.

نخرج في لحظات الهدنة، نتكئ على الحجارة أو جذوع الأشجار، تاركين دفء الشمس يخبرنا أنّنا ما زلنا أحياء. تمرّ النسوة السبايا مسوقات في طابور طويل، عيون واسعة مذعورة أو ذاهلة، أجساد نحيلة مترنحة، وجوه شاحبة ودموع عالقة في المآقي، لا بدّ أن لتلك الفتاة التي انفلتت خصل الشّعر الأحمر من غطاء رأسها حبيبًا يعبدها بصورة ما؛ لكنّها قد نسيت شأنه في تلك اللحظة، تتقدّم كأنّها راضية بما سيفعله الجلاد، وتلك الصغيرة المذعورة لا بدّ أن أمّها كانت حريصة على وضع كأس الحليب أمامها كلّ صباح، ولعل تلك الأم تفرّقت الآن كما تنفجر اللبنة الكهربائية، لهذا تسير البنت كيتيمة، هل يمكن معرفة اليتيم من الخطوات الثقيلة للجسد النحيل الخفيف كما ريشة

لا تطير؟ مرت صبية بعيون تتوسل، كأنها وجهت استجداءها نحوي تحديداً، ألا تراني منهمكاً بتنظيف سلاحي؟ ماذا يمكن أن أفعل لعينين تشبهان عيني ندى وهي تساق إلى عريسها؟ ثم أنني لا أنوي القيام من قعدتي ولا أرغب بالانفكاك عن بندقيتي من أجل امرأة أو جزء سخيّف منها كالعينين. أشحت بنظري عن سرب السبايا الماضيات إلى حتفهنّ، لو تركت مخيلتي تنتقل هكذا على هواها، قد تضعفني لأساعد واحدة من تلك المخلوقات التعيسة على الفرار، عندها لن أضمن رفيقي القريب مني المنشغل بصور أبنائه يعرضها على الصحاب، قد لا يتردّد في رشق رصاصته في ظهري ثم يمتلك الفتاة التي لا تعنيني، لهذا من الأجدى الانصراف إلى بندقيتي بكامل ضعفي علها تقويني.

لا أتكلّم، فلم يكن هناك من يصغي، حتى قبل أن تنتشغل عائلتي بالأجهزة الإلكترونية الصغيرة، وقبل أن يفقد أبي ذاكرته، لم نعتد على الإصغاء أو البوح، نحن هكذا مخلوقات متوحدة مع ما يدور في أعماقها التي لا يمكن الوصول إليها ولو تدلّى أحدنا كدلو في بئر الآخر، لكلّ واحد منا طابقان، أو ثلاثة، إذا دخلت في باب يقود إلى طابق، فرّ المرء إلى الطابق الآخر، هكذا لم نلتق حقاً، ولو شاهدنا ذات البرامج المملة على الشاشة ولو جلسنا إلى مائدة طعام واحدة استجابة لإلحاح أمي الخالي من المنطق. صوت نوال حاد ينقر رأسي وهي تحرص على مثل هذه المسرحيات العائلية، فإذا جلسنا، كانت أول الغائبين. تعيش أمي في عالم موازٍ، يحدث أن تعود منه إذا طلبت شقيقتي الكفيفة مملحة الطعام، أما أبي ربحي الغامض الصامت فهو خارج حسابات العائلة، أعني لا يمكن أن يجلس رجل غريب على أريكة في صالتنا يتناول القهوة ويقرأ الصحف ويقلّب القنوات التلفازية ثم أدعوه أباً، رحلت شقيقتي ندى مع زوجها بعيداً. اختفاؤهما من حياتنا أفضل ما حدث في بيتنا، فهذه ليست بنتاً بالتأكيد، بل شوكة نبتت على أسرتنا وفي انبعاجات الأرائك، يستخرج حنقها أسوأ ما لديّ من غضب، نتناطح مثل ثورين صغيرين، رغم أنها تكبرني على الأقل بأحد عشر عاماً، لا نكفّ عن السباب والشتم وشدّ الأردان والشعر واللطّامات على الوجه والصدر إلا حين تبكي العمياء متوسلة إلينا لنتوقف. تظنّ نور ما يدور من معارك كارثة كبيرة؛ لكنّه مجرد تناطح بسيط ينفلت بعده كل منا إلى حجرته، وقد خفف حمولة الغضب التي تآكل قلبه. أنصرف إلى أعماق سحيقة في نفسي؛ إذ إنني لست من طابقيين كالآخرين، أنا ظاهر وعمق سحيق معتم، مدبب كجبل الجليد غارق معظمي في المجهول. في فترة حمقاء حقاً ظننت أن مُصلِحاً ذاك يجيد الإصغاء، فتبعته بجذل النعجة البلهاء ليقودني إلى شيخه، يشبه الشيخ الملتحي ابن جيراننا كريم، ذاك الذي ذهب إلى

أفغانستان أو باكستان، لا أعرف أيهما على وجه التحديد. الفارق أن جارنا ينظر نحوي متحدياً رغم أنه يبتسم للجميع ابتسامات مدروسة بعناية ولكنها ليست بارعة كفاية كي أصدّقها، مع ذلك فإن شيخ مصلح استطاع اجتلاب انتباهي، كان ينظر نحوي كما لو كان عاشقاً، تتسع أرنبتا أذنيه وهو يسمعي منصتاً كأني أفوه بكلمات قدسية، هو نفسه يكثر من الآيات والأحاديث فيلجمني لأتأدّب، صرت عجينة التي شكّلها بهوادة وروية، هو الذي عبّد لي الطريق إلى سوريا، وهأنذا، غريب بين غرباء، لا ينصت إليّ أحد ولا أرغب بالكلام لامتحانهم.

تدكّ القذائف الأبنية المحيطة، وتتساقط براميل الغاز المشتعل مثل النيازك في وضح النهار، يتواصل طنين الطائرات التي تستبج السماء مُفرّعة الطير، حين ترتطم البراميل بأسقف المباني تحدث جرحاً مفتوحاً في الفضاء، ينفخ الهواء لفتحة كبيرة لا تلبث أن تمتلئ بأغبرة الأبنية المتطايرة وشظايا المعدن، وعفاريت نارية تنتهي بأذيال رمادية وأخرى بلون الرماد الداكن، وفي الأسفل يرقد موت كثير تحت الهدم.

يحدث كَرّ وفرّ، في المدرسة كنت أضحك بصفقة على تعبير الشاعر الذي صنّفوه عظيمًا، لا أجد أسخف من مشهد غير منطقي، مكر مفر، مقبل مدبر، أكتب ضحكتي من هذا المقبل المدبر، فأنت إمّا مقبل أو مدبر، اليوم فقط فهمت منطقية المشهد لأنني فيه، كان الشجعان يتراطمون ويتدافعون كفئران في محبس.

يحدث أن ننعّم بهدنة ومساحة نعرها بأوهام النصر، نخرج من الحفر والخنادق التي حفرناها، يسمّون الحفرة التي نندسّ فيها خندقًا، هناك مكابرة في الكلمات، هي مخبأ نحتمي في ظلمته، نخرج منه عندما تختفي أصوات الطائرات وبراميل الموت، نبحت عن ضوء الشمس ونفحة هواء في صيف ساخن، نصنع حياة جديدة منبّئة عن كل حياة كانت، يكون لنا أصحاب وأمسيات ضاحكة، نغني إذا لم يكن الأمير بيننا، فهو لا يحب الغناء، نتبادل السجائر، ويختلي بعضنا بزوجات ينجبن لهم أطفالاً، من قال إنّي أحبّ البنات، لا أبحث عن سبايا وزوجات شرعيات ولا تلح علي رغبات الجسد الحمقاء. الأمير لا يصدّقني، يرشّح البنت التي مات زوجها قبل أيام، ثم ينوع ترشيحاته عارضاً تزويجي بنناً فرنسية مسلمة، يمكنني تفحص وجهها جيداً كي أقدر مبلغ جمالها؛ لكنني لا أتقن اللغة الفرنسية، يقطب الأمير بين عينيه متشككاً، يحني رأسه نحوي متظاهراً بالتفهم هامساً: هل تفضّل ولداً؟ أنتفض رافضاً، ما هذه السخافة؟ هل يظنّني مجرد حيوان تطارده غريزته؟

أنا الذي كنت أعاقب البنات السخيفات في قهوة السلطان، أجلس قبالتهمّ أسحب أنفاسًا عميقة من الأرجيلة التي يبقب ماؤها، وأثبت ناظري بصورة وقحة على المناطق المكشوفة من جسد الفتاة، فخذ مضغوط بجراب النايلون الأسود، جرح بين النهدين ينفر من فتحة القميص، أبدو معجبًا وأنا أعريّ الجسد المشبوه أمامي، الفتيات اللواتي تكحلنّ بخطّ أسود كالجحيم فوق أعينهنّ، اللواتي صبغن شفاههن بأحمر فجّ، كما لو أنهن قطط أكلت أولادهما، يجلسن باحثات عن مهتمّ أو مغامر أو طالب لذة عابر، ولم أكن لا هذا ولا ذاك، ولكنني أتسلى بإرباكهنّ، بجعلهنّ ينتظرنّ متحسبات متمنيات، تعجبني مبادلتهمّ ابتسامات خفيّة ومراقبتهمّ بحركاتهنّ القلقة حين يقفن معوجّات، عارضات بضائعهنّ للشاري، ثم يجلسن بانتظار قيامي بالخطوة الأولى، النساء عاهرات على مقاعد المقاهي وفي المكاتب والبيوت، أستثني نور، فهي لم تكن تخرج كثيرًا ثم من يحفل بعمياء على الطريق؟ ينزاح الكون لمرورها، ولو أن نذلًا مثلي حاصرها بمثل نظراتي، وإن كانت لن تراها، فإنّي سأدوس في بطنه وأشجّ رأسه على أقرب حائط حجريّ؛ ولكنني كنت وحدي في المقاهي أضيع الوقت ثم ألفّ خرطوم الأرجيلة حول زجاجها وأدفع حسابي للنادل وأنصرف تاركًا ورائي خيبة بوسع الفضاء. فكيف تريد تزويجي أو امتحاني بولد؟

في عرس ابن خالي الأكبر الذي نسيت اسمه، أقصد ابن خالي، حدقت في الأجساد وهي تتقافز وتتمايل راقصة على وقع موسيقى خرقاء، بدا المشهد سخيفًا وسرحت إلى لا مكان، فجأة ربت خالي الأصغر محمود كتفي بقوة متودّدًا متبسّطًا، قال: ماذا تفعل الآن يا بطل؟

أحب أن يناديني: يا بطل.

همست: المدرسة، عادي.

- وهل أنت طالب متفوق كأملك؟

همست: زفت.

ضحك خالي بسخافة وتشدّق بصوت عال: لا يهمّ يا بطل، دعك من المدرسة التي لا تطعم خبزًا، تعال عندي، أعطيك سيارة تخيل عليها في طريق مفتوحة، تعال في أي وقت.

لم أذهب حينها؛ ولكن صورة السيارة التي أمتطيها في طريق مفتوحة لم تفارق خيالي طوال عامي الدراسي الفاشل، يعصف بي القلق وحس غامض لأشياء قذرة تقع في بيتنا، أتسلل من الحصص الأخيرة عائداً إلى البيت، علني أجد أمي متلبسة بجريمة ما! تجنني حركاتها المريبة، ولا أعرف ماذا سأضبط على وجه التحديد، وأي خوف يعرقل خطاي لأغير وجهتي وأتسكع في الشوارع صارفاً النظر عن مخطط كشف أسرار أمي.

مع انتهاء العام ورسوبي النهائي استخرج لي خالي رخصة القيادة وألحقني بأسطوله، وراح يعرف الآخرين بي قائلاً: ابن اختي، البطل نادر.

أحبّ طريقته في تدليلي وإن أضاف وهو يرمي لي بمفاتيح السيارة: يا بطل. لا تلعب بدمك.

فقدت أمي عقلها وكان ما سيأتي من العمر معلّق بخيط واهٍ بشهادة المرحلة الثانوية المقدسة، لا أحد ينتبه إلى أنني لم أحبّ المدرسة، لم تخرط تلك العلوم والتّرهات السخيفة عقلي، حتى لو كنت جاهلاً بما عليّ فعله خارج أسوار المدرسة فهذا لا يعني أن أظل خانعاً لقيودها كأنها خيارى الوحيد، كما أنني كنت بحاجة إلى طريق بعيدة تحسم أمري حين تتلاعب بي الشكوك وأنا أتلصص على أمي، من الأفضل أن أبتعد عنها مسافة كافية. انتشلني خالي وساعدني لأجد درباً جديدة مفتوحة في طريق طويل صحراوي متعرج يختنق بالأغبرة والشاحنات.

لا أكرث لسخرية أمي عن كيفية تنمية خالي لثروته، لا شك أنها تحسده، فقد اقترن بابنة رجل يملك عدداً من السيارات على خط الزرقاء - عمّان، ثم بعد سنوات نقل كل هذه السيارات القديمة التي تصدر أصواتاً وسناجاً إلى ملكيته الخاصة بدعوى حماية أملاك زوجته. هي ما تزال زوجته على أيّ حال. هناك رجال ونساء يسرقون بعضهم بعضاً لكنهم يحافظون على قدسية الحياة الزوجية، يا للسخافة!

صرت السائق المتهوّر بين السائقين، أستمع إلى اسطوانة لأغنية «خيال الزرقا» وأترقص في جلستي كأنها تعينني. تحرر الغضب القابع في أعماقي وراء المقود، أقود المركبة كما لو كنت صعلوكاً في فيلم أميركي أو مجرمًا مطارداً في شوارع مدينة تعجّ برجال الأمن وصائدي الجوائز. يطلب بعض الركاب مني التوقف قبل الوصول إلى مقاصدهم، لا يحتملون تحكمي بالجسد الحديدي

وهو يطير بهم مخترقاً الشارع العريض الى شوارع فرعية ضيقة حافلة بالحفر والمطبات الصناعية العالية.

دلّني خالي: يا بطل، وكّرر عشرات المرات: لا تلعب بدمك. لكنه لم يتحملني، حين حطمت مركبته في ارتطام نجوت منه كأني حالة عجائبية، ظننت حينها أن كابوسي تقسر، خرجت من بين الحطام وقبل أن يتفقد الخال الحنون جراحي المحتملة طردني ببساطة. لم يعد هذا أمراً مهماً، إذ كنت قد تعرفت على مصلح الذي يقود شاحنة (كيا) سخيفة تنقل قطع الأثاث الخشبية من ورشات الزرقاء إلى معارض عمّان، يعيدني معه في معظم الأيام فنسمع معاً اسطوانات مدمجة لقراء يتلون القرآن، يخبرني في أسمائهم وكأني أعرفهم، أحياناً يضع اسطوانة لرجل يصيح واعدًا بالويل والثبور. بصراحة لا أعرف معنى الثبور وأنام معظم الطريق حتى أصل إلى عمّان.

أرتطم بالدّاعية كريم عند بوابة البيت وأسمعه بوضوح يتمتم: أستغفر الله العظيم. فأعرف أنّ أمّي أو أختي تمرّ ببئطالها الضيق وقميصها الذي يكشف ذراعيها. وأحاول وراء الجدران التي هي بيتنا أن أعيد الأمور إلى نصابها، أعربد وأشتم حدّ الإهانة. نساء البيت مسؤوليتي الأخلاقية، وإذا كنت أرتكب أثاماً سخيفة فإنّني أستطيع منع آثام أخرى تحت سقف بيتنا، لماذا على نسائي أن يختلفن عن الشارع الذي بدأ يلتف بالجلابيب والحجابات، علينا جرّ النساء إلى حظيرة الدين من شعورهن، لن أنتظر حتى تهتدي أمّي بفعل معجزة، أو تستقيم حياة أختي بقناعة وإيمان، كان أبي قد بدأ ينسى، ينهش عقله ما يسمى بالزهايمر، ولو لم يكن كذلك فإنه خانع لا يهتم بتلك الأمور. أنا الذكر الوحيد في هذه العائلة التي تحتاج إلى من يعيدها إلى صوابها.

أنا رجل متديّن إذن، فاجأت نفسي بما أعرفه وما يمكنني الاتفاق عليه حين عقدت خطبة شقيقتي ندى لرجل يفهم في أمور دينه، كان معجباً بي وقد اتفقنا أن حفلاً تظهر فيه أمّي وقد كشفت شعرها سيكون محرّجاً خاصة أن هداية مفاجئة ألّمت بشقيقتي قبل زواجها وسفرها. أتاح لي صهري أن أكون صاحب قرار في بيتنا. نحن لا نعرف ما الذي يغيرنا فجأة، ولكن عن نفسي فإنّ أساسي صالح كما يقول مصلح، حتى لو أرهبتني الخطابات المتفجرة الصادرة عن مذياع سيارته، وجعلتني أتشكك بأنني لم أكن صالحاً تماماً، وبأنني عاجز عن مثل هذا الصلاح اللانهائي في يوم من الأيام.

يكبرني مصلح بعشرة أعوام على الأقل لكن هذا لم يمنع أننا دخنا معاً سيجارة حشيش، «الحشيش حلال» ولو منعه قانونياً، قال إني لن أعتز على مثل سيجارته ولا حتى في القاهرة فقد

وصلته خصبًا من لبنان، لم يترك تدخينها أثرًا أتذكره في ذهني، لم أسبح في الهواء ولم أتطوح في حالة طرب وبهجة ولم أخرج من بين جدران الحديد التي تمثل حجرة القيادة في سيارته المتسخة، لعل سيجارته الموهومة تبث مضغوط وبعض الحشائش البرية. مع ذلك فغرت في وهو يبكي حين قُتل أسامة بن لادن، لماذا يبكي رجلًا غريبًا قتل في بلاد بعيدة؟ ولكن الأمور معه أخذت منحني غريبًا، نقلني مصلح هذا نقلة عبقرية من حياتي الباهتة السخيفة إلى حياتي العجائبية، أخرجني من البلاد متسللاً إلى الشمال السوري، في أزمنة أخرى حين كنت أسمع حكايات طلاب المدرسة عن إجازتهم في سوريا وتناولهم الكفتة والكباب في مطعم الكمال، المطعم المفضل لدى الأردنيين في قلب دمشق. تمنيت زيارة سوريا يومًا، والجلوس ماذًا قديمي في المطعم الشهير أدخّن الأرجيلة؛ لكن دخولي سوريا لم يكن من جهة دمشق، بل من شمال البلاد عبر طريق مقطوع، غادرت عمّان دون إخطار عائلتي. هل يسمى هذا فرارًا؟ مضى زمن لست أحصيه منذ وقع فراري.

فكرت بالعودة طوال الطريق إلى حلب، هكذا ببساطة، أقول أنني غيرت رأيي وسأعود، لو أنني كرة ألقيت في فراغ مقفر وارتطمت بلا سبب ولا منطق في جدار ما برز في الفضاء الشاسع، لارتدت الكرة إلى الاتجاه المغاير، مخترقة الأفق بنفس السرعة التي مضت بها، لو أنني تلك الكرة، أرتد وأنسى، أعتذر عن خطواتي على هذه الدرب وأختار العودة والهبوط بسلام حيث البطالة والعطالة والبيت المتجهّم والأم النكدة والأب الناسي والشقيقة الخرافية العمياء. ولكني لا أستطيع، تعذرت العودة ولا يبدو جدار الخوف الذي ارتطمت به ناجعًا في تصويب مساري في حركة ارتدادية. شلّ الخوف حركتي على الدرب الصحراوية التي تنتقل فيها العربية خلصة بعيدًا عن أعين حرس الحدود ونقاط المراقبة، محنط في مقعدي، محبوس في صمتي بينما يشتعل عقلي كفوهة بركان، يتمدد الخوف في كل الاتجاهات، يوزّع حولي جدرانًا متلاحمة تخنقني بينها، أفقد بوصلتي، أيّ بوصلة؟ أنا لم أمتلك شيئًا سخيّفًا كهذا في يوم من الأيام، وها أنا ماض إلى حلب رغم أنف الخوف.

أفتقر إلى الشجاعة، ولولا بندقيتي كنت ذهبت إلى حيث لا أريد الذهاب، ولولا رفقتها فقدت عقلي، تغرس البندقية قدمي على أرض الحياة بثبات، ترأف بي وتنصت كاتمة سرّي، حبّي الأول والأكبر، ممشوقة القوام، ملساء جهنمية في وعدّها بتدمير العالم، ترسله إلى الموت المحقّق لتبعثني من موتي.

لو أنّني أغمض عيني وأفتحهما فإذا بي طالب أرعن في الجامعة أطلّي شعري ببريل كريم اللامع، وأغازل بنات الجامعة أتحرش بهن وألثم الكتب، أحفظ كلماتها وترتيبها سطرًا سطرًا، وأنضبط في دراستي مثل عقارب الساعة وأنجح، من يدري قد أفيق يومًا فأرى صورتني في مرآة نظيفة وقد ارتديت روبًا جامعيًا مكويًا بعناية وقبعة تخريج بذؤابة سوداء قصيرة، بين كفي شهادة ملفوفة مثل حرز تاريخي ثمين، لو حدث هذا فإنّي لن ألعن حظي إذا تأخر حصولي على وظيفة، لا بأس، كل شيء يأتي في ميعاده. وكل ما أعيشه مجرد كابوس سخيّف، لكن الواقعي والمنطقي يسير عكس أمنيّاتي السخيفة، فلا أظنّ أنّي أسامح على الدرب التي مضيت إليها، أعلق مثل شاه وأرتجف مثلها إذا حزوا رقبتني بسكين أو أنشوطة، وقد تخترقني رصاصة كأني المسؤول عن طابور السبايا والرؤوس التي تدرجت على التراب، والأجساد التي أكلتها النيران. لن أعاتب أحدًا لو قالوا إنّني وحدي المسؤول عن هذا الخراب. الصور مضطربة في ذهني وكأنّي دخنت سيجارة مصلح الملعونة.

ربما كان عليّ أن أنفجر في فضاء واسع خال، أو في بيداء بعيدة لا جن ولا أنس يسكنها، أو لعلّي أموت برصاصة أضعها بنفسني في رأسي، فالله لا يريد من فتى ضال مثلي أن يموت لأجله، وفلسطين لم تتاديني لأموت من أجلها، وبالتأكيد لست أموت من أجل سوريا، ولا يعنيني أمر أجاهد من أجله، أنا فقط متعب، أشتهي أن أنفجر في ذاتي.

حدث الانفجار، طائرة أو قذيفة مدفعية أو صاروخ موجّه! شيء مدمر اقتحم حلق الخندق وانفجر فينا، تشقق الجدار الحجري حولنا أولاً ثم لحس الموت كل شيء بمقدار.

تطايرت أشلاء لا رابط بينها إلا أنها كانت هنا، ولن تعود كذلك، تراب خشن وأغبرة كالرماد، السنة نيران ملونة تتراقص حولي، حجارة ترتفع وتسقط، معدن صدئ يدور بين ذرات الغبار، ولحم ينعف دمه في قلب المشهد، وأطراف بشرية بكامل بهائها تحط بالقرب مني مفصولة عن أجسادها، تقع كأنها ميتة، حشرات تحت الأنقاض وصرخات في الزوايا، أهات وأنين منخفض لبعض من ولجوا موتهم أقلّ صخبًا من سواهم، تتخبط بعض الأجساد ثم تهمد، بعضها يرتمي على بعض، لا أعرف أيّ فيلم شاهدته قال فيه القائد لجنده: قاتلوا من أجل الرجل الذي يقف إلى جواركم. فيلم جعل من كل المقاتلين فيه أبطالًا، تمثيل في تمثيل، مخرج أحقق لم يحسب حساب الخوف وحسابي أنا شخصيًا الذي لا أريد أن أقاتل من أجل رجل إلى جوارني، كان يتسلى قبل هنيهة بصور

أطفاله ويكتب لامرأته، كم كان منظره سخيًّا وهو يكتب في خندق الموت، تتلوى شفاته ويتغضن وجهه كجد منفعل العواطف، ثم يعوي.

لا تلعب بدمك يا بطل، هكذا كان خالي يقول لي، الآن ألعب بدمي، هذه اللعبة الجهنمية حقًا، وإذا كان العالم مكفهرًا قبيحًا إلى هذا الحد، حد أن أشعر باللزع يرفع من فتحة في رأسي لا تؤلمني بتاتًا، يسيل دمي فوق وجهي سلاسل دافئة تنتشر في اتجاهات مختلفة مخططة وجهي، أي حب ظننته نشأ بيني وقطعة الخشب والماسورة المعدنية والزناد الثقيل؟ أستطيع والكون في هياجه أن أخون، ألقى بنديقتي يتيمة مهجورة تحت قدمي، لا أتمكن من تقدير عدد جراح جسدي ودمه الغزير يتدفق من فتحات كثيرة كأنها الينابيع الناززة على عشب الربيع. لا أملك في جيبى هوية تعرف بي، ولا رسالة اعتذار لأمي، ولا صورة لحبيبة يمكن أن تطير إذا تشظى جسدي، أين ستقع ندف لحمي وندف أشلائي؟ وهل سيدوسها الرفاق الهاربون أو أولئك المقدامون المندفعون في وجه الموت، لا أعلم، وهل لهذا أهمية؟ عندما ينطفئ السراج، تتساوى الأشياء في العتمة، كل ما يهم قبل تلك اللحظة الفريدة أني خائف، خائف حد الموت، يرغمني الجسد الواهن وهو يموت على الجلوس مسترخيًا راعشًا متأوِّهاً، أسند رأسي على جدار الخندق المتداعي، وأتفرج.

لم يكن الانفجار في فوهة الخندق مزعجًا، فج ضوء ملون ملثاث بين الأصفر والأحمر واندفعت النيران مسرعة في الممر الواصل نحونا، وطار سقف الخندق بعيدًا ثم انثال فوقنا مجددًا، جالبًا معه غمام سوداء ونثار أحجار ولحم ودم وانفجارات صغيرة تبرق وتنطفئ كأضواء العيد، وفي اللوحة العبقريّة التي خيمت فوقي، وأنا ممدّد مدمى مجروح كانت السماء تهرب بين السحب الرمادية، زرقاء صافية متوهجة، وانساب خيط لزج من سائل دافئ إلى محجر عينيّ غشي ناظري وصار العالم أحمر. إلّا أنّني سمعت هديلًا، وفي الشذرات الزرق التي دسّتها السماء وسط اللوحة المعتمّة المحمرة، رأيت يمامة تخترق الغبار الرماديّ وألسنة النار، ترف بجناحيها منخفضة نحوي، عيناها قبالة عينيّ وكلانا لا نرى، لكنها تمسح جراحي بفيض من حنان لم أذوق عذوبة طعمه قبل تلك اللحظة الخالدة.

صدر للمؤلفة

● في القصة القصيرة:

1. دومينو، دار نارة، عمّان، 2009.
2. أوركسترا، دار الكندي، الأردن، 1996.
3. مع الأرض، دار الأيام، الخرطوم، 1976.

● في الرواية:

1. على جناح الطير سيرة المدائن، ط1، دار الحوار، دمشق، 2011، الآن ناشرون وموزعون، ط2، عمّان، 2019.
2. نحن، ط1، دار نارة، عمّان، 2009، الآن ناشرون وموزعون، ط2، عمّان، 2019.
3. فستق عبيد، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة كتاب عرب، مصر، 2016، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2018.

4. المدّ، دار الشروق، عمّان، 1983، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، ط3، 2018، ط4، 2019، ط5، 2021.

5. خرابيش الحرف على الروح، الآن ناشرون وموزعون، عمّان 2016.
6. بابنوس، دار ضفاف، بيروت، ودار الاختلاف، الجزائر 2014.
7. يحيى، دار ثقافات، أبو ظبي، والدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2010، الآن ناشرون وموزعون، ط2، 2021.
8. الرقص مع الشيطان، دار نارة، عمّان، 2008.
9. دفاتر الطوفان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ثم في طبعتين عن وزارة الثقافة الأردنية ودار نارة، 2007.
10. نارة-امبراطورية ورق، دار نارة، عمّان، 2005.
11. الصحن، دار أزمنة، عمّان، 2003.
12. خشخاش، الدار العربية للدراسات، بيروت، وحُوّلت إلى نص مسرحي من إعداد الكاتبة، وتم إخراجها على خشبة على يد المخرج حكيم حرب، 2000.
13. القرمية، أمانة عمّان، ثم صدرت في طبعتين عن كل من دار سنابل، القاهرة، ووزارة الثقافة الأردنية، 1999.
14. شجرة الفهود-تقاسيم العشق، منشورات أمانة عمّان، ثم في طبعتين عن كل من دار شرقيات، القاهرة ودار نارة، 1997.
15. شجرة الفهود-تقاسيم الحياة، دار الكرمل، عمّان، ثم في خمسة طبعات، عن كل من أمانة عمّان، ووزارة الثقافة الأردنية، ومكتبة الأسرة، ودار شرقيات، القاهرة، ودار نارة، عمّان، 1994.
16. رحلتي، دار الهيثم، بيروت، 1979.